نصيحة أهل الإسلام
بما يدفع عنهم داء الكفرة اللئام
(الدين الخالص)

تأليف

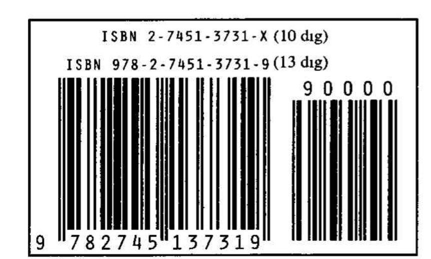
الإمام الحافظ شيخ الإسلام الشريف
أبي عبد الله محمد بن جعفر الكتاني الحسني
(١٢٧٣هـ - ١٣٤٥هـ)

باعتناء وتقديم حفيد حفيد المؤلف
الشريف محمد حمزة بن علي بن المنتصر الكتاني



Title: Naṣīḥat ahl al-'Islām bimā yadfa' 'anhum dā' al-kafarah al-li'ām
classification: Preaching
Author: Muḥamad ben Ja'far al-Kattāni
Editor: Muḥamad Ḥamzah al-Kattāni
Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages: 232
Year: 2007
Printed in: Lebanon
Edition: 1st

الكتاب: نصيحة أهل الإسلام بما يدفع عنهم داء الكفرة اللئام
التصنيف: دعوة
المؤلف: الإمام محمد بن جعفر الكتاني
المحقق: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني
الناشر: دار الكتب العلميـة - بيروت
عدد الصفحات: 232
سنة الطباعة: 2007
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الأولى



ISBN 2-7451-3731-X (10 dig)
ISBN 978-2-7451-3731-9 (13 dig)





الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg
Tel +961 5 804 810/11/12
Fax +961 5 804813
P.o Box 11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة،
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ١٢/١١/٨١٠ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص ب ١١-٩٤٢٤ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وبعد. . .

فإن الكيان الذاتي لأي أمة من الأمم، أو مجتمع من المجتمعات؛ هو أهم ما تصرف فيه الطاقات البشرية لرعايته وازدهاره والحفاظ عليه، وعلى مستوىٰ الفرد يدخل تحت مسمىً: **حفظ النفس** الذي هو أحد الكليات الخمسِ التي اتفقت على حفظها سائر الملل -بل سائر الأحياء عرف استقراء صراعها من أجل البقاء- وأي كيان (فرد، مجموعة، مجتمع، أمة. . .) يتعرض لمحاولات التحوير أو الاستعباد أو الإبادة؛ فإنه يصرف طاقاته في رأب صدعه، والتحفظ من المحاولات العاملة علىٰ تقسيمه والإضرار به.

والمجتمع الذي يعرف مصلحته، ويقيِّم مدىٰ المخاطر المحدقة به، ويعمل علىٰ دفعها بما له من طاقة؛ هو المجتمع الواعي المثالي الذي تزدهر لديه فرص الاستمرار والدوام. . .

وإرادة البقاء في الكتلة البشرية (مجتمع، أقلية، أمة، دولة. . .) كفيلة بالحفاظ على وحدتها وصمودها وهويتها تحت أي ضغط خارجي كيفما كان، ومن ثمة تعويض الخسائر التي ربما تتكبدها هذه الكتلة البشرية، كما قيل:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وشاهده: قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

والإرادة: انفعال داخلي نتيجة **معرفة** مؤثر خارجي أو داخلي محفز لرد **فعل** يتناسب والتكيف معه طبق مصلحة البقاء الذاتي.

وأول **مراتب المعرفة**: الإحساس، ثم التصور، ثم الإدراك، والإحساس يفتقر إلى

وجود باعث يدفع إلىٰ السؤال عن المعرفة، وموضوع تنوط به المعرفة، وذات تعمل علىٰ جس الموضوع المناطة به المعرفة، فمهما افتقرت الذات إلى الباعث الدافع بهانحو استلهام المعرفة؛ لم تتوجه إرادتها نحوها، وبذلك لم تنفعل مع العالم الخارجي، أو بلغة أخرىٰ: مع الموضوع، فلم تتدرج في المستوىٰ المعرفي الثاني: والذي هو الإلهام، ثم الحكم (رد الفعل)، ثم القياس (وهو ما يسمى في هذا العصر بعلم: المستقبليات، وينتظم تحت علم التخطيط والتنبؤ).

ولما كان لكل فعل رد فعل، والفعل لا يكون نحوه رد فعل حتى ينفعل له المفعول به، ولا ينفعل المفعول به نحو رد الفعل حتى يدرك وقوع الفعل عليه؛ إذ الأصم لا يسمعك ولوناديته ببوق؛ وجب على أي فاعل معرفة وإدراك المؤثر الخارجي ليقوم برد فعل نحوه. وبذلك يجب توفر:

١- مؤثر خارجي، وهو ثابت في ذاته.

٢- انفعال من الكيان نحو المؤثر الخارجي للإحساس به.

٣- الإحساس بالمؤثر الخارجي ثم تصوره ومدىٰ خطورته أو نفعه،ثم إدراك مباعده، ثم تقييم هذا الإدراك ثم التعامل معه وفق مصلحة البقاء الذاتي التي هي غريزة في كل موجود له القدرة علىٰ الإحساس، وهو رد الفعل. . .

ولذلك فإن أية أمة من الأمم تنهار أمام المؤثرات الخارجية يكون السبب عائداً -تحت ضوء ما مضى- إلىٰ:

١- عدم المبالاة بالمؤثر الخارجي، وهو عائد إلى أمور أهمها: عدم تقييمه والاكتراث به، أي: عدم معرفته معرفة حقيقية. . .

٢- عدم وجود الحافز نحو دفع المؤثر الخارجي مع معرفته، وهي تشوه في الفطرة البشرية؛ إذ ما من مخلوق إلاّ ويحارب نحو البقاء. . .

٣- عدم وجود القدرة لدفع المؤثر الخارجي، والسبب الرئيس لهذه النقطة هو: الانسجام غير الكافي، أو المنعدم، للكتلة البشرية نتيجة لـ:

أ- طغيان شريحة علىٰ أخرىٰ.

ب- عدم وضوح المبادىء الهيكلية العامة التي تجتمع عليها البشرية، لأفرادها.

جـ- الانتباه المتأخر للمؤثر الخارجي...

وعلى ضوء ما سبق، فإن المجتمع إذا لم يع تآمر العالم الخارجي عليه، ومواقفه سلباً وإيجاباً نحوه؛ لم يعمل على الحفاظ علىٰ كيانه بالصورة الكفيلة ببقائه؛ فيكون المجتمع بذلك معرضاً للتغلب عليه من طرف المجتمعات والأمم الأخرى...

فالمسلم ما لم يكن في وعي تام نحو المؤثرات الخارجية نحوه، والخطط الغربية الرامية إلى إبادة أمته وصهره في قوالب التغرب والعولمة والعلمانية، وغيرها من المسميات الحديثة؛ فإن شخصه وأمته يكونان تحت وطأة خطر الاندثار والاستعباد...

غير أن معرفة المخاطر المعرضة لها الأمة الإسلامية غير كاف ما لم يكن ثمة وازع ذاتي للنهوض بالنفس، ومقاومة الهجمة الخارجية، وذلك عن طريق توحيد الصف بقطع الاستبداد، والتكافل والكينونة علىٰ مستوىٰ التقدم العالمي معرفة ووعياً وتكتلاً.

والوازع لا يهتم ولا يقوم إلاّ بالإيمان الكافي بالمبادىء التي بنيت عليها الأمة الإسلامية، وهي: الإسلام. والإيمان بالرسالة الخالدة التي أناطها الله تعالى بنا في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، والأمانة هذه هي: نشر الإسلام رسالة خالدة شاملة للفرد والدولة، العادة والعبادة، الشخص والمجتمع. محافظين علىٰ القيم والمبادىء التي حضت عليها الشريعة الإسلامية؛ ما هو مفصل في كتب الفقه والآداب (التصوف).

ولا شك أن الأمة الإسلامية وصلت في هذا الزمان إلىٰ أقصىٰ انحدار لها منذ وجدت؛ حيث تكالبت عليها الأمم من كل جانب، وأصبحت مأكلة للدول العظمى،

كما أصبح المسلمون هذا الزمان بيادق تسيرهم السياسات العالمية الكبرىٰ كيفما شاءت وأرادت طبقاً لمصالحها الخاصة، غير مبالين لا بقيمهم، ولا بحضارتهم، ولا برسالتهم الخالدة، ولا حتى ببقائهم...

وقد شخص رسول الله ﷺ وعلىٰ آله موقع الداء، ووضع يده الكريمة علىٰ السبب الرئيس في انحدار الأمة الإسلامية في آخر الزمان، فقال فيما أخرجه عنه الإمام أحمد وأبو داود والبيهقي في «دلائل النبوة»، وغيرهم عن ثوبان رضي الله عنه مرفوعاً: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعىٰ الأكلة إلى قصعتها». قيل: يا رسول الله؛ فمن قلة منا يومئذ؟! قال: «لا؛ لكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم؛ لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت»...

فحب الدنيا وكراهية الموت؛ أي: إيثار المصالح الخاصة علىٰ حساب المبادىء العليا؛ هو السبب الأصل في انحطاطنا، والذي بدوره هو ضعف الحافز الذاتي للدفاع عن النفس وعن المبادىء، والذي مرده إلىٰ الاستهتار واختلاف الكلمة وقلة الوعي، وكلها مردها إلىٰ ضعف الإيمان بالمبادىء التي دعا إليها الإسلام؛والبشائر التي بشر الله تعالىٰ بها القائمين بأمر الدعوة إلى دينه، والجهاد في سبيله...

فضعف الإيمان؛ أي: عدم العمل بما أمرنا الله به اعتقادا وفعلاً؛ أدّى إلى ضعف الهُوِيَّة الذاتية، أي: الانتماء للأمة، ثم ضعف الحافز على الدفاع عن الأمة كأمة، ثم إلى التناقض فيما بيننا في مجتمعنا، وبذلك ضعف البنية الذاتية، ومن ثمة عدم المبالاة بالمؤثرات الخارجية، لعدم معرفتنا بأنفسنا فنعرف أعداءنا:

والضد يظهر حسنه الضد

فلم نبق مستعدين لمواجهة أي هجمة خارجية ضد مبادئنا ودِيننا ووجودنا... وبذلك وصلنا إلى ما وصلناه من المدارك.

والإيمان: اعتقاد وقول وعمل، لا كما يدعيه الكثير من قولهم: «الإيمان في القلب»، إذ جائز الوجود عند الفلاسفة في حكم العدم نسبة لواجب الوجود: القائم بنفسه، المنفعل من ذاته لذاته[1] فالاعتقاد بالشيء ما لم يتجلَّ في تحرك الحواس طبقاً إليه: لم يعد اعتقاداً ولا شعوراً:

إذا اهتزت الأرواح شوقاً إلىٰ اللقا نعم ترقص الأشباح يا جاهل المعنىٰ

وبذلك وقعنا تحت الاستعمار العسكري والاستعمار الفكري والاقتصادي، والسياسي... إلخ، وأكبر خطر واجهنا ويواجهنا هو: مسخ الهوية الإسلامية للفرد المسلم، وانهيار مبادئه العليا أمام الإعجاب بالحضارة، الغربية الزائلة، وشتى مفاتنها الزائفة.

حتى وجدنا من بيننا مثقفين ومفكرين (...) ينادون بعدم صلاحية الإسلام في هذا الزمان، وإحلال المبادىء الاشتراكية أو الديمقراطية[2] أو الرأسمالية محله، محتجين علىٰ آرائهم بآيات وأحاديث لا علاقة لها بما يستدلون عليه.

ووجدنا آخرين يقولون: عش بسيرة أهل زمانك، وهذا ما جاء به الزمان، ومن شذ شذ في النار، ولا يمكننا مخالفة التيار العالمي أو القوانين المتفق عليها بين الأمم...

بل وآخرين يكتبون كتابات تطعن في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتاريخ الإسلام المجيد، مستعينين علىٰ ذلك بأحدث ما توصلت إليه عقولهم الشيطانية من مكر ودهاء وإلباس الحق بالباطل...

---

(١) واجب الوجود عند الفلاسفة هو ما لا يحتاج إلىٰ مسبب وموجداً لإيجاده؛ وهو الإله جلَّ وعز. ولكن لما كان جائز الوجود وهو سائر المخلوقات من معاني وجواهر متعدداً كثيراً، اختلف في قوة جواز وجوده، فكان التفاوت، وكان كل أقوىٰ في جواز وجوده في حكم الوجود نسبة لمن هو ادنى من القوة طبقاً للنظرية النسبية؛ فليتنبه...

(٢) الديمقراطية هنا ليست بمفهومها العامي وهو: العدالة والشورى، وإنما بمفهومها الفلسفي السياسي، وهو أن الحقيقة منوطة بالأكثرية والأكثرية فقط، وحرية الأديان والانتقال من دين لآخر، وأن الشعب هو المشرع الرئيس، وأن كل خلاف إنما يحل عن طريق صناديق الاقتراع، واللادينية، وفصل الدين عن السياسة والدولة... هذه هي أعمدة الديمقراطية فلسفياً كما تنص عليه كتب القانون.

وذلك كله لانهيار عقولهم وأفكارهم أمام ما وجدوه من قوة الغرب - المؤثر الخارجي- وسطوته إلى جانب ضعفنا وتفرقنا، لعدم وجود الناصح الأمين المسموع كلامه، المحترم رأيه. . .

حتى دخلت السياسات الأجنبية في قوانيننا واقتصادنا وعاداتنا، ومجتمعنا ودراستنا، بل حتى في نطاق العلوم الشرعية حيث استبدل النظام الأكاديمي الهش عوضاً عن نظام المعاهد الدينية التي دامت أكثر من ألف وثلاثمائة عام، فأنتجت لنا علماء ليسوا بعلماء، مما نتج عنه ضعف في البنية الفقهية العقيدية الإسلامية لا يتصور، ودمرت معاهدنا العلمية الكبرىٰ التي أنتجت زعماء الإنسانية في التاريخ، مثل: جامعتي القرويين، وابن يوسف بالمغرب، وجامعتي الزيتونة والقيروان في تونس، وجامعة الأزهر في مصر. . . حاشا ثلة من العلماء الذين دمجوا بين كلا الطريقتين، أو اكتفوا بالطريقة التقليدية الصائبة[١]. .

وفتح باب الاجتهاد علىٰ مصراعيه، ولم يرع حق رعايته، فأفسدنا الفقه وميعنا الدين، وأهملت شروط الاجتهاد، التي هي تحت قاعدة: الحكم علىٰ الشيء فرع عن تصوره[٢]، مما تسبب في تنكر الناس لعلمائهم، وتركهم لتراث فقهي كبير عند المتأخرين بدونه يستحيل وصل الأمة الإسلامية بأولها ومنابعها الأصلية. . .

فأصبح العالم في مجتمعنا غير محترم ولامؤبه به، وقد ورد في الحديث الشريف: «العلماء ورثة الأنبياء». .

وأصبح المطالب بالمحافظة علىٰ التعاليم الإسلامية في المجتمع من آداب ونظام أسرة؛ يتهم بالتخلف والشذوذ والرجعية والتزمت. . .

---

(١) راجع الكتاب: «بروتوكولات حكماء صهيون» فقد تكلموا علىٰ هذه النقطة بشكل مباشر. . .

(٢) ليس المقصود هنا سد باب الاجتهاد، ولكن المقصود: أن لا يجتهد إلا من أدرك وسائل الاجتهاد وهي منصوص عليها في كتب الأصول، مع الانتباه أنه لا اجتهاد مع وجود النص. إذ لا يمكن للطبيب أن يقوم بعملية جراحية للقلب مثلاً دون ان يحوز شهادة التخصص في جراحة القلب، وهذا معنى: الحكم علىٰ الشيء فرع عن تصوره، وهو من بدهيات المعرفة. . .

وأصبح المطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية في كافة المجالات؛ أرخص الناس دماً وعرضاً، يلمز بالتطرف والإرهاب وأسوأ الاتهامات.

ولكن. . . بالرغم من هذا فإننا إنما نذب عن حرم الله تعالى وهو القادر علىٰ الذب عن حرمه دون احتياج إلينا. وقد أخبرنا رسول الله ﷺ وعلىٰ آله بما نحن فيه الآن، وبين لنا الداء والدواء، وبشرنا أن الأمر سيعود إلى الخير الذي كان أول الأمة بعد التدرج من النبوة، ثم الخلافة علىٰ منهاج النبوة، ثم الملك العضود،ثم الملك الجبري، ثم: «تكون خلافة على منهاج النبوة»، وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه أحمد والبزار وابن حبان والطيالسي: «مثل أمتي مثل المطر؛ لا يُدْرَى أوله خير أو آخره. . ».

ولو لم يكن من الحكمة الإلهية سوىٰ تيسير انتقال دعوة الإسلام في العالم إلىٰ كل بيت وكل رقعة ما لم ينتشر في أزهىٰ الأوقات لكفاها رحمة وأي رحمة. . .

وكل مجتمع بشري معرض في أي وقت لأسباب الانهيار المذكورة أعلاه، غير أن ثمة أفرادا زكوا بحدس معرفي يدفعهم إلىٰ معرفة الأخطار المحدقة بالكتلة البشرية، والتكهن بها، فهم يعملون على توعية المجتمع ولفت نظره نحوها، وهم المصطلح عليهم بالمفكرين والزعماء والاصلاحيين. . .

والمفكر الصائب هو الذي يضع يده علىٰ أسباب الخلل، ويوضحها، ثم يجمعها في بوتقات ترد كل فرع إلىٰ أصله، ليسهل علاجها؛ ثم يعمل علىٰ افتراض وسائل العلاج الناجعة ، أو التقريب إلى منهج اكتشافها، لاكثرة التشكيك وتثبيط الهمم وإيصال الناس إلى نقطة اللارجعة روحاً ويأساً. . .

وقد حذر جملة من العلماء والمصلحين والمفكرين المسلمين من هذه الهجمة الاستعمارية وأشاروا إلىٰ خطرها، وألفوا مهيبين بالزعماء والناس أن يواجهوها بكل ما لديهم من إيمان وقوة، ومن ذلك قبيل الاستعمار:

١- العلامة المشارك الشريف المأمون بن عمر الكتاني الإدريسي الحسني المتوفى عام (١٣١٠)، في كتابه «هداية الضال المشتغل بالقيل والقال» ويكاد يكون مؤلفه أول من تطرق لذلك في المغرب[١].

٢- العلامة الفقيه الشريف عبد الله بن هادي الأهدل الحسيني اليماني المتوفى عام (١٢٧٢) في كتابه: «السيف البتار علىٰ من يوالي الكفار، ويتخذهم من دون الله ورسوله والمؤمنين أنصار»[٢].

٣- الإمام الفقيه حاكم ظفار، الشريف فضل بن علوي مولىٰ الدويلة الباعلوي الحسيني الحضرمي المتوفى عام (١٣١٨)، في كتابة: «عدة الكبراء والحكام لإهانة الكفرة، وعبدة الأصنام»[٣].

---

(١) المأمون بن عمر بن الطائع الكتاني،علامة مشارك مدرس من أهل فاس،ولد عام ٥٠ ١٢هـ. وأخذ عن مشاهير علماء بلاده،وعرف بكثرة انتقاده للواقع في بلده،واهتمامه بأحوال المسلمين، وأفكاره الإصلاحية دونها في كتابه: «هداية الضال المشتغل بالقيل والقال» في الحض على العمل وترك الكسل، تطرق فيه إلى صناعات فاس، ونشاطها الاقتصادي والأحوال الاجتماعية في عصره، ثم لأرباب الحمايات، وللبضائع المستوردة من أوروبا، وهو يقع في (١٦٨) صفحة، منها نسخة مخطوطة في الجامعة الأردنية بعمان- الأردن وأخرى(الأصل) بالخزانة الكتانية ضمن الخزانة العامة بالرباط، أصيب المؤلف -رحمه الله- بالجذب- ظاهرة نفسية غير مدروسة، كانت منتشرة في ذلك العصر في أواسط عمره، ثم عاد إلىٰ وعيه بعد سنين،واعتكف على العبادة إلىٰ أن مات بتاريخ ١٣١٠هـ-١٨٩٣ وقام أخونا الدكتور عبد المجيد خيالي بتحقيقه .وسيصدر قريبا ان شاء الله ابن حزم .

(٢) يعتبر هذا الكتاب وثيقة في الدعوة إلىٰ الجهاد ضد الاستعمار، خاصة البريطاني ويحوي فتاوى عديدة متعلقة بالولاء والبراء، وصاحبه مفتي مدينة زبيد باليمن من أسرة عريقة في الشرف والعلم والإصلاح الاجتماعي ونجد صاحب «الدواهي المدهية» يكثر من النقل عنه. وقد طبع الكتاب عام ١٤١٨-١٩٩٨ بمكة المكرمة. تم الطبع بدار البيارق بالأردن مختصرا عام (٢٠٠٠) .

(٣) فضل بن علوي مولىٰ الدويلة، عالم كبير من أسرة اشتهرت بالدعوة إلى الله في حضرموت وشرق إفريقيا وجنوب شرق آسيا هم الأشراف الباعلويون، كانت له علاقة سياسية قوية مع الدولة العثمانية، وزار الآستانة واستوطنها، وبها توفي عام ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م ولاه العثمانيون حكم مقاطعة ظفار غرب عُمان، ويمتاز كتابه بالتحذير من الاستعمار، والنعي علىٰ الأمة تخاذلهم تجاهه، وتكالبهم علىٰ الجنسيات والحمايات الأجنبية. وقام بالجهاد بنفسه ضد الإنجليز ببلاده.

٤- شيخ الإسلام الشريف أبو المواهب جعفر بن إدريس الكتاني الإدريسي الحسني، المتوفى عام (١٣٢٣)، في كتابه: «الدواهي المدهية للفرق المحمية»، وهو أوسع ما ألف في هذا الباب، ختمه مؤلفه بفصل ذكر فيه عشرين مفسدة مرتبة على موالاة العدو المستعمر وعدم دفعه، وكلها وقعت الآن[١].

ولما بدأ الاستعمار يدب على العالم الإسلامي، وتساقطت أمامه الدول الإسلامية دولة فدولة، نتيجة انهيار الرجل المريض في الشرق؛ وهو: الدولة العثمانية، والرجل المريض في الغرب وهو: الدولة المغربية؛ ألف مجموعة من العلماء و المفكرين واصفين مواقع الخلل في الأمة الإسلامية، محاولين إصلاحها والتنبيه علىٰ المفاسد المترتبة عليها.

ومن أهم المصلحين الذين كتبوا في هذا المجال قبيل الاستعمار العسكري المباشر وبُعَيْده، بروح إسلامية خالية في العموم من التأثر والميل للغرب:

١- العلامة المفكر أحمد بن أبي الضياف التونسي. وقد ضمن أفكاره في كتابه: «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان»[٢].

٢- المفكر المصلح الشريف عبد الرحمن الكواكبي الشامي، وضمن أفكاره في عدة كتب، أهمها: «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» وكتابه الرائع: «أم القرىٰ»[٣].

---

(١) «الدواهي المدهية للفرق المحمية» أوسع كتاب في هذا الباب وقد طبعته دار البيارق - الأردن عام ١٩٩٩ بتحقيقنا، وبه مقدمة واسعة في ترجمة المؤلف. تم طبع بدار الكتب العلمية سنة(٢٠٠٥).

(٢) أحمد بن أبي الضياف، عالم تونسي تخرج من جامعة الزيتونة، وكرس حياته للإصلاح الإداري والاجتماعي، وخص بعدة دراسات ومؤلفات. ضمن أفكاره في الكتاب المذكور، وكانت وفاته عام ١٢٩١هـ- ١٨٦٩م.

(٣) عبد الرحمن بن أحمد الكواكبي، عالم ، مفكر، مصلح سوري من حلب، له عدة مؤلفات منها: «أم القرى» و«طبائع الاستبداد» عمل في الصحافة والتجارة، وعرف بمنهجه التحريضي والنقدي، توفي عام ١٣٢٠هـ-١٩٠٢م.

٣- الإمام المجدد المصلح أبو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني الحسني الشهيد، وضمن أفكاره في مجموعة من كتبه منها: «رسالة المؤاخاة»، و«رسائل الجهاد» ومجلة «الطاعون» التي كان يصدرها بفاس قبيل الاستعمار[١].

٤- والحافظ المصلح الشريف أبو الإسعاد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني، وضمن أفكاره في: «مفاكهة ذوي النبل والإجادة» وقد ترجم لعدة لغات، وكتابه: «أسباب استيلاء الفرنجة علىٰ المسلمين آخر الزمان»[٢].

٥- الإمام المصلح عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ التميمي النجدي، وضمن أفكاره في شرحه لكتاب التوحيد لجده رئيس المذهب الوهابي السلفي محمد بن عبد الوهاب التميمي. . .وغيرهم عدة[٣].

---

(١) محمد بن عبد الكبير بن محمد الكتاني الإدريسي الحسني، أبو الفيض من أهل فاس، يعرف عند المغاربة بمجدد القرن الرابع عشر، وحجة الإسلام، كان له دور رائد في الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي وتحريضه القبائل ضد الجيوش الفرنسية الغازية، بلغ أتباعه المليون في زمنه، وامتد إشعاعه إلى الشرق العربي والإسلامي. وكان له الدور الرائد في خلع السلطان عبد العزيز العلوي وتنصيب السلطان عبد الحفيظ العلوي محله، وكتب أول دستور مغربي مبني علىٰ الشورىٰ وسيادة الشعب تحت الكتاب والسنة، قام بنشر مجلة «الطاعون» بفاس قبيل الاستعمار، وله «رسالة المؤاخاة» تعرض فيها لذكر أسباب تخلف المسلمين آخر الزمان. وعُرِفَ بفكره الحر، وجهره بالحق، أما «رسالة المؤاخاة» فطبعت بدار الرازي -عمان- عام ٢٠٠٠، بتحقيقنا. واستشهد بسجن أبي الخصيصات بفاس عن ٣٧ عاماً بتاريخ ١٣٢٧هـ- ١٩٠٩م مخلفاً وراءه «٣٤٠» مؤلفاً و (١٠٠٠٠) رسالة.

(٢) عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني، أبو الإسعاد وأبو الإقبال، أحد أساطين العلم بفاس، كان له دور رائد في محاربة الاستعمار الفرنسي قبل دخوله المغرب، حتى اعتقل عام ١٣٢٧هـ، وبعد الاستعمار كان له الدور الرائد في نشر المعارف العلمية والدينية، والمحافظة على الروح الإسلامية في قبائل البربر بالمغرب والجزائر. ألف عدة تأليف إصلاحية؛ مثل: «المفاكهة»، وترجمت إلى عدة لغات، و«أسباب استيلاء الفرنجة على المسلمين آخر الزمان»، و«التراتيب الإدارية في الحكومة النبوية»، في مجلدين طبع عدة مرات، رد فيه على العلمانيين القائلين بعدم صلاحية الإسلام كدستور في زماننا، ولم يسلم من كثرة الحاسدين، لقوة نفوذه ووسع علومه، حتى قيل: لم يأت بعد الحافظ ابن حجر أحفظ منه. واتهمه البعض بموالاة الاستعمار، وهو أبرأ الناس من ذلك. توفي عام ١٣٨٢هـ- ١٩٦٢م.

(٣) عبد الرحمٰن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ، عالم مصلح نجدي. من أئمة =

غير أن هذه الكتابات - مع نفاستها ولياقتها في البحث عن أسباب الداء في الأمة الإسلامية - قلما تتنزه عن التأثر بأفكار مسبقة توجه التقييم التاريخي نحوها، وإن تنزهت فتعوزها الدقة في ذكر الأسباب الرئيسة التي أدت إلىٰ انتكاسة الأمة الإسلامية في آخر الزمان - جمعاً وترتيباً وتصنيفاً- مما يجعل القارىء والباحث ضائعاً في دوامة من السلبيات لا نهاية لها، ولاممسك لطرف خيطها. . .

كتاب النصيحة:

ولعل أفضل ما كتب في أسباب انهيار الأمة الإسلامية، وأسباب تخلفها، والدواء الناجع للرجوع بها إلى سالف عهدها، بدقة لا متناهية، وموضوعية في البحث راقية، وأصالة مرجعية فقهية، وحنكة سياسية واجتماعية فائقة؛ هو الكتاب الذي نقدمه للقارىء اليوم: «نصيحة أهل الإسلام بما يدفع عنهم داء الكفرة اللئام» للإمام الحافظ شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الحسني، المتوفى بفاس عام ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م.

حيث قدم المؤلف للكتاب بمقدمة ذكر فيها وجوب النصيحة وفرضيتها، مظهراً نكسة الأمة الإسلامية، ضارباً المثال -في عدة مواضع- من قصة سقوط الأندلس، والعبر المأخوذة منها. . .

ثم حصر أسباب تخلف الأمة في أحد عشر سبباً رئيساً، وهي:

١ - اختلاف كلمة أهل الإسلام.

٢- ترك الاستعداد الحربي.

٣- ترك الجهاد.

= الدعوة الوهابية السلفية، التي تدعو إلىٰ الأخذ بظاهر النصوص الشرعية وعدم الزيادة في التعبد علىٰ ما كان زمن رسول الله ﷺ. وترك البدع والخرافات، والاعتقاد في القبور. . .عرف بمرجعيته بين علماء نجد، وبروزه من أسرة عريقة في العلم والمجد في بلادها، قام بمحاربة الدولة العثمانية بحجة تطبيقها القانون الوضعي، وله عدة مؤلفات منها: «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد». ضمن فيه أفكاره الإصلاحية، وعرف بقسوته علىٰ مخالفيه. توفي بالرياض عام ١٢٨٥هـ-١٨٦٨م.

٤- إسناد أمور الدين إلى غير أهلها.

٥- مصافاة الكفار واتخاذهم أصدقاء. والعمل بقوانينهم.

٦- اتباع عوائد الكفار والتمذهب بمذاهبهم.

٧- الإضرار بالمسلمين بالتسلط والظلم والإفساد.

٨- الاشتغال باللهو والطرب ومفاسد الحياة المادية.

٩- الإعراض عن العمل بالكتاب والسنة.

١٠- التجاهر بالمنكرات.

١١- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

ذاكراً كل بند من هذه البنود، والمفاسد التي ترتبت عنه، وكيفية جبره وإصلاحه...

ثم ختم الكتاب بخطاب جامع للأمة دعاها فيه حكاماً ومحكومين إلىٰ الالتفات إلىٰ البنود التي ذكرها في نصيحته، والمشي بمقتضاها، حاضاً علىٰ جهاد الكفار وحربهم، محفزاً علىٰ ذلك داعياً إليه، ثم بين أن نصيحته هذه كتبها للمسلمين عامة، وللولاة والعلماء وآل البيت خاصة...

وجاءت الرسالة دسمة مليئة بالنظريات والقواعد الفقهية والسياسية والاجتماعية، غنية بالنقول عن علماء مختلف المذاهب الأربعة: مشارقة ومغاربة. حتى قال: «بعض العلماء الأعيان العارفين لما اطلع عليها: ما أحقها بأن تسمَّى بالدين الخالص»[1].

وأصل هذا الكتاب رسالة أرسلها مؤلفها إلى ملك المغرب وقته أمير المؤمنين الشريف عبد العزيز بن الحسن العلوي قبيل الاستعمار، ناصحاً، ومرشداً، ومظهراً الخطر المحدق بالأمة الإسلامية، وكيفية التغلب عليه واستدراكه.

---

(١) عقد الزمرد والزبرجد في سيرة، الابن والوالد والجد، لابن المؤلف الإمام الشيخ محمد الزمزمي بن محمد بن جعفر الكتاني (ت ١٣٧١هـ) ص١٧٧. وهو تاريخ للشرق الأوسط في القرن الرابع عشر الهجري مطبوع علىٰ الحاسوب بتحقيق والدنا العلامة الدكتور علي الكتاني رحمه الله تعالى.

وقد طبع الكتاب أولاً عام ١٣٢٦-١٩٠٨ بفاس، ولقي إقبالاً من كافة الطبقات منقطع النظير، بل أصبح في حروب التحرير في المغرب سِفْراً مقدسا يتلوه المجاهدون في تجمعاتهم وخطبهم وجماعاتهم، وبه قام الجهاد في عدة من مناطق المغرب خاصة الريف ومنطقة جبالة..

كما قام بشرحه الشرح المسهب شيخ الإسلام محمد المدني بن الغازي ابن الحُسْني الشريف العلمي الرباطي في أربع مجلدات كبار، ما زال الناس ينتظرون ظهورها في عالم المطبوعات إلى الآن...

ولست مطيلا في وصف الكتاب ودراسته، فقد طبع عام ١٤٠٨-١٩٨٨ بالمغرب طبعة ثانية، بتحقيق عمنا مفخرة، المغرب وأستاذ الجيل العلامة الدكتور إدريس بن محمد بن جعفر الكتاني -حفظه الله تعالىٰ- وقدم له بدراسة مسهبة عنه، تبقى من خصائص تلك الطبعة، وقد أخبرنا في غير ما مجلس -وهو العلامة الاجتماعي المفكر- أنه حاول وجدان سبب ثاني عشر للأسباب التي ذكرها الإمام الكتاني في انحطاط الأمة فلم يجد؛ إلا أن يكون مضمناً تحت بند من البنود الأحد عشر[1] . كما قدم لتلك الطبعة ابن أخي المؤلف الإمام بحاثة المغرب أبو المزايا محمد إبراهيم بن أحمد بن جعفر الكتاني[2]، بمقدمة نفيسة تبقى كذلك من خصائص الطبعة المغربية، واستغرقت المقدمتان حوالي (٨٠) صفحة...

وألف العلامة إدريس الكتاني -المذكور- على ضوء هذا الكتاب، كتاب: استراتيجية الدفاع عن الأمن الإسلامي ، وهو أحد مجموعة من الدراسات الاجتماعية والقومية الإسلامية، نال بها مؤلفها شهادة الرجل الدولي لعام ٢٠٠٠-٢٠٠١ من المعهد الدولي للتراجم بكامبردج -إنجلترا، وهي شهادة: «لا تعطى إلا لعدد قليل من الشخصيات المتميزة بسبب إنجازاتها ومواقفها القيادية بين المجتمع الدولي[3]».

---

(١) وقد اقترح علي صاحبنا الأستاذ النابغة المهندس أسعد تيم سبباً ثاني عشر. وهو: ترك البحث العلمي والتطور الصناعي، وخطر عندي سبب ثالث عشر: وهو: التنسيق العلمي بين مختلف العلماء «فكراً وتجريباً». ولكن السبب الأول قد يدخل تحت الاستعداد الحربي، والسبب الثاني: تحت اختلاف كلمة المسلمين.

(٢) أحد زعماء الكفاح الوطني ضد الاستعمار، توفي عام ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

(٣) كما في رسالة من المدير العام للمركز الدولي للتراجم في كامبردج: نيكولاس لو للدكتور إدريس الكتاني، مجلة النداء التربوي -المغرب- السنة الثالثة، العدد (٧). ١٤٢٠٠-٢٠٠٠.

أما هذه الطبعة فتمتاز بأمور، ومنها:

١- دخول الكتاب إلى المشرق العربي. حيث كانت طباعته الأولىٰ والثانية مقتصرة علىٰ المغرب: وبذلك قلت فرص المفكر والمصلح والباحث المشرقي في الاستفادة منه.

٢- زودت الكتاب بعلامات الترقيم، وعزوت الآيات القرآنية إلى مصادرها. وهو شيء افتقرت إليه الطبعات السالفة.

٣- لم أقم بتخريج الأحاديث اكتفاءً بدور المؤلف في ذلك، اتقاء لتفاحش حجم الكتاب علىٰ حساب قيمته العلمية والثقافية..

٤- حافظت على بعض التعليقات للدكتور إدريس الكتاني، مع تمييزها بلفظة: (إدريس). وأضفت بعض العناوين الشارحة للنص وبعض التعاليق. زيادة على العناوين التي أثبتها الدكتور الكتاني...

٥- زودت الكتاب بمقدمة، وذكر لقصة تأليفه بقلم نجله الشيخ محمد الزمزمي الكتاني وترجمة مختصرة، للمؤلف رضي الله عنه.

وختاماً... أرجو أن ينفع الله تعالى بهذا الكتاب، وينير به الطريق نحو إصلاح جدي عملي علمي لوضع الأمة الإسلامية، الطالعة الآن في رأس القرنين الخامس عشر الهجري، والحادي والعشرين الميلادي، والمعرضة لموجة العولمة بكافة سلبياتها ومحاسنها... ورحم الله المؤلف ورضي عنه وجزاه عن الاسلام ألف ألف خير.

والحمد لله رب العالمين

كتبه حفيد حفيد المؤلف

الدكتور محمد حمزة بن محمد علي بن محمد المنتصر

بالله بن محمد الزمزمي بن محمد بن جعفر الكتاني الحسني

الثلاثاء، ٢ ذو الحجة الحرام ١٤٢٠

عمان - الأردن

قصة تأليف الكتاب

قال نجل المؤلف الشيخ محمد الزمزمي الكتاني في تاريخه الحافل: «عقد الزمرد والزبرجد في سيرة الابن والوالد والجد» ص١٧٤ :

«لما كثرت الفتن بالمغرب بسبب تشوق دول الأجانب إليه، فكان منهم من يحتال لاصطياده واقتناصه بسياسة من السياسات أو حيلة من الحيل. وأطمعهم في ذلك انحلال أحوال الدولة المغربية - في ذلك العهد حكومة المخزن - الانحلال التام واشتغالها بما لا يعني. فضعفت شوكة السلطان المولى عبد العزيز، وتضعضعت بالمغرب قوته وحكومته، وانحلت الأحوال وتكاثرت الفتن وعمت، وضاع ما في بيت المال من الأموال، واستولى الأجانب على أطراف المغرب وأصبحوا طامعين فيما بقي منه، مما أقام العامة وأقعدهم، وصاروا ناقمين يحاولون القيام ضد السلطان المذكور وعزله وإنزاله عن العرش، ويتشوقون لاستبداله بغيره خوفاً من استيلاء الأعداء وتملكهم وانتهازهم لهذه الفرصة وتدخلهم.

ومثال ذلك نورد نسخة كتاب من دولة فرنسا إلى قبائل آل تافيلالت بتاريخ ١٧ رجب عام ١٣٢٣هـ مستهترة بالقيم وبسيادة الدولة. وهذا نصها:

«قل اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اعلموا آل تافلالت أننا جند الله، مخلوقون من سخطه، مسلطون على من حل به غضبه، لا نرق لشاك، ولا نرحم لباك، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا. فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا. قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأظهرنا في الأرض الفساد، وذلت لنا أعزتها، وملكنا بالشوكة أزمتها. فإن خُيِّلَ ذلك على المسامع وأشكل وقال: إن فيه عليه مشكل!. فقل: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة!.

«وذلك لكثرة عددنا، وشدة بأسنا، فخيولنا سوابق، ورماحنا فوارق، وأسنتنا بوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعدد جيوشنا كالرمال، ونحن أبطال وأخيال،

وملكنا لا يرام، وجارنا لا يضام، وعزنا دائما بالسؤدد مقام. فمن سالمنا سلم، ومن رام حربنا ندم، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل، وأنتم إن أطعتم أمرنا، وقبلتم شرطنا، فلكم مالنا، وعليكم ما علينا. وإن أنتم خالفتم، وعلى بغيكم تماديتم، فلا تلوموا إلا أنفسكم. فالحصون منا على تشييدها لا تمنع، والمدائن لتشييدها لقتالنا لا تضر ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا ولا يسمع، وكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام، وضيعتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الحكام. وأعدت لكم النار وبئس المصير: «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا!».

«فلما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك، وقد خالفتم العلماء وعصيتم رب الأرض والسماء، وأرقتم دم الأشراف، وهذا والله هو البغي والإسراف، فأنتم بذلك في النار خالدون، وفي غد ينادي عليكم: اليوم تُجْزَوْن عذاب الهُون بما كنتم تستكبرون. وإننا كفرة، وثبت والله عندنا أنكم الكفرة الفجرة، وقد سلطنا عليكم إله لهٰ أمور مقدرة وأحكام مدبرة. فعزيزكم عندنا ذليل، وكثيركم لدينا قليل، لأننا ملكنا الأرض شرقا وغربا، وأخذنا منها كل سفينة غصبا، وقد وضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطا وتضرم الحرب نارها وتضع أوزارها، وتصير كل عين عليكم باكية، وينادي منادي الفراق: هل ترى لهم باقية. وسيسمعكم صريخ البنا بعد أن يهزكم هزا: هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا. وقد أنصفناكم إذ راسلناكم وفسرنا لكم الكلام، فأسرعوا برد الجواب، والسلام». انتهى كما وجد.

فحاول أهل فاس مقاتلة السلطان وعزله، وراموا التوصل لذلك بأعيان العلماء، ولا سيما سيدنا الوالد، فكانوا يترددون عليه فرادى وجماعات، وصاروا يطالبونه بالقيام ضد السلطة الموجودة وإعلان خلع الرجل ووجوب مقاتلته وتولية آخر، ويقولون له: «قم ونحن نموت خلفك وتحت رايتك!». ولكن سيدنا الوالد لم يلتفت إلى كلامهم، ولم يعول على شيء من أحلامهم. فلما تكرر طلبهم وتفاحش أمرهم قال لهم مجيبا: «نحن

العلماء سيوفنا ألسنتنا،فإن شئتم قصدت الرجل وقابلته وذكرت له انتقاداتكم عليه ومضاركم منه، وأخبرته بما وصلت إليه الحالة، وما هو عليه المغرب من الفوضى والإضمحلال، مما يخشى أن يكون سببا لتداخل العدو! إن أردتم فعلت!». فاتفقوا على هذا الرأي.

ثم إن الوالد استأذن السلطان في الدخول عليه لإبداء النصائح إليه، على شرط ألا يستعمل معه شيئا من الرسوم المخزنية المعتادة. فقبل منه السلطان ذلك مغتبطا، وعقد له موعدا، وهو صبيحة يوم الخميس حيث لا مخزنية ولا أحكام. فذهب الوالد في الموعد المحدد، ودخل على السلطان مولاي عبد العزيز المذكور. فاقتبله السلطان خير اقتبال، وهش وبش، وقابله بكل حفاوة وإكرام، واحترمه غاية الاحترام، واهتبل به أيما اهتبال، وظل معه اليوم كله. وكان السلطان يصغي لنصائحه وإرشاداته بكل تعطش وتلطف، ويستفهم عما لم يفهمه، ويسترشد عما خفي، فلم يدع -رضي الله عنه- شاذة ولا فاذة إلا ذكرها، ولا شيئا مما فيه النصح للأمير والمسلمين وتقوية شأنهم إلا وقرره، ولا ما يوهن الدين ويضعف شوكة المسلمين إلا ومنه نفره وحذره.

ولما دخل على السلطان وتبادل معه التحية والسلام العادي، قال له: «جئتك لثلاثة أمور: الأولى لزيارتك والتبرك بك، وإظهار الطاعة لك والمحبة!». فأجابه السلطان: «هذا الشيء لا شك عندنا فيه». ثم قال الوالد: «ثانيهما: أداء أمر قلدنا الله إياه وجعله في عنقنا ولم يقبل منا فيه عذرا، وهو النصيحة لله ولرسوله ولكم. قال عليه الصلاة والسلام: «الدين نصيحة» قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»! ثالثا: إخباركم بما هو واقع مما قد يكون مكتوما وغائبا عنكم!». وكان فيما أنكره عليه: التداين من الأجانب الذي يجدونه وسيلة لاحتلال البلاد والاستيلاء عليها. وعاب عليه أيضا: تسليم قطر توات لفرنسا، والسكوت عن احتلال وجدة، وإهمال حياطة المسلمين والتفكر في المحافظة عليهم.

واستغرق مع السلطان سائر النهار، يأكل معه ويشرب ويصلي. وقد أخبره بجميع ما هو في المملكة، وما الأمة عازمة عليه إن ظل الحال على ما هو عليه. فكان السلطان مولاي عبد العزيز يصغي لنصائحه ومواعظه. وكان مما قال له السلطان: «هل يساعدنا الناس؟». فأجابه بقوله: «إن علم الناس أن كل ما يدفعونه سيصرف في سبيل إعلاء كلمة الله وحفظ المغرب، وإن دفعتم أموال المسلمين لمن يستحق القيام عليها ويصرفها في مصارفها؛ فأموالنا وأموال المسلمين كلها لله ولرسوله ولكم، وأنا أول من يدفع كل ما أملكه وهو دار سكناي وسكنى أولادي، فأدفعها لبيت المال، وأذهب بعيالي لمصلى فاس بباب الفتوح وأدق فيها خياما لإيواء أهلي! أما بقية أموال المسلمين فنحن المتكفلون بها! وإن كانت أموال المسلمين ستدفع لمن يستعين بها على معصية الله وما لا يرضاه: فسوف لا يعطي أحد شيئا!».

ثم قال الوالد للسلطان: «لا تقس المغرب على المشرق. فالمغرب جاء محمولا على رأس النبي ﷺ وكتفيه، بخلاف المشرق فإنه جاء مدفوعا إلى قدمي النبي!». فتعجب السلطان من ذلك وقال له: «ما سمعت به قط!». ثم قال الوالد: «جاء عن جدك عليه السلام أنه قال: إن الله تعالى ما بعث نبيا ولا خليفة إلا وجعل له بطانتين، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالا! ومن يوق بطانة السوء فقد وقي!». فقال له السلطان: «أخبرني عن رأيك في هؤلاء الوزراء !» يعني وزراءه وأرباب دولته، ونظره فيهم صلاحا وفسادا. فقال له الوالد: «لا! الناس يقولون: عقول الملوك ملوك العقول، فكل من رأيتموه من أرباب الدولة يهتم بأمور المسلمين، ويسعى في صلاحهم، ويبذل قصارى طاقته في رفعهم ونجاحهم وكمال استقلالهم؛ قربوه وأعينوه وخذوا بيده واجعلوه واسطة عقد دولتكم. ومن كان ضد ذلك فاضربوا به عرض الحائط وأبعدوا ونزهوا ساحتكم عنه وعن أمثاله!».

ثم قال الوالد للسلطان: «إني كتبت لكم نصيحة عامة إن عملت بها أغنتك!» يعني بها كتابه المسمى: «نصيحة أهل الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، الخاص منهم

والعام» التي لما اطلع عليها بعض أعيان العلماء العارفين قال عنها: «ما أحقها بأن تسمى: الدين الخالص!»، ضمنها الوالد أحد عشر سببا من الأسباب التي استوجبت انحطاط المسلمين وتدهورهم. ثم أعقب ذلك بأضدادها من أسباب النجاح. فقال له السلطان: «اجعلها في ظرف واطبع عليها باسمي طابعك الخاص لكي لا تفتح!». ففعل وأرسل منها نسخة له (. . .).

ففرح السلطان بذلك كله غاية الفرح، ونزل عنه بسببه غاية الضيق والترح، ولما أراد الوالد رضي الله عنه الانصراف في آخر النهار، طلب السلطان منه الدعاء، وأخبره بأن ما أسداه له من النصائح والحكم أثر فيه غاية التأثير، وأعطاه وعدا بتنفيذ ما قال له، وأنه سوف لا يعود للاستدانة من الأجانب، وأن الديون الماضية سوف يعمل فيها المتعين، وأن الحالة الحاضرة سوف يدرس إصلاحها والعمل على تلافي الخطر منها - وكان احتلال الأجانب، أو على الأقل عقد الحماية على المغرب لدولة منهم، على قاب قوسين أو أدنى - وشكره السلطان المذكور وأخبره بأن كلامه ومواعظه أثرت فيه غاية التأثير، وأنه سيقلع عما مضى ويجعل له حدا، ويقبل أياما جديدة بجد وصرامة وصلاح إن شاء الله.

ولما أراد الوالد الانصراف من حضرة السلطان المذكور، ودع بما استقبل به، وأمر له بعدة كساوي، وأكرمه بهدية ذهبية وقدرا له بال من العنبر الخام، جزاه الله خيرا. فقال رضي الله عنه: «إن والدي أولى بهذا العنبر مني!».

فأتحف بذلك والده، فبقي منه في صندوقه إلى أن توفي، ونالنا في وسط الورثة من ذلك شيء كثير.

ورجع الوالد من رحلته للسلطان مولاي عبد العزيز مسرورا مغمورا بالفرح وكبير الأمل بسبب ما حصل عليه من الوعود الإصلاحية الملكية. ولما شاع خبر ذلك استبشر الناس بهذه المقابلة كثيرا، وعلقوا عليها آمالا، وزال عنهم الكثير مما كان عالقا بأذهانهم من اليأس والقنوط. وهكذا بقيت المسألة واقفة عدة أشهر. ثم تداخل قرناء السوء من

أهل الأغراض الشخصية من الوزراء وجلساء السلطان وقته ونحوهم، وعارضوا الوالد فيما أبداه خوفا على نفوذهم من الزوال ومناصبهم من الخطر، محتجين بأن العلماء لا يعرفون السياسة حق المعرفة. ولما حاول السلطان المذكور العمل بما اتفق به مع الوالد، عاقه هؤلاء الوزراء وموهوا عليه بتمويهاتهم وترهاتهم، فمال إليهم إلى أن أسقط عن العرش وذهب كل ذلك أدراج الرياح فتم أمر الله وكان ما كان.

وقد بلغني أن السلطان مولاي عبد العزيز هذا في أواخر أمره زار سيدي منصور[١] المعروف قرب مكناس، في وزرائه وحشمه، وقدم له صرة ريالات فضية. فقام سيدي منصور وطردهم وسبهم وشتت ما بالصرة بصحن المحل.

انتهىٰ كلام الإمام الشيخ محمد الزمزمي بن محمد بن جعفر الكتاني -رحمه الله تعالىٰ- وكانت بعد ذلك البيعة الحفيظية بتاريخ ١٣٢٥/١١/٢٣

والتي قام بها ابن عمة المؤلف وتلميذه الإمام المجدد أو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني، والتي تمت ببيعة السلطان عبد الحفيظ بن الحسن العلوي على شروط الشورى والجهاد، وإلغاء قرارات مؤتمر الجزيرة الخضراء القاضي باستعمار المغرب. وانتهت البيعة بعد ذلك بخذلان الشروط المذكورة واستشهاد الإمام أبي الفيض الكتاني علىٰ يد الملك المذكور بتاريخ، ١٣٢٧/٤/١٤ ثم انهيار المغرب تحت الاستعمار الفرنسي بتاريخ: ١٣٣٠/٤/١١ - ١٩١٢/٣/٣٠

(١) سيدي منصور: أحد الأولياء الصالحين من أهل مكناس، كان أهل مكناس خاصتهم وعامتهم يعتقدون فيه الولاية والصلاح، وكان فيه جذب، ولما توفي بني عليه ضريح في مكناس رحمه الله تعالى.

ترجمة المؤلف[1]

لم أجد نفسي متهيباً في ترجمة أحد من الأعلام -وكم كتبت- مثل ما وجدتني في كتابتي لترجمة هذا الإمام العظيم وابن عمه الإمام محمد بن عبد الكبير الكتاني، ورأيتني مضطراً إلى الإطالة مالا يتوافق وحجم الكتاب، ولذلك أرجأت كتابتها إلى مقدمة لكتاب آخر إن شاء الله تعالىٰ، إلاّ أن يطلبها طالب، وهنا أقتصر على تعريف مختصر له -رضي الله عنه-.

اسمه ونسبه وبيئته[2]:

هو شيخ الإسلام سلطان العلماء الشيخ الإمام المفسر الفقيه المجتهد الأصولي المحدث الحافظ اللغوي النحوي الصوفي أبو عبد الله محمد بن شيخ الإسلام وعلم فقهاء المغرب أبي المواهب جعفر بن العلامة الغازي في سبيل الله العارف أبي العلاء إدريس بن العارف بالله الداعي إليه العابد الناصح أبي الفيض الطائع المسلطن بن الفقيه العالم الناسك الصالح أبي العلاء إدريس الكتاني الإدريسي الحسني الفاسي مولداً ووفاة..

---

(١) انظر مصار الترجمة: «عقد الزمرد والزبرجد في سيرة الابن والوالد والجد» لمحمد الزمزمي بن محمد بن جعفر الكتاني، «إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع» (٢ : ٢٤٤) لعبد السلام ابن سودة، دسل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال» لعبد السلام ابن سودة، رقم (٥٠)، «رياض الجنة في معجم الشيوخ» لعبد الحفيظ الفاسي (١ :٧٧)، «الأعلام» (٦ : ٧٢) لخير الدين الزركلي، «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» (١ : ٤٣٦) لمحمد بن محمد مخلوف، مقدمة «الرسالة المستطرفة» للإمام محمد بن جعفر الكتاني، تأليف حفيده الإمام محمد المنتصر بن محمد الزمزمي الكتاني، «علماء دمشق في القرن الرابع عشر»، لمحمد مطيع الحافظ و منير أباظة (١ :٤١٣) «وفهرس الفهارس» للحافظ عبد الحي الكتاني (١ :٥١٥)، وغير ذلك.

(٢) انظر مختصرا في نسبه مقدمتنا للدواهي المدهية للفرق المحمية» تأليف شيخ الإسلام جعفر بن إدريس الكتاني.

وقد عرف هذا البيت - أي: الكتاني - بإجماع سائر علماء الأنساب في المغرب علىٰ تواتر وصحة نسبهم إلىٰ رسول الله ﷺ، ما هو مفصل في الكتب المؤلفة فيه، كما عرف أهله بالتمسك بالعلم والعمل، ونشر المعارف الدينية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للمسلمين، كما عرفوا بكثرة العلماء وأئمة المعارف بينهم، حتى قال فيهم العلامة المفتي عبد الودود بن عمر التازي، المتوفى عام (1247) :

إن الكرام إذا عمت محبتهم جرُّوا على صفحات الخيل أذيالا

هم الخيار لمن أتى لحيهمُ مدوا له البذل أفعالاً وأقوالاً

وكيف لا وهموا في المجد قد عرفوا ترى لهم في صميم المجد أحوالاً

وكل كتاني منهم علىٰ سمة أعظم بها سمة برًّا و إقبالاً

وقد نشأ المترجم له في بيئة عائلية ملأىٰ بالعلماء العاملين والأئمة الكاملين كما قال فيهم بعض أعلام فاس:

ما فيهمُ إلاّ ولي كامل أو عالم في علمه فرقاني

أو جامع الوصفين جمعاً لا يجارى أو يدانى قط في ميدان

فوالده هو شيخ الإسلام في المغرب ومستشار أمير المؤمنين الحسن الأول رحمهما الله تعالى، أبو المواهب جعفر بن إدريس الكتاني، صاحب المؤلفات الشهيرة، والتي منها «الدواهي المدهية للفرق المحمية»، كان عليه مدار الفتيا في المغرب.

وجده العلامة المجاهد المدرس الغازي في سبيل الله تعالىٰ، أبو العلاء إدريس بن الطائع المسلطن، كان أحد الأفراد من علماء القرويين الذين حاربوا الجيش الإسباني لما دخل تطوان عام ١٢٧٦، واعتقل وأصيب في المعركة، ثم افتكه الله تعالىٰ.

وخاله الشيخ العارف بالله، العَبَّاد الزاهد محمد الزمزمي بن إبراهيم بن محمد الزمزمي الكتاني. . .

وابن عم والده العلامة المشارك النابغة المفكر المأمون بن عمر بن الطائع الكتاني، صاحب كتاب: «هداية الضال المشتغل بالقيل والقال». في الحض على العمل وترك الكسل، والذي جمع علوماً كثيرة، ونقل صورة واضحة عن وضع زمانه في المغرب، ويعد أول مؤلف كتب في الرد علىٰ أصحاب الحمايات من الأجانب في المغرب. . .

وابن عم والده كذلك: إمام الأئمة المصلح الداعي إلى الله تعالىٰ أبو المفاخر محمد بن عبد الواحد بن أحمد الكتاني، صاحب الزواية الشهيرة بالقطانين بفاس، الذي كان يطوف في بيته، قائلاً: لي علوم كثيرة لا أجد من يسألني عنها وقال فيه الإمام أبو بكر بن عبد الله العطاس الباعلوي: بلغ هذا الرجل مقامات في الدين قل من بلغها في الأمة المحمدية.

وابن عمه جبل السنة والدين الإمام المفسر المحدث الحافظ أبو المكارم عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد الكتاني الشهير، أحد من قام بهم الجهاد في المغرب ضد الاستعمار. . .

وغيرهم من الأئمة الأعلام الذين تربى في أحضانهم، وغرف من معينهم، سوىٰ من أخذ عنهم من تلاميذهم، أوصاهرهم من أعلام فاس، حتى كانت مجالسه -منذ تفتق لسانه بالكلام- كلها فوائد وعلوما وحِكماً. . .

ولادته وطلبه العلم:

ولد رحمه الله تعالىٰ عام ١٢٧٣، وتربى في كنف أسرته وبيئته التي كانت مثالا للسلف الصالح، والعلم الراقي، والفهم الثاقب. وما وصل سن التمييز حتى توفيت والدته السيدة، الصالحة العابدة الذاكرة المربية كنزة بنت الشيخ إبراهيم بن محمد الزمزمي الكتانية، مخلفة إياه يتيماً صغيراً.

فاحتضنه والده وتكفل بمباشرته ورعايته، ومقابلته بكله وكَلْكَلِه، وأخذه للكتاب فحفظ القرآن الكريم ومهمات المتون. . .

ثم أدخله إلى جامع القرويين الأعظم بفاس، وأخذ مختلف العلوم الاثنى عشر وغيرها من تفسير وفقه، وأصول وحديث، ولغة ونحو، وبيان وسير، وتصريف ومنطق وتصوف . . وغير ذلك على أئمة العلم في عصره. . .

وممن أخذ عنهم بفاس: والده الشريف أبو المواهب جعفر بن إدريس الكتاني الحسني، وابن عم والده الشريف محمد بن عبد الواحد الكتاني، وابن خال والده شيخ الإسلام محمد بن المدني كنون، وشيخ الجماعة أبو العباس أحمد بن أحمد بناني دُعي: «كلاًّ» والإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن العلوي الحسني، والعلامة البارع الشريف عبد المالك بن محمد العلوي الضرير، والعلامة الحافظ عبد الهادي بن أحمد الصقلي الحسيني، والذي كان يحفظ «المواهب اللدنية» للقسطلاني بشرح الزرقاني، والعلامة المحدث البارع محمد المدني بن علي ابن جَلوُن، وشيخ الجماعة أحمد بن الطالب ابن سُودة المري، والإمام أبو محمد عبد الله بن إدريس البكراوي الحسني، ومسند الشرق العلامة علي بن ظاهر الوتري القادري الحسني، وشيخ الجماعة أبو العباس أحمد بن محمد بن الخياط الإدريسي الحسني، وغيرهم من أئمة العلم العظام. . .

حتى أتقن مختلف العلوم، وصدره شيوخه للتدريس وهو لما يتجاوز ثمانية عشر عاما من عمره، ولم يلبث مدة قصيرة حتى ارتقى من الدرجة الرابعة من المراتب العلمية في القرويين إلى الدرجة الثالثة إلى الدرجة الثانية ثم إلى الدرجة العلمية الأولىٰ. . .

صفته:

وصفه نجله الإمام الزمزمي في تاريخه ص٢٩ بقوله: «أما صفة سيدنا الوالد -رحمه الله- فكان ربعة من الرجال إلى الطول أقرب، عريض المنكبين أجلح الرأس. واسع الجبين، ضليع الفم، أزج الحاجبين، واسع العينين، فيهما جهر وجحوظ قليل، أشم الأنف، كث اللحية، لم تزل بها شعرات سود، وأكثر في الشارب والعنفقة والذقن، طويل العنق رحب الصدر، سواء صدره وبطنه، جهوري الصوت، ضعيف البصر، من

كثرة الدؤوب ليلاً ونهاراً على المطالعة والتحصيل، ومع ذلك ما استعمل النظارات في حياته قط».

«وكان -رحمه الله- شديد حاسة الشم، وصفه الشوام بذلك لأنه كثيرا ما يحس برائحة الدخان في بيوتهم فيثب للخروج حالاً لشدة، ما كان ينكره ويكرهه».

«وكان شديد الذكاء والحفظ، حتى إنه كان يقرأ دروسه كلها مشرقاً ومغرباً من حفظه بعد المطالعة، وكان -رحمه الله تعالى- ممتلىء الجسم منتصب القامة، لونه بين السمرة والبياض، بهي الوجه، مهيب النظر، علىٰ كلامه سطوة وجلالة تحمل السامعين على القبول».

حاله وأخلاقه:

حاز -رضي الله عنه- قصب السبق في جميع العلوم الشرعية، يأخذ منها كما شاء وكيف شاء، مرجعا في جميعها من توحيد وتفسير وفقه وأصول وحديث ولغة ونحو وبلاغة وصرف وبيان وتصوف وتاريخ وأنساب ومنطق وكلام وغير ذلك، بل كانت له دراية في علم الرماية والحرب والسياسية والاجتماع، حتى أجمعوا على أنه شيخ الإسلام وإمام الأئمة الأعلام، شهد له بذلك الموافق والمخالف.

بلغ في الفقه الاجتهاد وأخذ عنه أعلام من مختلف المذاهب الأربعة خاصة مذهبي مالك والشافعي، حافظاً لنصوص العلماء، مستحضراً لها من منابعها الأصلية، مطلعاً علىٰ كتب المتقدمين والمتأخرين... بل قال نجله في تاريخه ص٥٠٥: «كان الوالد يقرأ بهذه الدار [بالصالحية بدمشق] مسند الإمام أحمد بن حنبل، يأتي للحضور إليه كثير من علماء المذاهب الأربعة، وقد كان كثيراً ما يقرر مسألة بأحد المذاهب الأخرىٰ غير المالكية، فيعارضه فيها من هو من ذلك المذهب فيأمرني بإحضار كتب ذلك المذهب، فتوجد المسألة كما ذكر، فيعترف ذلك المعارض بخطئه».

إمام في الحديث مرجع فيه في عصره، بل لم يكد عالم من علماء المشرق والمغرب العربيين معروف بالحديث والاشتغال به إلا وتباهى بالأخذ عنه أو عن أحد تلاميذه، مثل محمد بن عبد الكبير الكتاني وعبد الحي الكتاني ومحمد المنتصر بالله الكتاني ومحمد المدني بن غازي ابن الحُسْني، ومحمد بن محمد الحجوجي، وعبد الحفيظ بن طاهر الفاسي، وعبد الستار الهندي، وعمر حمدان المحرسي، وأحمد بن محمد شاكر، وأحمد بن محمد الغماري، وعبد الله بن محمد الغماري وعبد العزيز بن محمد الغماري، وناصر الدين الألباني (وهو من الآخذين عن أحمد شاكر وأحمد الغماري وعبد الله الغماري. . . وغيرهم.

حافظ من حفاظ الحديث، واعية دراك، وصفه غيرما واحد بأمير المؤمنين في الحديث، تم له سماع وإسماع غالب الكتب الستة أو جميعها، وطرفا من مسند الإمام أحمد، وغير ذلك من الكتب والأجزاء الحديثية، وناهيك بدرسه في القروين في المسند آخر عمره، حيث كان يحضره أكثر من عشرة آلاف شخص يمتلىء منه جامع القرويين الأعظم على سعته.

إمام في التاريخ، واعية في تراجم المتقدمين والمتأخرين، مجد فيه، كل من كتب في تاريخ بلدة من البلاد المغربية -خاصة- إلا وهو تلميذه عنه أخذ وبه تأثر، وتلميذ تلاميذه، مثل الحافظ عبد الحي الكتاني في «تاريخ جبل درن وزواياه» في عدة مجلدات، وفي ذيله واستدراكه على «سلوة الانفاس في أعلام فاس» للمترجم، في سفرين كبيرين. وعبد الرحمن بن زيدان العلوي في «تاريخ مكناس» الواقع في عشرة مجلدات، والعباس ابن إبراهيم في «تاريخ مراكش» الواقع في تسع مجلدات، والمختار بن علي السوسي في تاريخ رجال سوس «المعسول» الواقع في عشرين مجلداً، وأحمد الرهوني في تاريخه لتطوان الواقع في عشرة مجلدات، ومحمد داود في تاريخه لتطوان كذلك الواقع في عشرة أسفار كبار، ومحمد بن علي الدكالي في تاريخه لسلا الواقع في أربع مجلدات كبار. . . إلخ.

والحاصل: فقد كان مرجعا مجددا في جميع العلوم الشرعية كما ذكر شيخ الجماعة شمال المغرب أحمد بن محمد الرهوني في مقدمة تاريخه لتطوان! إضافة إلى المعرفة التامة بالسياسة الدولية وعلوم الاجتماع مع إلمام بشيء من الطب وغيره من العلوم، ما يظهر جليا في مصنفاته، خاصة كتابه: «جلاء الأصداء من القلوب الغينية في بيان إحاطته عليه الصلاة والسلام بجميع العلوم الكونية» (**طبع حديثا بدار الكتب العلمية**) والذي يدل على بلوغ الاجتهاد والمعرفة الكبرى في عشرات من العلوم، ومن شك فليمارسه بذهن واسع، وعلم جم.

بل وقال فيه شيخ الإسلام الشريف محمد بدر الدين بن يوسف البيباني الحسني - شيخ الشام - بعدما أمر نجله الرئيس تاج الدين الحسني بالأخذ عنه والاستجازة: «أنا ما رأيت في حياتي مثل السيد محمد بن جعفر»[1].

إذا قالت حذام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حذام

وكان -رضي الله عنه- أكمل الناس خُلقاً، عصمه الله تعالى من فتن الدنيا، حتى قال كل من الإمام شيخ الجماعة أحمد بن محمد ابن الخياط والعلامة قاضي الجماعة محمد بن رشيد العراقي في مجلس مختلف: «ما منا إلا وقد لعبت به الدنيا وزاد ونقص إلا فلان» يعنون المترجم رضي الله عنه: «فإنه نشأ وهو على حالة استقامة لم تغيره الليالي والأيام، ولا لعبت به في دينه تقلبات الأقوام والأعوام». وقال شيخ الجماعة فيما بعد الشيخ عبد الله بن إدريس العلوي الفضيلي: «إن ولاية سيدي محمد بن جعفر ليست ولاية كرامات ومناقب، وإنما هي ولاية الصحابة والتابعين»!![2].

بل كان أهل فاس أيام يفاعته وشبابه؛ إذا أرادوا الاستسقاء خرجوا به متوسلين إلى الله تعالى؛ فلا يعودون إلا مبتلة ثيابهم بالأمطار، وفي ذلك قال فيه العلامة المهدي بن عبد الرحمن ابن سودة المري:

---

(١) «عقد الزمرد» ص٣٢١.

(٢) انظر المصدر السابق ص٥٢٩.

يا أيها الحبر ومن حبه … حبه في القلب سكن

يا ابن الكرام الأخير … محمد بن جعفر

خرجت لله وبه … تطلب غيثا كنت به

قرير عينٍ للأنام … من ليلة بكى الغمام

بها طل هتان … يجلو صدى الأحزان

فنحمد المولىٰ علىٰ … ما لكمُ من العلا

يا آل بيت المصطفى … الخير منكم قد وفى

دمتم إماماً للورىٰ … من كل أمر قد عرىٰ

وكان في رضى الوالدين أعجوبة زمانه، لاتأتيه هدية جميلة، أو تحفة من التحف إلا ويؤثر بها والده -رضي الله عنهما- ولا يدخل علىٰ والده إلا جاثيا على ركبتيه، ثم يقبل يديه وركبته أو رجله، ولا يرفع إليه بصره قط ولا صوته، بل لا يتكلم بمحضره إلا أن يأذن له.

وكان متألها قواماً صواماً لا يترك قيام ليل ولا صيام الأيام الفاضلات، لا يعرف الذنب، ولا يعرف الذنب إليه سبيلا، حتى ذكر نجله في تاريخه ص٣٤: «قال سيدي عبد الرحمن قدامة: وسألته - رضي الله عنه- يوماً: هل صدرت منك مخالفة قط؟ يعني: لأوامر الله. فأجابه السيد الوالد بقوله: لا؛ سوىٰ أني تخاصمت يوماً مع الناظر على الحُبُس!! أقول: وهذا غريب، من عرف زهد سيدنا الوالد وتباعده عن الدنيا وترفع نفسه عنها؛ يشكل عليه خصامه مع الناظر المذكور...».

وكان ممن يشاهد الله. أي: عظمة الله- في جل شؤونه، فلا تراه إلا لله بالله من الله آخذاً وطالباً، متخلقاً بأخلاق رسول الله ﷺ، متأدبًا الأدب الكامل، محباً للرسول ﷺ وعلىٰ آله، وآل البيت الأشراف، وكذلك العلماء والأولياء الصالحين محبة لا توصف ولا

تكيف.

كما كان جهوراً في الحق، لا يخشىٰ في الله لومة لائم، لامن الملوك ولا من دونهم، حتى كانوا يزورونه ولا يزورهم -إلا لضرورة شرعية- ويصرحون له أنهم يزورونه من باب التبرك والتقرب إلى الله تعالى ليكونوا ممن قال فيهم الله عز وجل: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢]، وكانوا يهابونه في مجالسهم، بل وبعضهم يقبل يده ويحترمه الاحترام الجم، لا من حكام المغرب ولا حكام الشام، ولا حكام تركيا.

وزاره مرة في منزله بالشام المجاهد الكبير الجنرال أحمد جمال باشا رحمه الله تعالى، قائد الجيش التركي العثماني ببلاد العرب وشرق تركيا، ولما جلس على الفراش المغربي لم تمكنه لبسته العسكرية من جلوسه متأدباً بين يدي المترجم -رضي الله عنه- وكان له فيه اعتقاد ومحبه كبيران - فاعتذر له بما ذكر، فقال له المترجم: «أنت بمحلك؛ فلتجلس كيفما تيسر لك». فأجابه أحمد جمال باشا بقوله: «نعم! ولكن الولد إذا كان بين يدي والده يجب عليه أن يتأدب!!»، ثم التفت إلى الحاضرين وقال لهم: «أتسمعون بالكبريت الأحمر الذي يسمع ولا يرى؟!، هو هذا». وأشار للإمام المترجم. ثم صار يطلب رضاه ودعاءه الصالح له وللدولة وللمسلمين...[1].

حتى قال فيه الحافظ الكبير الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى في «المثنوني والبتار» ص٦٦: «شيخنا الإمام العارف بالله تعالى بقية السلف الصالح، وخاتمة الطراز السالف أبو عبد الله سيدي محمد بن جعفر الكتاني الحسني رضي الله عنه ونفعنا به - كانت الملوك والأمراء تخدمه وتتشرف بالانتساب إليه، وهذا معلوم لدىٰ الخاص والعام من أهل البلاد المغربية والحجازية والشامية، ومن وفد إليها من الأقطار البعيدة النائية، وقد كان سلطان المغرب عبد الحفيظ تلميذا لشيخنا المذكور [أي: بعد خلعه وتوبته] وكان يتردد إليه أيام حجه ويخدمه بنفسه - وكذلك كان يحترمه

(١) المصدر السابق ص٢٩١.

ويعظمه أمراء الحجاز والدولة التركية، وعظماء البلاد الشامية، ويفدون لزيارته والتبرك به، والاهتداء بهديه. . . » انتهىٰ بتقديم وتأخير.

وكان مبغضا للكفر والكفار أجمع، لا يتطبب بهم، ولا يجاملهم ولا يمازحهم، بل كان في بداية أمره لا يسمح لعينه أن تنظر إلى وجوهم، لما أن النظر إلى الفاسق -بله الكافر- سم قاتل كما قيل. . .

وكان -كوالده- يكره أرباب الحمايات والمتجنسين بجنسيات الكفار، ولا يجالسهم ولا يزاورهم، يدور مع الشرع الكريم أنىّ دار، ويؤلف ضدهم وينفر الناس عنهم، مع الدعاء المتواصل لهم بظهر الغيب بالهداية والصلاح، وكان أرأف الخلق بالخلق، ويظهر ذلك جليا في كتابه العظيم: «نصيحة أهل الإسلام بما يدفع عنهم داء الكفرة اللئام».

ولذلك فقد كان المجاهدون في ريف المغرب وفي ليبيا وفي تركيا وفي الشام ينتصحون بنصائحه، ويأتمرون بأوامره، بل يخطبون في جهادهم بكتبه، وكان يعمل علىٰ جمع التبرعات لهم، وحض الناس على الانضمام إليهم والجهاد معهم، -حتى قالت جريدة لوطان الفرنسية شبه الرسمية الصادرة بتاريخ ١١-٣-١٩٢٧ بعيد وفاته: «**مات أكبر عدو لفرنسا**».

وحاصل القول؛ فإن أبلغ ما وصف به؛ هو ما وصفه به مجدد القرن الرابع عشر حجة الإسلام أبو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني الشهيد في إجازته لنجله الشيخ الزمزمي بعد وصفه بـ: «الإمام علم الأعلام جبل السنة علماً وعملاً وزهدا وورعاً، العلامة المكين، السري المتين» بقوله: «وأوصيه -أي: المجاز -بأن يقتفي أثر والده وهديه وسننه، فإنه إذا استمسك به كان على نهج السلف الصالح: ﴿أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ومثل أبي الفيض من يحكم. وقال الحافظ الكتاني في «فهرس الفهارس» ص١٥٧: «وعرف بملازمة السنة في هديه ونطقه وفعله وشدة التثبت والتحري في علمه وعمله، واشتهر أمره في مشارق الأرض ومغاربها بذلك، وافتخر أعلام بالأخذ عنه والانتماء إليه. . . ولم يخلف بعده في هديه وسمته

العلمي وانقباضه مثله، بحيث بتغميضه عينيه ودعنا آخر مثال لرجال الدين السابقين والعلماء العاملين لأخراهم. . .».

وقال الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمد الحجوجي في «كنز اليواقيت الغالية من الأسانيد العالية» ص:٢٣ مخطوط «هذا السيد من العلماء المحققين المتقين الورعين، جمع -رحمه الله- من العلوم علوما جمة من تفسير وحديث وفقه وأصلين ونحو وتصريف وبيان ومنطق وتصوف، والغالب عليه علم الحديث وصناعته، فإنه فيه لا يبارىٰ، ثم قال: وقد جمع -رحمه الله- من الأخلاق الحسنة، والأوصاف المستحسنة ما يقصر عنه اللسان، ويكل عن جمعه بنان، مع ليونة جانب وتواضع وشفقة، وحلم وصفح، وكظم للغيظ، وصبر ورأفة. . .».

وقال العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد مخلوف في «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» (١ :٤٣٦): «الأستاذ العارف بالله الرباني، جمع الله له المناقب فاختار منها وانتقى، ورأى أن أحسنها وأكرمها التقوىٰ، الرجل الصالح، والإمام الناصح، خاتمة المحدثين والعلماء العاملين. . .».

وقال العلامة عبد الحفيظ الفاسي في معجم شيوخه (١/ ٧٧): «عين من أعيان فاس وسراتها الأمجاد، مشارك متفنن في كثير من العلوم، متضلع في علم الحديث، بصير بمعانيه وفقهه، دؤوب على تدريسه وسرده، حسن النطق به، عارف بتراجم رجاله، مطلع علىٰ أخبار صلحاء وعلماء فاس وطبقات المذهب، مشارك في التصوف عارف بمقاصد أهله واصطلاحاتهم، صحيح النقل، متحرفي العزو، أصيل الضبط، مشار إليه اجتهاداً في العلم ودؤوبا علىٰ تدريسه والاعتناء به والاطلاع علىٰ غرائبه، باغ إلى الخير، محب في أهل الصلاح، محسن الظن بهم، منحاش إليهم. . .ثم قال: وبالجملة فهو آخر رجال العلم والدين السابقين. . .».

وقال ابن بسام زمانه الوزير أبو عبد الله محمد بن محمد بن المفضل غَرِّيط الأندلسي الفاسي: «كان من طبقة سفيان الثوري وعبد الله بن المبارك، لم يكن يميل إلى الملوك فمن دونهم، ولا يدخل دورهم ولا يتناول طعامهم، ولا يقبلْ صِلاَتهم»[1]. . .

---

(١) انظر«فاس عاصمة الأدارسة» لجدنا العلامة محمد المنتصر بالله الكتاني ص٩١.

كما أفرد مناقبه بالتأليف علامة تطوان أبو عبد الله محمد بن محمد الفرطاخ رحمه الله تعالى. وأفرده بالترجمة العلامة أبو عبد الله محمد بن العياشي سكيرج، وحفيده -جدنا- الإمام أبو علي محمد المنتصر بالله الكتاني في مجلد، علاوة على ترجمة نجله الزمزمي له - المذكورة - في مجلد كبير.

رحلته:

نشأ المترجم -رضي الله عنه- في مدينة فاس، العريقة بالعلم والعمل منذ أسسها جده أمير المؤمنين أبو العلاء إدريس بن إدريس، وبها تربى وتعلم، وتكاملت مداركه في مجتمع لا يعرف سوىٰ العلم والتنافس فيه، والعمل والتسابق فيه، وكانْ في خلال ذلك يقوم بجولات وزيارات لعدة مدن في المغرب، خاصة المدينة المعظمة «زرهون» التي تضم ضريح الإمام فاتح المغرب أبي العلاء إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، ومكناس، ومراكش، والرباط، وسلا، ووزّان. . .إلخ، وهذه كلها مراكز العلم والدعوة إلى الله تعالى في المغرب، فكان ينتقل من مدينة إلى أخرى، وقرية إلى أخرىٰ طالباً للعلم وناشرا له، داعياً إلى الله تعالى في حله وترحاله.

وفي عام ١٣٢١ سافر إلى الديار المقدسة بنية الحج، بعد التوسل بكل ما لديه إلى والده ليسمح له بالذهاب إلى الحج، حيث كان لا يرىٰ وجوبه في زمانه، وفي طريقه للحج زار مصر والتقى بكبار علمائها، وأخذ عنهم وأخذوا عنه، ثم في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ترسخت علاقته بكثير من العلماء خاصة العلامه حسين بن محمد الحبشي الباعلوي الحسيني ومحمد بن سعيد بابصيل، وعبد الجليل برادة وعبد القادر بن توفيق الشلبي. . .وغيرهم. . . . وفي عودته زار بلاد الشام، الحرم الأقصىٰ ودمشق، وتعرف علىٰ جمع من أعلامها أمثال شيخ الإسلام الشريف بدر الدين بن يوسف البيبا ني الحسني المغربي، والإمام جمال الدين القاسمي. . .وغيرهم. . .

ثم في عام ١٣٢٥ خرج مهاجراً إلى الله تعالى نحو المشرق، بعدما وجد حاكم الوقت غير متأهب للجهاد، ولم يرعو لنصيحته التي كتبها له، والناس غير متآلفين، ولا مستعدين لدفع العدو الصائل، ومكث بالمدينة المنورة مدة عام تقريباً، خُلع فيه السلطان عبد العزيز العلوي وولي محله السلطان عبد الحفيظ الذي عول عليه المغاربة كثيرا في دفع العدو الصائل، وكان العامل على استتباب البيعة للسلطان الجديد والمقيد لها بشروط الشورىٰ والجهاد؛ هو ابن عمة المترجم الإمام أبو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني الشهيد.

فعاد المترجم عام ١٣٢٦ إلىفاس بنية الذب عن حرم البلاد ونصرة الملك الجديد، الذي لم تمض أشهر حتى خرق شروط البيعة وقتل الإمام أبا الفيض تحت السياط في قصة تطول: وبذلك خمدت آمال المغاربة في رأب صدعهم ودفع عدوهم. . .

فآثر المترجم له -رحمه الله- الرجوع مهاجراً إلى الله تعالىٰ نحو الحجاز، وذلك عام ١٣٢٨، ومكث بالمدينة المنورة إلى عام ١٣٣٦، حيث تفرغ بها إلى الدعوة إلى الله تعالى، ونشر العلوم والمعارف، وأخذ عنه عامة علماء الحجاز وقتذاك، خاصة شيخ جماعتهم وشيخ الكل في الكل أبو حفص عمر بن حمدان المحرسي، رحمه الله تعالى، الذي تخرج على يديه. وهناك ربط علاقاته بالأشراف الحكام في الحجاز وبالدولة العثمانية وحكامها خاصة الجنرال المجاهد أحمد جمال باشا رحمه الله تعالىٰ. . .

ثم بعد الاضطرابات التي حدثت وقتئذ، والثورة ضد الخلافة العثمانية، اضطرته الحكومة التركية إلى الهجرة إلى دمشق بسوريا حفاظا عليه، وذلك عام ١٣٣٦، حيث مكث هناك مشعلا علميا استضاء منه جميع علماء ومصلحي الشام، خاصة الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب، والشيخ عبد القادر المغربي، والشيخ توفيق الأيوبي والشيخ زاهد الكوثري. . .إلخ، علاوة على ابنيه الإمام أبي الفداء محمد الزمزمي، وشيخ علماء الشام مجدد الإسلام بها أبي الفيض محمد المكي رحمهم الله تعالىٰ. . .

وفي أثناء تلك الفترة زار مصر، وألقى درسا في الأزهر الشريف، وأخذ عنه جملة من علماء مصر، والتقى بالمصلح الكبير حسن البنا، وشجعه في أعماله ومواقفه لنصرة الإسلام والمسلمين...

وبعد دخول الاستعمار الفرنسي إلى سوريا؛ قرر العودة إلى فاس والمكوث بها أشهراً يصل بها رحمه التي لم يجتمع بها منذ عشرين عاماً تقريباً، ثم يعود إلى المدينة المنورة، مهاجراً ومقيماً.

وعاد إلى فاس عام ١٣٤٥، واستقبل بها من جميع طبقاتها استقبال الأبطال، منذ وصوله إلى الدار البيضاء إلى بلوغه فاساً، وهناك تفرغ لإلقاء دروس في جامع القرويين الأعظم في شرح مسند الإمام أحمد كان ابتدأها بدمشق من قبل، أخذ عنه فيها كافة علماء فاس فمن دونهم وتناقلت أخبارها الركبان، رصفها نجله الزمزمي بقوله:

«وكان سيدنا الوالد -رحمه الله- في دروسه هذه يذكر الحديث على عادته فيتعرض لرجال سنده ولادة ووفاة، جرحاً أو تعديلاً، ثم للمتن من حيث الصحة والضعف والعزو والتخريج، ثم يتكلم علىٰ فقهه ذاكراً مذاهب الأئمة الأربعة وغيرهم، ووجهة نظر كل واحد منهم، وبالخصوص مذهب مالك، فقد كان يسعى في تطبيق الأصول على الفروع، يذكر نص خليل ويقابل بينه وبين الحديث، ثم يرجح بين الآراء أو يأتي برأي جديد، فيدرك عليه بحجج وبراهين تترك الشاك موقنا، على ما يأتي به من طرف وفوائد وملح في فنون مختلفة، في فصاحة منطق، وجمال تعبير، وإبداع في الأداء...».

«وإذا علمت أن مسند أحمد لم يشرح بعد شرحا يتناسب وقيمته، ولم يعن به علماء الإسلام، بل لم نر في كتاب، ولم نسمع من أحد أن أحدا من رجال التاريخ درسه دراسة ورواية، علمت أن التكفل بتدريسه من الصعوبة والخطورة بمكان، ولا يقتحم مثل هذا الموقف إلا رجل هو السيد محمد بن جعفر الكتاني، قدس الله روحه ونور مرقده وضريحه ونفعنا بذكره...آمين».

«وقد كاد جامع القرويين على سعته أن لا يكفي لإيواء كل المستمعين الذين قدروا بآلاف تناهز العشرة آلاف، وقد شوهد كثير منهم يحجزون المقاعد وقت العصر، بل وقبله. خوفاً علىٰ مقعدهم من الاغتصاب بين أمواج الخلائق (والدرس بين المغرب والعشاء) إذ كان يحضره أعيان المغرب ويستعملون له الرحلة، وقد كان الكثير منهم يحكي لأهله ما يسمعه من السيد الوالد من المواعظ والإرشادات، فكان ذلك يؤثر فيهن، ويرتدعن بسببه من كثير من القبائح والعوائد السافلة».

«إذ كثيرا ما كنا نسمع من الناس أن أخلاق نسائهم تحسنت منذ فتح السيد الكتاني دروسه الحديثية، من كثرة ما كان الرجال يخبرون به نساهم من الفوائد والمواعظ. . .».

وقال الحافظ الكتاني في «فهرس الفهارس» ص٥١٨: «انتابت إليه العامة وكثير من الخاصة، وناهيك بدرسه لمسند أحمد بن حنبل، فقلَّ أن شاهدت القرويون مشهداً أكبر ولا أجمع من ذلك المحفل. . .».

الآخذون عنه:

أخذ عنه آلاف من علماء المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر والحجاز والشام والعراق والهند وتركيا وافتخروا بالأخذ عنه، والدهق من معينه، ولما التقاه الإمام الشريف أحمد بن حسن العطاس الحضرمي الحسيني، وعرف قدره استجازه لجميع أهل حضرموت فأجازهم رضي الله عنه وذلك عام ١٣٢٥، وكذلك استجازه المترجم -رضي الله عنه- لجميع أهل المغرب فأجازهم. . .

وذكر الآخذين عنه يطول، وقد ذكرت جملة منهم في طي الترجمة.

وفاته:

عاني المترجم -رضي الله عنه- منذ زمن طويل من مرض القلب، الذي كان كلما خف عنه عاوده مرة أخرى، حتى عاوده وهو في فاس واشتد عليه، وذلك في أواسط شهر شعبان من عام ١٣٤٥؛ إلى أن كانت منه وفاته -رضي الله عنه- في ليلة السبت الخامس عشر من شهر رمضان عام ١٣٤٥. . . .

وما أن انتشر خبر وفاته حتى تجمع ألوف من الناس علىٰ بيته،وخرجت جنازته في اليوم الموالي حتى لم يكد يبق أحد من أهل فاس والضواحي إلاّ حضرها، وزفرات الناس بالهيللة ترتفع إلى السماء، والنساء فوق السطوح يبكين ويلقين ماء الزهر؛ إلى أن دفن في محفل رهيب حضره أكثر من مائة ألف. في ضريح الإمام أبي ميمونة الدراس بن إسماعيل بمنطقة القباب قبالة باب الفتوح. وأجمع من ترجم له بأنه: بتغميضه عينيه ودع الناس آخر مثال لرجال السلف الصالح علماً وعملاً...

قال في «فهرس الفهارس» ص٥١٨: «أما يوم وفاته فكنت ترى الناس كالسيل الجارف، وكأنه ما بقي أحد بالبلد إلا وانثالها، ولاشك أن أهل السنة يعرفون بجنائزهم!!».

وألقيت عليه وكتبت فيه عشرات المرثيات من علماء المشرق والمغرب، ذكر كثيرا منها نجله في تاريخه، وما أن وصل نعيه للمشرق حتى صلى عليه صلاة الغائب في الحجاز والشام، وبقيت تصلى عليه وينادىٰ عليها من المآذن مدة من ثلاثة أشهر..

ثم اضطر أهله إلى نقل رفاته في شعبان من عام١٣٤٧، إلى داخل فاس لمحاولة بعض الطغاة الحسدة بنبش قبره عدة مرات، فنقل بتاريخ الإثنين متم ربيع الثاني عام ١٣٤٧، بعد تسعة عشر شهرا من وفاته، وما أن فتح عليه حتى فاضت روائح المسك والعنبر وعطور كثيرة، ووجد كما هو طريا لم تؤثر فيه الأرض شيئاً، وقامت له جنازة شعر بها أهل فاس في الحادية عشرة ليلاً، وخرجوا فيها في عشرات الألوف من الناس حيث دفن في مرقده الأخير بزاوية خصصت له بدرب اللمطي بفاس... رحمه الله ورضي عنه[1].

---

(١) خلف المترجم رضي الله عنه عدة أبناء كانوا كلهم من العلماء المجاهدين ضد الاستعمار وهم: محمد الزمزمي ومحمد المكي والطائع ويحيى وسعد الدين وإدريس وعز الدين حفظ الله الأخيرين ورحم الباقي بمنه تعالى وكرمه.

مؤلفاته:

ترك المترجم -رضي الله عنه- ما يدنو من ثمانين مؤلفا في مختلف العلوم، شهد له فيها سائر الأعلام بالتقدم والبراعة والمشاركة في كثير من العلوم، وطارت أخبارها مشرقا ومغربا، وتميزت بعمق النظر، ووسع الاطلاع... أذكر منها:

كتب في التاريخ والسيرة:

١- الأزهار العاطرة الأنفاس بذكر مناقب قطب المغرب وتاج مدينة فاس إدريس بن إدريس، باني مدينة فاس. في مجلد، طبع بفاس طبعة حجرية سنة ١٣١٤.

٢- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بذكر من حل أو أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، في ٣ مجلدات ضخمة، طبع بفاس طبعة حجرية سنة ١٣١٦.

٣- إسعاف الراغب الشائق بخبر ولادة خير الأنبياء وسيد الخلائق. طبع بفاس سنة ١٣٢١.

٤- اليمن والإسعاد بمولد خير العباد. طبع في الدار البيضاء ودمشق عدة طبعات.

٥- إعلام ذوي النهى من سائر الأقالم، بحسن القيام للمولد النبوي، وبمعنى طيه ﷺ للعوالم.

٦- المطالب العزيزة الوفية، في تكلمه عليه السلام بغير اللغة العربية.

٧- نيل المنى وغاية السول؛ بذكر معراج النبي المختار الرسول. نشرته مكتبة الشرق ومكتبة العالم الإسلامي سنة ١٣٤٢ بدمشق وطبع ثانيا من طرف مكتبة عرفة.

٨- الرحلة السامية، للإسكندرية والحجاز ومصر والبلاد الشامية.

٩- النبذة اليسيرة النافعة، التي هي لأستار جملة من أحوال الشعبة الكتانية رافعة.

كتب في الحديث:

١٠- نظم المتناثر من الحديث المتواتر. طبع بفاس سنة١٣٢٨، وأعيد طبعه بدار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٤٠٠، ثم طبع بالدار السلفية بمصر.

١١- الرسالة المستطرفة، لبيان مشهور كتب السنة المشرفة. وطبعت ٦ مرات بدمشق وبيروت.

١٢- الرسالة المختصرة، فيما لا يسع المحدث جهله من كتب السنة المطهرة.

١٣-الأقاويل المفصلة، لبيان حال حديث الابتداء بالبسملة.

١٤- مسلسلات حديثية أولى وثانية.

١٥- ختم الموطأ.

١٦- ختم البخاري.

١٧-ختم مسلم.

١٨-ختم الشمائل.

١٩- شرح أول ترجمة من جامع الترمذي.

٢٠- تخريج أحاديث مسند الشهاب للقضاعي. لم يكمل.

٢١- إجازة فيها أسانيده بالكتب الستة وغيرها.

٢٢- إجازة أخرى مشتملة على تراجم عدة من الشيوخ.

٢٣-إجازة أخرى مشتملة على تراجم عدة من الشيوخ. وعلى بيان أسانيده لكثير من طرق القوم.

٢٤- كتاب الأربعين الكتانية في فضل آل البيت.

٢٥- إجازة أخرى مشتملة على عدة فهارس والسند إليها.

٢٦- شرح سنن النسائي. تم من إملائه مجلد واحد عند أبناء الشيخ محمود ياسين الدمشقي.

٢٧- شرح مسند الإمام أحمد. تمت منه خمس مجلدات، ثلاثة عند أبناء الشيخ محمود ياسين المذكور، وواحد عند أبناء الشيخ أحمد بن محمد الرهوني، والخامس عند أبناء الشيخ محمد إبراهيم بن أحمد الكتاني.

كتب في التفسير:

٢٥- تفسير قوله تعالى: ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب. الآية.

٢٦- تفسير مختصر للإخلاص والمعوذتين.

٢٧- رسالة في البسملة على طريق الإشارة للجناب النبوي.

٢٨- جواب عن آية: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت .

كتب في الفقه:

٢٩- سلوك السبيل الواضح لبيان أن القبض في الصلوات كلها مشهور وراجح.

٣٠- نصرة ذوي العرفان فيما أحدثوه في الذكر عن المطبوع والألحان.

٣١- إرشاد العوام لما به العمل في الصيام.

٣٢- رفع الملامة ودفع الإعتساف، عن المالكي إذا بسمل في الفريضة خروجا من الخلاف .

٣٣- الدعامة، لمعرفة أحكام سنة العمامة. نشرته مكتبة الشرق ومكتبة العالم الإسلامي بدمشق سنة ١٣٤٢ .

٣٤- رفع الالتباس، ببيان ما للعلماء الأكياس، في مسألة الحرير التي وقع الخوض فيها بين الناس.

٣٥- إتحاف ذوي البصائر والحجا، بما في مسألة الحرير من السرور والنجا.

٣٦- الإعلام، بما في المجانات (الساعات اليدوية) المحلاة من الأحكام.

٣٧- حاشية على شرح ميارة الصغير للمرشد المعين.

٣٨- رسالة في حكم الجمعة في حق من سافر دون مسافة القصر.

٣٩- حاشية على شرح الجامع المنسوب للشيخ خليل للشيخ التاودي لم تكمل.

٤٠- رسالة في عدة مسائل فقهية.

٤١- رسالة فيما يعمل عليه في رمضان من أقام في بلدة من بلاد النصارى يتوالى فيها الغيم في أكثر الأوقات حيث لا يتأتى فيها رؤية الهلال.

٤٢- رسالة في وجوب تناصر المسلمين على أعدائهم الكافرين مع الإمكان.

٤٣- رسالة في حكم الاحتماء بالنصارى.

٤٤- رسالة في بيان حقيقة الخز وحكم ما ليس بخز.

٤٥- إعلان الحجة وإقامة البرهان، بمنع ما عم وفشا من استعمال الدخان. ذكر فيه ١٦ دليلا شرعيا على تحريمه وفتاوى العلماء بالتحريم من المذاهب الأربعة - طبع بدمش مرتين. وهو أعظم كتاب في هذا الموضوع.

٤٧- تنبيه الأغنياء والسادات، على ما يجب عليهم وقت المجاعة من المواساة. طبع بفاس طبعة حجرية.

٤٨- رسالة في حكم السيادة في الاسم الأعظم. أعني اسم نبينا صلى الله عليه وسلم.

كتب في التصوف:

٤٩-جلاء القلوب من الأصداء الغينية ببيان إحاطته عليه السلام بجميع العلوم الكونية في مجلدين كبيرين قال عنه المؤلف: أظن أني لم أسبق إلى مثله وضعا وتحريرا وفوائد جمة بلسان القوم، وبمطالعته يعرف قدره هـ. ومن طالعه يدرك أن المؤلف ادرك الاجتهاد في جميع العلوم.

٥٠- رسالة في مسائل تتعلق بسلب الإرادة بالعين.

٥١- رسالة أخرى في مسائل ثلاثة تتعلق به أيضا.

٥٢-رسالة أخرى تتعلق بسلب الإرادة وطريق القوم.

٥٣-شرح على أبيات للشيخ العارف بالله الحاج المفضل البقالي على طريقة خاصة الخاصة.

٥٤- رسالة في الختم المحمدي.

٥٥- شرح على دلائل الخيرات، لم يكمل.

كتب في موضوعات مختلفة:

٥٦- نصيحة أهل الإسلام بما يدفع عنهم داء الكفرة اللئام. طبع بفاس طبعة حجرية سنة ١٣٢٦ ثم بالرباط سنة ١٤٠٨.

٥٧- شفاء الأسقام والآلام، بما يكفر ما تقدم وما تأخر من الذنوب والآثام. طبع بالمطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٥.

٥٨- بلوغ القصد و المرام، ببيان ما تنفر منه الملائكة الكرام. طبع بنفس المطبعة السابقة مع الكتاب السابق في مجلد واحد.

٥٩- الكشف والبيان، لما يرجع لأحوال المكلفين من عقائد الإيمان.

٦٠ شرح كتباب للسلطان مولاي الحسن بن محمد العلوي، كتبه إلى بعض أشياخ بفاس.

٦١-خطب وأدعية جمعها عندما كان يخطب بجامع أبي الجنود بفاس نيابة عن والده.

٦٢- رسالة في آداب الدخول بالزوجة.

٦٣- تعجيل البشارة للعامل بالاستخارة. وهو أول أوضاعه رحمه الله تعالىٰ.

تقريظ الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

يقول مصححه العبيد الفقير الجاني، عبد الرحمن بن جعفر الكتاني[1] جعله الله ممن ليس له عن طاعته ثاني، بجاه من أوتي السبع المثاني:

الحمد لله الذي قَيَّضَ لهذه الشريعة المحمدية في كل عصر من يذب عنها بالبراهين الصحيحة، ووفق من أراد به خيرا لقبول المعجزات الصريحة، القائل فيما رواه عنه الثقات: «الدين النصيحة»، وعلى آله وأصحابه، وكل منتسب إلى علي جنابه.

أما بعد؛ فإن الله تعالى لم يزل يقيض لنصرة الدين رجالا، كلما وهى شيء من معالمه انتدبوا لتشييد مبانيه عِجَالاً، وإن ممن أقامه الله تعالى في هذا المقام فكان أسبقهم مجالا، وتصدىٰ لنصح أهل الإسلام، وبركة الخاص والعام، الكامل الوصف، والواحد المعدود بالألف، الفقيه المحدث الصوفي، الذي صافى فصوفي:

عَلاَّمَـــةُ العلمـاء واللُّـجُ الـذي ... لا ينتهـي ولكـل بحـرٍ سـاحِـلُ

بيـن الشـريعـة والحقيقـة جـامـعٌ ... مُتَمَسِّـكٌ بـدعـائــــمِ الفقهـاءِ

مولانا محمد بن شيخ المشايخ، وطود المجد الشامخ، شريف العلماء، وعالم

---

(١) هو أخو المؤلف: الشيخ عبد الرحمن بن جعفر بن إدريس الكتاني، ولد بفاس عام ١٣٩٧، وأخذ عن أساطين علمائها بالقرويين، ذكر مترجموه أنه بلغ مرتبة الإمامة في علوم الحديث واللغة والأدب، واشتهر بأشعاره فائقة الصناعة، وترك عدة مؤلفات ودواوين، منها: موافقات عمر بن الخطاب. وكتاب فيمن أردفه النبي ﷺ خلفه، وغير ذلك، توفي عن (٣٦) عاما، وذلك بتاريخ (١٣٣٤) بفاس. . .رحمه الله تعالى، والطبعة الأولى كانت في بداية عهد السلطان عبد الحفيظ رحمه الله تعالى، والمثبت هنا تقريظ لها.

الشرفاء، المتضلع بالعلوم النقلية والعقلية، والمتقدم في العلوم المرضية الشرعية، قدوة الأنام، ومصباح الظلام، شيخنا ووالدنا: أبي الفيض مولانا جعفر الكتاني، منحنا الله بجاههما دار التهاني.

فحبانا - حفظه الله تعالى وأدام عليه نعمة تتوالى- بهذه الرسالة الجامعة، والنصيحة النافعة، التي يحق لها أن تكتب بماء الذهب على صفحات القلوب، ويسارع إلى اقتنائها وقبولها من أراد تطهير صحائفه من أوساخ الذنوب، وكفاه شرفا وفضلا، ودليلا على ما قام به من جميل الأوصاف وتحلى؛ قيام سيادته بهذا الواجب على الأعيان، سيما في مثلِ هذه الأزمان، ولا غرو في ذلك، فإنه الجدير بما هنالك، وكيف يستغرب وجود الدر من معدنه، والفضل في موطنه؟!.

فالله يجازيه عن الإسلام وأهله، أفضل ما جازى به أحداً من فضله، ولعمري إن من وفق الله للخروج من ورطة هاتيك الفضائح، لجدير أن تتوالى عليه من الله تعالى الفتوحات والمنايح، وينال بسبب ذلك عند الله أفضل المتاجر والمرابح، وفقنا الله لما فيه رضاه، وأرشدنا لاتباع شريعة خير خلقه وهداه.

وللحرص على عموم نفعها، رغب سيدنا المؤلف -حفظه الله- في طبعها، فتسابق إلى ذلك الشريفان الجليلان، الماجدان النبيلان الفقيه سيدي محمد التبر، ومولاي علي التلمساني، أنالهما الله جميع الأماني، وقد بذلت الجهد في تصحيحها بقدر الاستطاعة، ولم آل في موافقة الفرع للأصل، وإن كنت مزجى البضاعة، ثم بعد الطبع نظرت فيها ثانيا، فوجدت ما أوجب أن أكون لعنان بيان الصواب ثانيا، وقد نبهت على ذلك بعد هذا، ليكون لقارئها عند الالتباس ملاذا.

وكان هذا الطبع الفائق، على هذا الشكل الرائق، بحضرة فاس، العاطرة الأنفاس، في ظل الإمام الذي تعطرت الأفواه بثنائه، والبدر الذي يقصر البدن عن مضاهاة سنائه، جامع كلمة الإسلام بعد شتاتها، ومحيي رسوم الخلافة بعد مواتها؛ سلطان العلماء وعالم السلاطين، المحفوظ -إن شاء الله تعالى- من نزعات الشياطين، من ألقى إليه هذا القطر

المغربي الرَّسَنْ، أمير المؤمنين مولانا عبد الحفيظ ابن مولانا الحسن، أدام الله تعالى صعوده، ووالى عليه سعوده، وأشاد بنوده، وأعز جنوده، وأحييْ به سنة جده عليه الصلاة والسلام، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلىٰ الدوام، بالنبي وآله، والبخاري ورجاله.

ولما تم طبعه على أحسن وصف، في العشرين من شعبان عام ستة وثلاثمائة وألف، أرخته بهذه الأبيات من بحر الطويل، على حسب ما سمح به الذهن الفاتر العليل:

كتاب تبدىً نوره فاكتسى الدجا	ضياءَ سناه، دونه الشمس ضاحيهْ
أبان طريق الحق صادقُ فجره	وأرشد من يقفوه في كل ناحية
تبدت معانيهِ لكل مطالع	كما أحكم الشيخُ الإمامُ مبانيَهْ
فلو نظر الأعمى إليه اهتدى به	وأبصر ما لم تستطعه اليمامية
عليك به يا صاحب الحزم واقتفي	جلالته، فالله يرشد قافيه
فما هو إلا جنة فاح عَرْفُها	قطوفُ جناها اليانع الغضِّ دانية
تفجرت الأنهار فيها بما تشا	وما في مغانيها -وحقِّك- لاغية
جزى الله عنا بالذي هو أهله	مؤلفه في سره والعلانية
وأبقاه للإسلام يحمي جنابه	ويحرسه من كل باغ وباغيه
وأرشد للخيرات من كان طبعه	بهمته حتى غدا متناهيه
وتاريخ هذا الطبع ينشد دونكم:	أويل المعالي، ذي النصائح كافية[1]

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم.

---

(١) مجموع حروف الشطر الأخير بحساب الجُمَّل = ١٣٢٦ . وهو تاريخ طباعة الكتاب.

نصيحة أهل الإسلام بما يرفع عنهم داء الكفرة اللئام

المسمَّى:

«الدين الخالص»

تأليف

شيخ الإسلام الإمام الحافظ الشريف

أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الحسني



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

مقدمة
النصيحة رأس الدين وأساس الإسلام

أحمد الله الذي لا إله إلا هو حق حمده، وأصلي وأسلم على سيدنا ومولانا محمد نبيه ورسوله وعبده، وعلى آله وأصحابه ليوث الورى وأُسْدِ الله وجُنْدِه، ومن تلاهم بالنصح العام والانتصار لملة الإسلام إلى يوم لقاء الله ورِفْدِه.

أما بعد: فهذه -إن شاء الله تعالى- **نصيحة أهل الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها الخاص منهم والعام، فيما عرض لهم في هذا الوقت من داء الكفرة اللئام، أعداء الله تعالى وأعداء رسوله عليه الصلاة والسلام**، نصيحة مختصرة جامعة، موفية بالمقصود نافعة، مؤدية للحق المفترض، قائمة ببيان السبب في البلاء الذي عرض، معلنة بما فيه الشفاء والعلاج، مظهرة لما يحصل به السرور والابتهاج، راجيا بها من الله تعالى جزيل الأجر والثواب، طالبا منه سبحانه أن يحصل إليه الرجوع والإياب، فإنه على ذلك قدير، وبالإجابة له حقيق وجدير، آمين.

وقد أخبر الحق تعالى في كتابه، بما يبعث على القيام بوظيفة النصح لعلي جنابه، وهو: حصول النفع به للمسلمين، فقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، فالنفع به -والحمد لله- لا محالة حاصل، وإن لم يحصل للكل حصل لأهل التقوى والخشية الأماثل، فإن التقي - كما قيل- ذو نُهى، إذا نُهي انتهى، وإذا أُمر ائتمر، وإذا ذُكِّرَ بالله ورسوله انفعل وتذكر، لقوة إيمانه، وشدة ثباته في الدين وإيقانه،

ولذا قال تعالى مخبرا عن مريم حين رأت جبريل عليهما السلام: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨]، وقال: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق: ٤٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾. [الأعلى: ٩-١٠].

ثم ذم من لا يقبل التذكرة ووصفه بالشقاوة، و أوعده بالنار الكبرى فقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١-١٣].

وذم أيضا من يأنف عنها ويتكبر عن سماعها، وأوعده بجهنم فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾. [البقرة: ٢٠٦].

ومن ثم حط أكابر الصحابة فمن دونهم من السلف الصالح وفضلاء الملوك والوزراء والرؤساء رؤوسهم ونفوسهم لمن يذكرهم بالله، أو يتلو عليهم آية من كتاب الله، أو يرفع لهم حديثا إلى المصطفى خير خلق الله، ولو كان المذكِّر أو التالي أو الرافع أصغر منهم سنا وقدرا، وأحط جاها ومكانة وفخرا، لعلمهم بعظمة المذكور، وأنه ممن تتصاغر عنده الجبال الشُّم وتلين له الصخور، وذلك لأن المذكِّر لم يذكرْهم بنفسه، ولا ذكر لهم شيئا عن جنابه وحسه، وإنما ذكر لهم كلام شديد القوى، أو رسوله الذي أخبر تعالى أنه لا ينطق عن الهوى.

وقد أخرج البيهقي في «الشعب» عن ابن مسعود مرفوعا: «إن أبغض الكلام إلى الله عز وجل أن يقول الرجل للرجل: اتق الله، فيقول: عليك بنفسك». وأخرج أيضاً عنه قال: «إن من أكبر الذنب عند الله أن يقول الرجل لأخيه: اتق الله، فيقول: عليك بنفسك، أنت تأمرني؟!». وأخرج أيضاً عن سفيان قال: قال رجل لمالك بن مغول: اتق الله. فوضع خده على الأرض تواضعاً لله.

وأخرج أحمد في «الزهد» عن الحسن، أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: اتق الله، فذهب الرجل، فقال عمر: وما فينا خير إن لم نقبلها، وما فيهم خير إن لم يقولوها لنا.

وأخرج ابن المنذر عن سلمان بن حبيب المحاربي قال: من وجد للذكرى في قلبه موقعا فليعلم أنه مؤمن، قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فهنيئا لمن وفقه الله تعالى لقبول النصائح، وجعله أهلا للتمسك بهاتيك المنائح، وشكر مهديها إليه الشكر العظيم، وجازاه عليها الجزاء العميم، ووالله ثم والله إنه السعيد حقا، الحائز لكل الكمالات صدقا، إذ ذلك عنوان صلاحه، وأدل دليل على توفيقه وهدايته ورشده وفلاحه، وفقنا الله تعالى للقبول، وأنعم علينا بجميع المنى والسول، وكفانا شؤم أنفسنا، ووقانا شر خواطرنا وهواجسنا، آمين.

العلماء والأبرار الأتقياء حراس الشريعة:

وقد جعل الله تعالى العلماء والأبرار والأتقياء، حُرَّاسا لشريعة سيد الرسل وخاتم الأنبياء، حافظين لها من التبديل والتغيير، قائمين على من يريد شَيْنَها بالتهويل والتنفير، فهم حماة هذا الدين، والسلاح على أعداء الله المعتدين.

قال عليه الصلاة والسلام: «يحمل هذا الدين من كل خَلَفٍ عُدُولُه، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين». خرجه غير واحد عن جماعة من الصحابة، وقال سيدي رضوان بن عبد الله الجَنَوِي[1] رضي الله عنه: «نحن إن شاء الله تعالى حراس الشريعة ومن الحافظين لها ما استطعنا» وأنشد:

فنحن كِلاَبُ الدار طبعا ولم نزل ... نُحب مَواليها ونحرسُ بابها

نُسِبْنَا لهم إذ كانوا أهل عناية ... فإن كرام العُرْبِ تحمي كِلابها

إذا طُرِدَتْ يوما كِلاب قبيلة ... فقومي كرام لا تُهين كِلابها

وأخذ تبارك وتعالى أيضا الميثاق والعهد على أهل العلم أن يبينوه للناس ولا يكتموه فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن معاذ بن جبل مرفوعا: «إذا ظهرت البدع، ولعن آخر هذه الأمة أولها؛ فمن كان عنده علم فلينشره، فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد»، وأخرج الديلمي في «مسند الفردوس» عنه أيضا مرفوعا: «إذا ظهرت البدع في أمتي، وشُتِمَ أصحابي؛ فليظهر العالم علمه، فإن لم يفعل فعليه لعنة الله».

---

(١) هو الإمام شيخ الإسلام رضوان بن عبد الله الجنوي الفاسي.

وهذا بمعنى ما تقرر، وشاع وتكرر، من أن العالم سيفه لسانه، وأنه رمحه الذي به طعنه وبيانه، وأنه إذا ظهرت البدعة وسكت مع قدرته وإغنائه؛ فعليه لعنة الله وأوليائه، وأورده بعضهم حديثا مرفوعا بلفظ: «إذا ظهرت البدع، وسكت العالم؛ فعليه لعنة الله»، وأخرج أبو نعيم في حليته وغيره، عن ابن عباس مرفوعا: «من أدى إلى أمتي حديثا لتقام به سنة أو تثلم به بدعة؛ فله الجنة».

وجوب النصيحة على المسلمين:

وأوجب عليهم أيضا النصيحة الخاصة والعامة، وجعلها من دعائم الدين، وكمال الاستقامة، ففي «صحيح» مسلم وغيره عن تميم الداري مرفوعا: «إن الدين النصيحة» قالها ثلاثا، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأيمة المسلمين وعامتهم»، **وهو حديث عظيم الشان، وعليه مدار الدين والإيمان، ولا يصح ما قيل: إنه أحد أرباع الإسلام، بل المدار عليه وحده.**

وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أبايعك على الإسلام، فشرط علي: «والنصح لكل مسلم»، فبايعته على ذلك، وأخرج أحمد عن أبي أمامة مرفوعا: «قال الله عز وجل: أحب ما تعبد لي به عبدي: النصح». وأخرج ابن النجار عن جابر مرفوعا: «المؤمن أخو المؤمن لا يدع نصحيته على كل حال».

وأخرج الطبراني عن حذيفة بن اليمان مرفوعا: «من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يصبح ويمس ناصحا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم»، وأخرج عبد الرزاق و الخليلي في «الأربعين» عن أنس رفعه: «المؤمنون بعضهم لبعض نَصَحَة وادُّون وإن افترقت منازلهم وأبدانهم، والفجرة بعضهم لبعض غششة متخاذلون وإن اجتمعت منازلهم وأبدانهم».

وأخرج الدارقطني في «الأفراد» والديلمي عن علي مرفوعا: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما محض أخاه النصيحة، فإذا حاد عن ذلك سُلب التوفيق»، وأخرج الديلمي في «مسند الفردوس» عن أنس رفعه: «السلطان ظل الله ورمحه في الأرض،

فمن نصحه ودعا له اهتدى، ومن دعا عليه ولم ينصحه ضل».

وقالوا: النصيحة رأس الدين وأساس الإسلام، ولها بعثت الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن لا نصيحة له لا دين له، والناصح مشفق محب، وغيره غاش مبغض.

وفي الحكمة: « ودك من نصحك، وقلاك من مشى في هواك»، وفيها أيضا: «من نصحك فقد أحبك، ومن داهنك فقد غشك».

وعن عمر رضي الله عنه قال: « لا خير في قوم ليسوا بناصحين، ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين» ودخل عليه مرة حذيفة بن اليمان فرآه مهموما حزينا فقال: ما أهمك يا أمير المؤمنين؟، فقال: «أخاف أن أقع في منكر فلا ينهاني أحد منكم تعظيما لي» فقال حذيفة: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك، فإن لم تنته ضربناك بالسيف. ففرح عمر وقال: «الحمد لله الذي جعل لي بأصحابي يقومونني إذا اعوججت» وفي رواية أخرى أنه قال: « من رأى في اعوجاجا فليذكر لي ذلك»، فقام إليه بلال أو سلمان أو هما أو غيرهما من الصحابة، فقال: لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا. فقال: «الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من إذا رأى في اعوجاجا قومني بسيفه». والمؤمن -يا عباد الله تعالى- أخو المؤمن، ومرآته، ولأخيه المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وهو من أهل الإيمان، بمنزلة الرأس من الجسد، فيألم لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس، والمؤمنون كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، كما يأتي كل ذلك قريبا إن شاء الله تعالى في أحاديث متفرقة.

هجوم أعداء الله تعالى على الأقطار الإسلامية:

وإنه -يا أمة سيدنا محمد ﷺ- قد نزل بنا من قِبَل أعداء الله تعالى، وأعداء رسوله ﷺ، وأعدائنا؛ما هو غير خاف عليكم، بل هو معلوم بالتواتر والعيان لديكم، فإنهم -دمرهم الله- قاموا على ساق الجد والاجتهاد، في أخذ الأهبة والاستعداد، وقصدوابلاد المسلمين في كل جهة، وانتحوا نحوها على كل وجهة، لا يرون فرصة في الإسلام إلا انتهزوها، ولا شاردة فيه إلا أخذوها واقتنصوها، ولا حكومة ضعيفة إسلامية ليس لها

حام إلا محوها وضبطوها، ولا حيلة أو خديعة تضر بالمسلمين، وتوهن قواهم إلا أجروها وفعلوها، ولا طائفة من جهلة المؤمنين أمكنهم إدخالها في التنصر إلا نصروها وكفروها، ولا طريق تنتهي إلى معادن الثروة ومنابع الغنى إلا سلكوها، لا يقفون في ذلك عند حد، ولا ينتهون فيه إلى عد.

حتى إن الأمة الإسلامية التي كانت متركبة من ثلاثمائة مليون نفس تركيبا؛ لم يبق منها الآن على حال الحرية والاستقلال إلا نحو من الثلث تقريبا(١)، والباقون قد ألجأهم اشتغالهم بما يوهن قواهم، واتباعهم لحال نفوسهم وهواهم، أو مجرد ضعف دينهم، وقلة إيمانهم ويقينهم، إلى تجرع كاسات الذل والهوان والصغار، بالدخول تحت أسر أعداء الله الكفار.

التحذير من احتلال المغرب الأقصى:

وقد كان هذا المغرب الأقصى قبل هذا الأوان في عزة عظيمة، وسطوة كبيرة، وقوة منعة ورفعة سلطان، والآن قد وجهوا وُجَهَ التوجهات بسياستهم الكفرية إليه، وقصدوا نحوه من كل جهة وخيموا عليه، طامعين في الأنفس والبلاد، قاصدين الاستيلاء على ما فيه من الأموال والأهل والأولاد، عامدين إلى إظهار الخمر والخنزير والصليب، والتحكم في الشريف والمشروف والأمير والمأمور والبعيد والقريب، عازمين على إطفاء نور الإسلام، واستئصال أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ويأبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]. ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [التوبة: ٤٦].

كيف وأهل الإسلام -والحمد لله ببلادنا وغيرها- لا يحصون كثرة وعددا، ونور الإسلام في قلوبهم يربو أبدا، والأموال والخيول والأسلحة متيسرة، والقوة حاصلة

(١) أما الآن فهم مليار وربع ولم يكد يبقى أحد منهم حراً البتة.

وليست متعذرة، فكيف معها نتحمل الذل والهوان، ونخضع لعبدة الصلبان؟!، أو نجعل لهم السبيل إلينا، ونرضى بظهور كلمتهم وبولايتهم علينا؟! كلا؛ والله لا يرضى بهذا ذو همة دنية، فضلا عن أرباب الهمم العلية.

العاقل من يتوقع الحوادث قبل وقوعها:

والعاقل -يا أيتها الأمة المباركة- من مَثَّلَ في نفسه الشدائد قبل نزولها، واستعد للمصائب قبل حلولها، وقام على ساق الجد و الاجتهاد، في نصرة دين رب الخلائق والعباد، وصان دينه ونفسه ومهجته، وباعد من عباد الصليب وأهل الفسق والطغيان عوالمه كلها وجملته، وقد قيل:

يُمَثِّلُ ذو اللُّب في عقله ... شدائدَ مِن قبل أن تَنْزِلا
فإن نزلت بغتة لم ترُعْه ... لِمَا كان في نَفْسِه مثَّلا
رأى الأمر يُفْضِي إلى آخر ... فَصَيَّر آخره أولا
وذو الجهل يأمن أيامه ... وينسى مصارع من قد خلا
فإن دَهَمَتْهُ صروف الزمان ... ببعض مصائبه عولا
ولو قدم الحزم في نفسه ... لَعَلَّمَهُ الصبرَ عندَ البَلا

أعظم مصيبة هي مصيبة الدين:

ولا مصيبة -يا عباد الله- أعظم من مصيبة الدين، إذ هي أشد من الجذام والبرص والجنون وفقد المال والأهل والبنين، ومن أصيب في دينه فهو المصاب على التحقيق، ومن خذل في إيمانه فهو المخذول عند ذوي التوفيق.

لذلك ورد في الحديث: «لن يبتلى عبد بشيء -يعني: من البلاء- أشد من الشرك». أخرجه البزار عن حذيفة مرفوعا، وفي التنزيل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨] وفيه ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا . تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ [مريم: ٨٩-٩١].

ومن المتقرر المعلوم لدى كل أحد من خاصة الدين وعامته: أنه لا رذيلة أقبح من رذيلة الكفر وطريقته، أعاذنا الله منهما بمنه، وإن فسادهما لا يعدله في الدنيا فساد، لجرهما إلى بث الشرك والتثليث، ونسخ كلمة التوحيد، ومحق أثر قائلها من الأرض والبلاد.

الدين أحد الكليات الخمس:

ومن المتقرر أيضا: أن الدين هو أحد الكليات الخمس التي أجمع العقلاء وأهل الملل على وجوب حفظها، والدفاع عن ساحتها، وعلى أنه أعظمها جلالة وحرمة، وأولاها صيانة وكرامة وعصمة، كيف ولا نجاة في العقبى إلا به، ولا حياة حقيقية في الدنيا إلا بسببه، وهو النعمة التي تغني عن غيرها من سائر النعم، ولا يغني غيرها عنها وإن كثر وعم، ولم ينعم الحق تبارك وتعالى على عبده بنعمة أعظم من نعمة الإيمان والإسلام، ولا امتن عليه بشيء أولى من منة الدخول في أمة حبيبه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام؟! فإنها أساس السلامات وأصل جميع الخيرات والكرامات.

أما السلامات: فبها تكون -إن شاء الله تعالى- النجاة من أهوال الموت والقبر والحشر والقيامة، ومن الطرد والبعد والغضب وكل بلية خاصة وعامة.

وأما الكرامات: فبها -بفضل الله- ينال الروح والريحان وجنة النعيم، ويتمتع بالنظر فيها إلى وجه الله الكريم، وقد سمع المصطفى ﷺ من يقول: الحمد لله على نعمة الإيمان، فقال: «إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة»، وقيل: لا كلمة أحب إلى الله ولا أعظم عنده شكرا من قول العبد: الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا للإسلام.

وقد قال الخليل: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ١٠١]، وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال أصحاب موسى: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

ولا شيء أعز عند المؤمن من هذه النعمة العظيمة، والمنة الجسيمة الفخيمة، عرفنا الله قدرها، وأظهر علينا فضلها وعزها وفخرها، وأهّلنا للقيام بحقها وشديد الضنين عليها والذب عن ساحتها، والقيام على ساق الجد في حياطة عزتها.

ورحم الله عبدا مؤمنا جعل الله بيده شيئا من أمور المسلمين؛ فبادر لحسم مواد الكفر وأسباب العطب والفساد، وعجل بتدارك هذا الأمر العظيم الذي نزل بنا قبل البعاد، فإن السيل قد بلغ الزُّبا، والغاية قد حصلت والناس على شفا، وأرواحهم إلى الحلقوم وصلت، والغرق قد كاد، والاستئصال باد، **والقائم بذلك -خصوصا في هذا الزمان- له من الفضل والخير والأجر ما لا يقدر قدره إلا المنان، ويحشر يوم القيامة مع النبيئين والمرسلين، ويكتب في زمرة الصديقين والشهداء والصالحين، ويعلو بين الأنام قدره، ويمتاز على كل ذي فخار في الدنيا والآخرة فَخْرُه.**

وفقنا الله لصالح الأعمال، وألهمنا رشدنا في جميع الأحوال، وتداركنا بألطافه، وأسبل علينا أردية حلمه وإسعافه، بمنه وكرمه، وجوده وحرمه، آمين.

أسباب العطب والاختلال والانحطاط لدى المسلمين:

المبحث الأول

اختلاف كلمة أهل الإسلام

وليعلم أن مواد العطب والإختلال لدينا كثيرة، وأسباب الشر وتبدل الأحوال بنادينا جمة شهيرة، منها - وهو المبحث الأول من أبحاث هذه النصيحة، وهي أحد عشر، وما قبلها كالمقدمة، وما بعدها كالخاتمة، والتتمة: اختلاف كلمة أهل الإسلام، وعدم حصول الألفة بينهم والالتئام، وتنازعهم وتنافرهم وتخاذلهم وتناثرهم، وتفرق جماعتهم وتناكر قلوبهم وأفئدتهم، وإعراض بعضهم عن بعض، وعدم رجوع بعضهم إلى بعض حتى في إقامة الدين، ومحاربة من أمر الله بمحاربته من المعتدين، وحتى إن المؤمن الكامل منهم لا يكاد يجد له على نصرة الدين وإقامة شعائره ظهيرا ولا معينا، وإنما يجد من يخذله فيه خذلانا مبينا.

مع أن الله تعالى جعلهم أخوة في الدين والإسلام، رحماء أذلة بينهم أشداء أعزة على الكفرة اللئام، وأمرهم بالاعتصام جميعا بحبله، والتآلف وكل ما يجر لنيله، ونهاهم عن التفرق والتشتت والتنازع والاختلاف، وحذرهم من كل ما يؤدي إلى التباغض والتقاطع والإعتساف.

وأمرهم أيضا على لسان أشرف خلقه سيدنا محمد ﷺ أن يكونوا كالبنيان المرصوص، وكالجسد الواحد المخصوص، وأن يتعاضدوا ويتناصروا، ويتعاونوا ويتكاثروا، ويكونوا على من سواهم من أهل الأديان الباطلة يدا واحدة، وجماعة ملتئمة متحدة، حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وحتى يكون الإسلام عاليا غير معلى عليه، والكفر منحطا تجري أسباب الذل والصغار إليه،

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، أي: يجمعهم دين واحد وكلمة واحدة، وهي كلمة التقوى: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

الأخوة الدينية أعظم وأوثق وأشد من أخوة الدم:

قال العلماء: والأخوة الدينية أعظم وأوثق وأشد من الحقيقية، لأن ثمرة الثانية دنيوية، والأولى أخروية، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾ [:] أي: شدة، وقال: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [التوبة: ٧٣] وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣]، قال بعضهم: «ظاهر هذه الآية العموم وأن ائتلاف قلوب المؤمنين من أسباب النصر التي أيد الله بها رسوله ﷺ»، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ -أي: تختلفوا- فَتَفْشَلُوا۟ -أي: تضعفوا وتجبنوا عن عدوكم- وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ﴾ [الأنفال: ٤٦] أي: قوتكم ووحدتكم، وقيل: نصركم، وقيل: دولتكم، وقيل: حربكم.

وأخرج الطبراني في «الكبير» عن حبيب بن خراش مرفوعا: «المسلمون أخوة». وأخرج أحمد عن سويد بن الحنظلية مرفوعاً: «المسلم أخو المسلم»، وأخرج أيضا والبخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة مرفوعا: «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه».

وأخرج مسلم عنه أيضا مرفوعا: « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات)، بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه».

وأخرج مالك في «الموطأ» والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم عن أنس مرفوعا: « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»، قال مالك: «لا أحسب التدابر إلا الإعراض عن أخيك المسلم، تدبر عنه بوجهك»، وقال القرطبي، في معنى قوله: «وكونوا عباد الله إخوانا». «اكتسبوا ما تصيرون به كإخوان النسب في الشفقة والرحمة والمحبة والمواساة والمعاونة والنصيحة»، وقال النووي: « أي: تعاملوا وتعاشروا معاملة الأخوة ومعاشرتهم في المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير ونحو ذلك، مع صفاء القلوب والنصيحة لكل أحد».

وأخرجوا أيضا عن أبي هريرة مرفوعا: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»، زاد مسلم في رواية: « كما أمركم الله»، وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «التقوى» عن رجل من بني سليط قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يقول: «المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يظلمه، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا»، وأومأ بيده إلى صدره. وأخرج الطبراني في «الكبير» عن ابن عمر مرفوعا: «إن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يسلمه في مصيبة نزلت به»... الحديث.

وأخرج أبو نعيم عن أبى بن كعب قال: خرج قوم يريدون سفرا فأضلوا الطريق فعاينوا الموت أو كادوا، فلبسوا أكفانهم وانضجعوا للموت، فخرج جني من خلال الشجر وقال: أنا بقية النفر الذين استمعوا القرآن على محمد سمعته يقول: «المؤمن أخو المؤمن لا يخذله» هذا الماء وهذا الطريق.

وأخرج الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي موسى مرفوعا: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» ثم شبك بين أصابعه.

وأخرج أحمد عن سهل بن سعد مرفوعا: «المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس». وأخرج أيضا

ومسلم عن النعمان بن بشير مرفوعا: «المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه اشتكى كله، وإن اشتكى عينه اشتكى كله»، وأخرج أيضا والشيخان عنه أيضا مرفوعا: «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وأخرج أيضا وأبو داود وابن ماجه وغيرهم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم». وأخرج أيضا والنسائي والحاكم في «المستدرك» وصححه عن علي مرفوعا: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم»، الحديث.

وأخرج ابن ماجه والطبراني في «الكبير»عن معقل بن يسار مرفوعا: «المسلمون يد على من سواهم تتكافأ دماؤهم».

ومعنى كونهم يدا على من سواهم: أنهم جماعة واحدة يتعاونون على أعدائهم من أهل الملل، ولا يسعهم التخاذل، وقيل معناه: إنهم مع كثرتهم قد جمعتهم أخوة الإسلام وجعلتهم في وجوب الاتفاق بينهم تعاونا وتعاضدا على من آذاهم أو عاداهم كيد واحدة، فيجب أن ينصر كُلٌّ أخاه على من آذاه أو عاداه.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، إن القوة: اتفاق الكلمة، وفي قوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، إنها: التنازع والاختلاف، وفي قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، إنها: افتراق الكلمة، حكاه في «الكشاف».

وقال الخازن: قال ابن زيد: «أراد بالفتنة: افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضا».

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «ولن تُغْلَبَ اثنا عشر ألفا من قلة»، إن معناه: «إذا اجتمعت كلمتهم» وبوب البخاري: باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب.

ثم أورد في الترجمة حديث أبي موسى أنه عليه السلام بعثه ومعاذا إلى اليمن وقال: «يَسِّرَا ولا تُعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا»، وحديث البراء في قصة غزوة أحد، وفيه أنه: صرفت وجوه المسلمين وأقبلوا منهزمين بسبب مخالفتهم لقول رسول الله ﷺ: «لا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم».

وفي «عمدة القاري»: «الاختلاف سبب الهلاك في الدنيا والآخرة، لأن الله عز وجل قد عبر في كتابه بالخلاف الذي قضى به على عباده عن الهلاك في قوله: ﴿ولو شاء الله ما اختلفوا﴾ ثم قال: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، يعني: ليكونوا فريقين: فريقا: في الجنة وفريقا في السعير، من أجل اختلافهم». اهـ.

وفي حديث وفد بني الحارث بن كعب أنه عليه الصلاة والسلام قال لهم: «بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية» فقالوا له: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحدا بظلم، فقال: «صدقتم». ذكره في «المواهب» وغيرها.

وأخرج ابن شاهين في «الصحابة»: أنه عليه السلام قال لهم: «ما الذي تغلبون به الناس وتقهرونهم ؟» قالوا: لم نَقِلَّ فنذل، ولم نكثر فنتحاسد ونتخاذل، ونجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحدا بظلم، ونصبر عند البأس، قال: «صدقتم».

وأخرج العجلي في فوائده، وأبو نعيم، والرافعي في «تاريخ قزوين» عن أنس مرفوعا: «أتاني جبريل فقال: يا محمد؛ الإسلام عشرة أسهم، وخاب من لا سهم له، أولها كذا، ثم قال: والتاسع: الجماعة». وهي: الألفة... الحديث، ونحوه في حديث الطبراني عن ابن عباس.

وأخرج أحمد عن سعد مرفوعا: «أذهبتم من عندي جميعا وجئتم متفرقين ؟، إنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف». وأخرج أحمد ومسلم والبيهقي عن أبي هريرة رفعه: «إن الله يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وأخرج أحمد عن أبي ذر مرفوعا: «اثنان خير من واحد، وثلاثة خير من اثنين، وأربعة خير من ثلاثة. فعليكم بالجماعة، فإن الله لم يجمع أمتي إلا على هدى»، وأخرج الطبراني في «الكبير»، والسجزي في «الإبانة» عن معاذ مرفوعا: «الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ الشاة الشاذة والقاصية والناحية، فعليكم بالجماعة والألفة والعامة والمساجد، وإياكم والشعاب».

وأخرج أحمد في مسنده عن رجل مرفوعا: «أيها الناس عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة» وأخرج الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس مرفوعا: « من عمل لله في الجماعة فأصاب؛ قبل الله تعالى منه، وإن أخطأ غفر الله له، ومن يبتغي الفرقة فأصاب؛ لم يتقبل الله منه، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار»، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، قال: «أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله».

وأخرج ابن جرير عن الربيع في قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، قال: «هم أهل الكتاب، نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا ويختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب»، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم في قوله تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] قال: «إذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعة وظهورا على عدوهم غاظهم ذلك وساءهم، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافا، أو أصيب طرف من أطراف المسلمين، سرهم ذلك وابتهجوا به».

وأخرج الترمذي والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عمر مرفوعا: «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة، يد الله (أي: حفظه وكلاءته) على الجماعة، ومن شذ شذ في النار» وأخرجا أيضا عن ابن عباس مرفوعا: «لا يجمع الله أمتي- أو قال: هذه الأمة- على الضلالة أبدا، ويد الله على الجماعة».

قال العلماء رضي الله عنهم: **والمراد بالجماعة ها هنا: من كان على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من اتباع طريق الهدى والحق ولو واحدا.**

وأخرج النسائي وابن حبان في صحيحه عن عَرْفَجَةَ مرفوعا: «ستكون بعدى هناة وهناة، فمن رأيتموه فارق الجماعة، أو يريد أن يفرق أمر أمة محمد، كائنا من كان؛ فاقتلوه، فإن يد الله على الجماعة، وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض».

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائده بإسناد قال المنذري: لا بأس به، عن النعمان بن بشير مرفوعا: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب»، وأورد آخره في الجامع من قوله: «الجماعة رحمة» وعزاه لعبد الله المذكور والقضاعي، قال في «التيسير» عقب قوله: «والفرقة عذاب»: «لأنه تعالى جمع المؤمنين على معرفة واحدة وشريعة واحدة ليألف بعضهم بعضا، ليكونوا كرجُل واحد على عدوهم، فمن انفرد عن حزب الرحمان؛ انفرد به الشيطان، فأضله وأغواه، وأوقعه في عذاب الله».

وأخرج ابن جرير في تفسيره: حدثني يعقوب حدثنا ابن علية أخبرنا ابن عون عن عمير بن إسحاق قال: كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس، أو قال عن الناس: الألفة، وأخرج الطبراني في «الأوسط» عن عمر مرفوعا: «ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها». وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، قال: «يقول لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم». وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] قال: «نصركم». وقد ذهبت ريح أصحاب سيدنا محمد ﷺ حين نازعوه يوم أحد.

ويقال: إذا اجتمع القوم كانوا كالحزمة من السهام، لا يستطاع كسرها جملة، فإذا تفرقت سهل كسرها سهما سهما، ويحكى عن المهلب بن أبي صفرة أنه أحضر أولاده فأوصاهم، وأحضر سهاما وأمر بحزمها فحزمت، ثم قال: أتكسرونها مجتمعة؟، قالوا: لا، قال فتكسرونها متفرقة؟، قالوا: نعم، قال: فهكذا الجماعة.

ويحكى أيضا أن الإسكندر لما هاله أمر الفرس استشار في ذلك أرسطو، فأشار عليه بتفريق ممالكهم، وتوزيعها على عدة ملوك ليختل انتظام أمرهم، ففعل الإسكندر ذلك، وملك عليهم عشرين ملكا، فأنتج ذلك اختلال ملكهم حتى إنهم لم ترفع لهم بسبب ذلك راية نحوا من خمسمائة عام واثني عشر عاما.

ويقال: الفرقة سبب هلاك كل فرقة، وفي المثل: لولا الوئام لهلك الأنام، أي: لولاموافقة الناس بعضهم بعضا والتئامهم لهلكوا. وفي «الأماني» للشاطبي:

وقل صادقا: لولا الوئام وروحه لطاح الأنام الكلُّ في الخُلْف والقِلى

أي: لولا الموافقة لهلك الأنام في الاختلاف والتباغض، قال بعض شراحه: «وأشار بهذا البيت لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم».

ولهذا عدوا من أنواع المكايد في الحروب التي يتأكد الاعتناء بها: السعي في تفريق كلمة العدو بالمال وغيره من الوجوه الممكنة، فإنه إذا تفرقت كلمتهم دخلهم الخلل، وضاع عليهم ما جمعوه من الجموع، واستعملوه من الحيل.

ومن تصفح التواريخ والأخبار، وسبر أحوال الأمم السالفة بعين الاعتبار، علم أن جميع الملل والأقوام، في الجاهلية والإسلام، ما نالت السعادة والعزة والشرف، وانتصرت على أعدائها إلا بالائتلاف والاتفاق، ولا باءت بالذل والهوان، وأهلكتها صروف الدهر، وذهبت عنها ريح النصر، إلا بالشقاق والافتراق، والميل إلى الفساد والنفاق.

دور النصارى في تحريك أسباب الخلاف بين المسلمين:

واعلم أيضا: أن النصارى دمرهم الله، لم يدركوا في المسلمين ثارا، ولم يدفعوا عن أنفسهم عارا، ولم يخربوا من البلاد الإسلامية منازل وديارا، ولم يستولوا عليها بلاد جامعة وأمصارا؛ إلا بعد تحريكهم بين المسلمين أسباب الخلاف، واجتهادهم في حصول التفرقة بين المؤمنين والاختلاف، وأنه مهما كانت كلمتهم مؤتلفة، وأهواؤهم لا مفترقة ولا مختلفة، فلا سبيل لأحد من أهل الملل عليهم، ولا يطمع

في توصيل شيء من المكايد إليهم.

وقد دل الاستقصاء لأحوالهم، والنظر إلى ما يصدر من أفعالهم، على أنه لا أمل لهم-قبحهم الله- إلا في التمرس بين الإسلام والمسلمين، وإعمال الحيلة على المؤمنين، وإضمار المكيدة للموحدين، واستبطان الخديعة للمجاهدين، ويظهرون مع ذلك أنهم ساعون للإسلام في العاقبة الحسنى، وأنهم منطوون لأهله على المقصد الأسنى، وأنهم مهتمون بمراعاة أمورهم، وناظرون بعين المصلحة لخاصتهم وجمهورهم.

وتبا لعقول تقبل منهم هذا المحال، وتصدق هذا الكذب بوجه أو حال، كيف وهم ممن يتدين بتخريب الإسلام، ويعتقد القربة العظيمة في إبادة أهله على الدوام؟!!.

ووالله ثم والله ما هم ساعون إلا في إذهاب أنوار الإيمان وإطفائها، وملتمسون إلا الحيلة في هلاك الأوطان وابتغائها، ولا يرجى منهم من الخير مثقال ذرة، ولا ينال من أحد منهم أبدا مبرة، وإنما ينال منهم الوبال الشديد وعظيم المضرة، وما لا يحصى من المغارم الثقيلة والأنكاد الطويلة والمعرة.

خيانة النصارى شروط معاهدة أهل الأندلس للإسبان:

وانظر فإنهم لما ضيقوا على أهل الأندلس، وضعف أهل الأندلس عنهم بعد حروب كثيرة، وحصار عظيم؛ أطاع أهل الأندلس بالدخول تحت أيالتهم وحكمهم بشروط اشترطوها عليهم، وهي نحو من خمسة وخمسين، وقيل سبعة وستين.

منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، وإقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم عليهم أحد إلا بها، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم، ولا يغصبوا أحدا، ومن أراد منهم الجواز للعَدْوَة[1] لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت

---

(١) المقصود: بَرُّ المغرب.

في مراكب السلطان، لا يلزمهم إلا الكراء، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء.

وأن لا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، ولا بسفر لجهة من الجهات، وأن لا يزيدوا على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدا من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنا في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب.

وأن يوافق على الشروط صاحب روما، ويضع خط يده وأمثال هذا مما ذكرناه، فأظهروا قبول تلك الشروط كلها، وأعطوهم بها كتبا وعهودا ومواثق، وبسطوا لهم جناح العدل، وأبدوا لهم العناية والاحترام، حتى كان النصارى يحسدونهم في ذلك ويقولون لهم: أنتم أعز وأكرم منا عند ملكنا. ووضعوا عنهم المغارم، حتى ثبطوا كثيرا من المسلمين عما وجب عليهم من الهجرة إلى دار الحاكم المسلم، ورجع كثير ممن كان قد هاجر رغبة في الوطن الذي جبل على حبه الإنسان.

فلما رأوا -دمرهم الله- أن الأمر قد تم لهم، وأن المسلمين قد دخلوا تحت عقد ذمتهم، وأنهم تمكنوا منهم؛ بدأ غدرهم، وأخذوا في نقض تلك الشروط التي اشترطها عليهم المسلمون أول مرة شرطا شرطا، وفصلا فصلا، إلى أن نقضوا جميعها وزالت حرمة المسلمين بالكلية، وأدركهم الهوان العظيم، والذلة الكبيرة، واستطال عليهم النصارى، وفرضوا عليهم المغارم الثقيلة، وقطعوا عليهم الآذان في الصوامع، وأمروهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض والقرى، فخرجوا أذلة صاغرين.

ثم بعد ذلك حملوا من كان نصرانيا فأسلم على الرجوع للنصرانية قهرا، ثم جعلوا يقولون للرجل المسلم: إن جدك كان نصرانيا فأسلَم، فترجع أنت أيضا نصرانيا، ثم حملوا جميع المسلمين على التنصر والدخول في دينهم، وترك شعائر الإسلام كلها

بالمرة، وسب المصطفى ﷺ، والذهاب معهم إلى الكنائس ونحوها من مواضع كفرهم، والتزين بزيهم، والتسمي بأسمائهم، والمصاهرة معهم. . . إلى غير ذلك مما لا يستطاع سماعه أو ذكره.

وأحرقوا لهم المصاحف وغيرها من الكتب الإسلامية، وألقوها في القاذورات والنجاسات، وذلك سنة أربع وتسعمائة، وامتنع من التنصر قوم فاستأصلوهم قتلا وسبيا إلا من نجاه الله عز وجل.

ثم بعد هذا جعل من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله خفية، ويصلي سرا، فشددوا في البحث عنهم، وحرقوا بالنار كثيرا منهم بسبب ذلك، وصارت الأندلس كلها دار كفر وهوان، ولم يبق فيها من يجهر بكلمة التوحيد والآذان، وجعلت في المساجد والمآذن النواقيس والصلبان، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون، لا راد لما قضاه المولى، ولا دافع لما أبرمه العلي الأعلى، سبحانه جل علاه، وتقدست صفاته وسماه.

راجع: «أزهار الرياض»، «ونفح الطيب»، لأبي العباس المقرى، فاعتبروا يا أولي الأبصار، واحذروا الثقة بأعداء الله الكفار.

وجوب نصرة المسلمين في كل مكان:

ثم إنهم لما نزل بهم هذا البلاء العظيم، والداء العضال الوخيم، كتبوا رسائل وقصائد تُبكي سامعها، إلى بعض ملوك البلاد، يستغيثون بهم على أهل الكفر والعناد، ويذكرون ما حل بهم من قبلهم من البلاء، وما فعلوه معهم من نقض الشروط وترك الوفاء، فما قاموا في ذلك بالواجب عليهم، ولا سعوا في قتال العدو وإخراجه من بينهم، جريا على ما به العادة في هذه الإعصار، من ترك المؤمنين نصرة إخوانهم مع الاقتدار، حتى أدى ذلك إلى استئصال الكفار، لكثير من القرى والأمصار، **مع أنه يجب بالكتاب والسنة والإجماع، موالاة المؤمنين بعضهم بعضا بالتعاضد والتناصر والتعاون والدفاع.**

أما الكتاب: فقال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. قال الخازن: «يعني: قاتلوا المشركين بأجمعكم مجتمعين على قتالهم كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة»، والمعنى: تعاونوا وتناصروا على قتالهم ولا تتخاذلوا، ولا تتدابروا ولا تفشلوا، ولا تجبنوا عن قتالهم، وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين في مقاتلة أعدائكم من المشركين»، وقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢]، أي: إن طلب منكم إخوانكم من المسلمين المعونة والنصرة في قتال المشركين فواجب عليكم أن تنصروهم.

وبالوجوب صرح غير واحد من المفسرين، كابن كثير والخطيب والنسفي والزمخشري والبيضاوي، وعن ابن جرير في تفسير قوله تعالى بعد هذا: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، قال: «أي: إلا تتعاونوا وتتناصروا». وقال غيره: «إلا تفعلوا ما أمرتم به من تولي بعضكم بعضا ونصر بعضكم لبعض؛ تحصل فتنة في الأرض، وهي: قوة الكفار، وفساد كبير، أي: مفسدة عظيمة، وهي: ضعف المسلمين»، قال النسفي والكشاف: «لأن المسلمين ما لم يصيروا يدا واحدة على الشرك؛ كان الشرك ظاهرا والفساد زائدا».

وقال غيرهما: «لأن المؤمنين إذا تركوا التناصر والتعاون فيما بينهم حتى يكونوا يدا واحدة على الكافرين؛ انحل نظامهم، واستولى الكافر على جميعهم، وذلك مفسد لدنياهم ودينهم».

وأما السنة: فأحاديث كثيرة؛ منها ما تقدم في حديث مسلم عن أبي هريرة من قوله فيه: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره» ومعنى: لا يخذله: لا يترك نصرته المشروعة، وإعانته المطلوبة، لا سيما مع الاحتياج أو الاضطرار إليها، لأن من حقوق أخوة الإسلام: التناصر.

وقد بوب النووي على هذا الحديث: «باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله»، ثم قال: «قال العلماء: الخذل: ترك الإعانة والنصرة، ومعناه: إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه، ولم يكن له عذر شرعي».

وما تقدم أيضا من حديث الطبراني في «الكبير» عن ابن عمر مرفوعا: «إن المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه في مصيبة نزلت به»، ونحوه حديث أحمد والشيخين وأبي داود والترمذي والنسائي عنه أيضا مرفوعا: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»، قال في «فتح الباري»: « أي: لا يتركه مع من يؤذيه، ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه». وفي «النهاية»: «يقال: أسلم فلان فلانا، إذا ألقاه إلى التهلكة، ولم يحمه من عدوه».

ومنها: حديث الباوردي وابن السكن وابن قانع عن الحارث بن شريح النميري مرفوعا: «المسلم أخو المسلم»... الحديث، وفيه: «وإذا استنصره على الأعداء نصره».

ومنها: ما تقدم في حديث أحمد وغيره عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وعن علي من قوله فيهما: «وهم يد على من سواهم»، وفي حديث ابن ماجه والطبراني في «الكبير» عن معقل بن يسار من قوله: «المسلمون يد على من سواهم»، قال في «النهاية»: «أي: هم مجتمعون على أعدائهم، لا يسعهم التخاذل، بل يعاون بعضهم بعضا على جميع الأديان والملل، كأنه جعل أيديهم يدا واحدة، وفعلهم فعلا واحدا».

وقال الخطابي: «اليد: المعاونة والمظاهرة، أي: إذا استنفروا واجب عليهم النفير، وإذا استنجدوا أنجدوا، ولم يتخاذلوا ولم يتخالفوا».

وما تقدم أيضا من حديث الشيخين عن أبي موسى مرفوعا: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»، ثم شبك بين أصابعه، وقد بوب عليه البخاري في كتاب: الأدب بقوله: «باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا».

ومنها ما أخرجه أحمد والبخاري والترمذي عن أنس مرفوعا: «أنصر أخاك ظالما أو مظلوما»، فقال رجل: يا رسول الله أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما؟، قال: «تمنعه من الظلم؛ فذلك نصرك إياه». وأخرج الدارمي وابن عساكر عن جابر مرفوعا: «أنصر

أخاك ظالما أو مظلوما»، قيل كيف ذلك؟، قال: «إن يك ظالما فاردده عن ظلمه، وإن يك مظلوما فانصره»، أي: أعنه على خصمه وخلصه منه.

وأخرج مسلم عن جابر مرفوعا في أثناء حديث قال: «ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما، إن كان ظالما فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلوما فلينصره»، وأخرج ابن عساكر عن أنس رفعه: «أعن أخاك ظالما أو مظلوما»، قلت: يا رسول الله: أعينه مظلوما فكيف أعينه ظالما؟. قال: «ترده إلى الحق؛ فذلك عون له».

وأخرج الديلمي عن ابن عباس مرفوعا: «لعن الله من رأى مظلوما فلم ينصره»، وأخرج أبو الشيخ في «كتاب التوبيخ» عن ابن مسعود مرفوعا: «أمر بعبد من عباد الله يضرب في قبره مائة جلدة، فلم يزل يسأل ويدعو حتى صارت جَلْدَة واحدة، فامتلأ قبره عليه نارا، فلما ارتفع عنه وأفاق قال: على ما جلدتموني؟ قالوا: إنك صليت صلاة بغير طهور، ومررت على مظلوم فلم تنصره».

وأخرج أيضا عن ابن عباس مرفوعا: «قال الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم يفعل»، وأخرج أحمد في مسنده بسند حسن عن سهل بن حنيف مرفوعا: «من أُذل عنده - قال في «التيسير» أي: بحضرته أو بعلمه- مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره؛ أذله الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة»، قال في «التيسير» عَقِبَهُ: «فخذلان المؤمن حرام شديد التحريم دنيويا كان؛ مثل أن يقدر على دفع عدو يريد أن يبطش به ولا يدفعه، أو دينيا؛ مثل أن يقدر على نصحه عن غيه بنحو وعظ فيترك».

وأخرج أحمد أيضا وأبو داود والضياء عن جابر وأبي طلحة بن سهل ورفعاه: «ما من امرىء، يخذل امرأ مسلما في موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته؛ إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته، وما من أحد ينصر مسلما في موطن ينتقص فيه من عرضه، أو ينتهك فيه من حرمته؛ إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته». قال الهيثمي: «وإسناد حديث جابر حسن»، والأحاديث في معنى هذا كثيرة، وفي دواوين الأيمة شهيرة.

وأما الإجماع: فأجمع الأئمة، وفضلاء هذه الأمة، على وجوب النصرة والإعانة، لمن حصل له من الكفار أو غيرهم نوع إهانة، وهو قادر عليها، ويمكنه التوجه بوجه ما إليها، ولا مخالف في ذلك بين المسلمين، ولا نزاع فيه من أحد من الموحدين.

وقد أخرج أبو الشيخ عن سليمان بن موسى قال: «وجبت نصرة المسلمين على كل مسلم لدخوله في البيعة التي اشترى الله بها من المؤمنين أنفسهم»، يعني في قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التوبة: ١١١]، الآية، نقله في «الدر المنثور».

وجوب الجهاد إذا نزل العدو بأرض الإسلام:

وقال الفقهاء والعلماء: إذا نزل العدو بأرض الإسلام أو قريبا منها مريدا الدخول إليها؛ فإن الجهاد يتعين على أهلها وعلى إمامهم، شيوخا وشبابا، أحرارا وعبيدا، بل ولو على النساء إن كانت لهن قوة، ولا يتوقف قتالهم للعدو النازل بهم على مشورة الإمام، ولا على إذنه، لا سيما إن بعد منهم.

فإن لم يقدر أهل تلك البلدة على مقاومة العدو؛ تعين على أقرب الأيمة، والناس عليهم أن يعينوهم؛ فإن لم تكن فيهم كفاية ومقاومة أيضا؛ وجب على من والاهم، وهكذا حتى يأتي الوجوب منسحبا على جميع المسلمين، وهذا هو قول خليل: «وتعين بفجإ العدو، وإن على امرأة، وعلى من بقربهم إن عجزوا».

فأهل قطر تلمسان والجزائر والأندلس مثلا حيث لم يقدروا على دفع العدو عنهم؛ كان يجب على من والاهم من أيمة المشرق والمغرب، أن يعينوهم بالجيوش والعدة ونحوها، وحيث عصا من والاهم ولم يعن، أو عجز عن الإعانة، تعين على من والاهم. . . وهكذا.

وإنما وجب ذلك: لأن العدو إذا ترك وما يريد؛ سلك تلك الأرض ثم انتقل منها إلى غيرها وهكذا، فيؤدي ذلك إلى كثرة الارتداد واستيصال الإسلام كما هو مشاهد.

والنصوص بهذا الذي ذكرناه لا تحصى كثرة. ولنذكر طرفا منها فنقول:

قال ابن بشير ما نصه: «إذا نزل قوم من العدو بأحد من المسلمين وكانت فيهم قوة على مدافعتهم؛ فإنه تتعين عليهم المدافعة، فإن عجزوا تعين على من بقربهم نصرتهم».

وقال ابن رشد في «المقدمات»، بعد ما ذكر فيها أن الجهاد: فرض يحمله من قام به. ما نصه: «إلا أن تكون ضرورة مثل أن ينزل العدو ببلد من بلاد المسلمين؛ فتجب على الجميع إعانتهم وطاعة الإمام في النفر إليهم».

وقال ابن جُـزَيْ في قوانينه، بعد ما ذكر فيها أن الجهاد يتعين بأمور ما نصه: «والثاني: أن يفجأ العدو بعض بلاد الإسلام، فيتعين عليهم دفعه، فإن لم يستقلوا لزم من قاربهم، فإن لم يستقل الجميع؛ وجب على سائر المسلمين حتى يندفع العدو».

وقال في «الشامل» ما نصه: «وتعين على من نزل بهم عدو أو قاربهم؛ دفعه، وإن لم يدخل لهم، إن كان فيهم قوة عليه بأن يكون ضعفهم أو أقل عددا وشدة وجلدا، على المشهور، فإن عجزوا لزم من قرب منهم إعانتهم ما لم يخف معاودة العدو من جهة أخرى بأمارة ظهرت».

وقال ابن الحاجب: «ويتعين -أي: الجهاد- على من نزل بهم عدو وفيهم قوة عليه، فإن عجزوا؛ تعين على من قرب منهم حتى يكتفي». وفي التوضيح: «قوله: فإن عجزوا، يريد ما لم يخف من يليهم معاودة العدو، فإن خافوا ذلك بأمارة ظاهرة فليلزموا مكانهم، قاله: سحنون».

وقال في «النوادر»: «ويخرج لِتَعَيُّنِهِ مطيقةُ تلك الدار خفافا وثقالا، شبانا وشيوخا، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مكبر، وإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم؛ كان على من جاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، وكذلك من علم أيضا بضعفهم وأمكنه غياثهم؛ لزمه أيضا الخروج، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم» انتهىٰ، نقله المواق في شرحه لمختصر خليل، ككلام ابن بشير قبله. ونقل أيضا عن المازري أنه: إذا عصىٰ الأقرب وجبت النصرة على من يليه من

الأبعد، ونصه: «قال المازري: فإن عصىٰ الحاضر تعلق -أي: فرض الجهاد- بمن يليه».
وقال بعد في محل آخر: «وتقدم نص المازري: إذا عصا الأقرب وجب على الأبعد».

وقال سيدي العربي الفاسي في كلام له في هذه المسألة: «لا يخرج المسلمون من عهدة المدافعة، ونصرة من عجز؛ إلا إذا استفرغوا الوسع في إزاحة الكفار من المدائن التي أخذوها للمسلمين، فلو نازلوها فلم تفتح؛ وجب عليهم معاودتها كلما أمكنهم ذلك حتى يفتحها الله عليهم، **ولا فرق في ذلك بين المدائن المأخوذة للمسلمين حديثا أو قديما، لأن الوجوب والمتعين متعلق بالمسلمين لا بقيد زمانا ومكانا على ما مر ترتيبه، فإن لم يفعل لعذر أو لغير عذر؛ وجب على غيره ممن يليه**. كما قاله ابن عرفة عن المازري، وترك من تقدم من أيمة المسلمين مدائن الإسلام في أيدي الكفار لا ينهض دليلا على الجواز، فهم بذلك في محل العصيان، لا في محل الاقتداء والاستنان، وقديما قيل: أسلك سبيل الهدى ولا يضرك قلة السالكين، واترك طريق الردى ولا يضرك كثرة الهالكين».

وقال في كتاب «فلك السعادة»[1]: «وقد قالوا أيضا - يعني: العلماء - إذا عجز أهل دار نزل بهم عدو الدين عن الذب عن أنفسهم؛ تعين على من بقربهم أن يعينهم، وهكذا، قال: واليوم نسمع ونبصر بنزول العدو ديارا، فضلا عن دار، فنتغافل، وربما استصرخونا فنتكاسل، حتى ينتهزون فرصتها ويتمكنون من غرفها ثم يفعلون بأخرى مثل ذلك، فدل ذلك على استخفافنا بقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] أي: فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين، لأن ترك نصرتهم يؤدي إلى مفسدة استيلاء الكفار حتى عليكم».

وقال علي القاري الحنفي في «شرح المشكاة» بعد ما ذكر فيه أن الجهاد فرض كفاية ما نصه: «ثم هذا إذا لم يكن النفير عاما، فإن كان، كأن هجموا على بلدة من بلاد المسلمين؛ فيصير من فروض الأعيان، سواء كان المستنفر عدلا أو فاسقا، فيجب على

(١) أي: الإمام محمد بن عبد الله بن طاهر السجلماسي الحسني. وكتابه: «فلك السعادة الدائر بين فضل الجهاد والشهادة».

جميع أهل تلك البلدة النفر، وكذا من يقرب منهم إن لم يكن بأهلها كفاية، أو تكاسلوا وعصوا، وهكذا إلى أن يجب على جميع أهل الإسلام شرقاً وغرباً».

وقال في «إرشاد الساري» في باب: وجوب النفير، من «كتاب الجهاد» في قوله في الحديث: «وإذا استنفرتم فانفروا» ما نصه: «أي: إذا طلبكم الإمام إلى الغزو فاخرجوا إليه وجوبا، فيتعين على من عينه الإمام، وكذا إذا وطيء الكفار بلدة للمسلمين وأطلوا عليها ونزلوا أمامها قاصدين ولم يدخلوا؛ صار الجهاد فرض عين، فإن لم يكن في أهل البلدة قوة؛ وجب على من يليهم» انتهىٰ.

قال بعض العلماء: من وجبت عليه النصرة وتركها؛ ضمن. لأنه من باب ترك تخليص المستهلك من النفس والمال، كما استظهره التتائي على الرسالة. والله أعلم.

أسباب التخلي عن نصرة المسلمين:

وسبب هذه المفسدة العظيمة -أعني: ترك النصرة- إما مجرد ضعف الدين، وعدم الاهتبال بجناب الإسلام والمسلمين، وإما الشح بالنفس والمال، والركون إلى الراحة والدعة وإن أدى إلى الاختلال، وإما أخذ الرشوة منهم -أعني: الكفار- وتركهم وما يريدون لأجل الطمع الفاني من الفتك بأولياء الله الأبرار.

أما الأولون: فكفاهم ضعف دينهم، وقلة إيمانهم ويقينهم، وعدم اهتبالهم بإخوانهم المؤمنين، وإهانتهم للإسلام والمسلمين، وسيرون الكرة من أعداء الله عليهم، ووصول النكال الشديد في الدنيا والآخرة إليهم.

وأما الأوسطون: فقد توعدهم الله تعالى في قوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]، وسماهم: فاسقين، وتوعدهم رسوله ﷺ أيضا بالوعيد الشديد، وأن الله يذلهم في الدنيا والآخرة ويطردهم عن جنابه ورحمته الطرد البعيد.

وأما الآخرون: فيقال لهم: يا ويلكم بعتم الجنة التي عرضها السمٰوات والأرض بشيء حقير، واستبدلتم رضاه تعالى بالسخط الكبير، ورجع عدوكم إليكم فأباد خضراءكم، واستأصل شأفتكم، وصرتم لا إلى دنيا ترجعون، ولا رحمة من الله تعالى تنالون، فيا خيبة مسعاكم، وذلة منقلبكم ومثواكم، فأخزى الله أثوابا عليكم، وأخزى الله ما تحت الثياب، وأوصل إليكم في الدنيا والآخرة أليم العذاب: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[إبراهيم: ٤٢]. ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

من عادة الأعداء رشوة أهل الشوكة من الرؤساء:

من عادة العدو اللعين، في كل وقت وحين، أنه إذا أراد التوصل إلى بلد أو قبيل، ولم يجد إليه السبيل؛ يأتي بالأموال الكثيرة الجسيمة، ويفرقها على الرؤساء من أهله وأهل الشوكة العظيمة، فإذا قبلوها انطفأت بها قوتهم، وزالت حدتهم، وركنوا بقلوبهم إليه، وثبطوا غيرهم ممن يريد أن يأخذ على يديه، بل ربما دلوه على عورات المسلمين وبينوا له الطريق الموصلة إلى استيصال الموحدين، فيجد -عدو الله- بذلك السبيل، وينتهز الفرصة التي لم يجد إليها قبلُ من سبيل.

ووالله ثم والله ثم والله؛ إن هؤلاء لَهُمُ المنافقون حقا، المنابذون للدين الحنيفي صدقا، المفرقون لكلمة الإسلام، المطفئون لأنوار أهله على الدوام، وما أضعف بل أعدم إيمانهم وإسلامهم، وأقل إعزازهم للدين واحترامهم، ويحق على المسلمين أن لا يلتفتوا إليهم، ولا يعولوا في شيء من أمور الدين ولا الدنيا عليهم، وأن يعاملوهم بما يستحقونه من الإذلال، ويحكموا فيهم شريعة سيد الأرسال، بما يقوله أهل العلم فيهم بحسب جرم كل واحد وفعله، من تنكيله أو نفيه أو قتله، فإن لم يقدر عليهم إلا بقتال؛ قوتلوا وقتلوا القتال الشاق، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٤].

من فساد الدين: الطمع وقبول الهدايا:

وقد تقرر أن فساد الدين: الطمع، وأن مِلاَكه التقوى والورع، وأن الإحسان يغلب الأعيان، ويصير العدو حبيبا، والأحمق لبيبا، والباطل حقا، والكذب صدقا، ومن أحسن إليك فقد استرقك بامتنانه، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، وللعطاء في النفوس- كما قاله بعض الأعيان- أثر قادح في الإيمان.

فاحذر أن تقبل ممن أمرك الله بمعاداته هدية، فإنها بلية وأي بلية، لأن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، أو أنعم بشيء ما عليها، وفي الحديث: «اللهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة يرعاه بها قلبي»، وفيه أيضا: «الهدية تذهب بالسمع والقلب والبصر»، أخرجه الطبراني في «الكبير» عن عصمة بن مالك، وفيه أيضا: «الهدية تعور عين الحكيم»، أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» عن ابن عباس، وفقنا الله تعالى لسلوك سبيل رضاه، ومنَّ علينا بفضله ورحماه... آمين.

الشريعة الغراء كلها مبنية على الحض والإغراء على اتفاق الكلمة والتئامها:

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من الحديث على الإئتلاف والموافقة، وترك الخلاف والمشاققة، فنقول: ومن تأمل الكتاب والسنة وجدهما متفقين على وجوب الاتفاق بين المؤمنين، والائتلاف والالتئام بين الموحدين، بل إذا تأملت وأمعنت النظر في الشريعة الغراء وأحكامها، وجدتها كلها مبنية على الحض والإغراء على اتفاق الكلمة والتئامها، فما شرعت الجمعة والجماعة في الأعياد والصلوات، والوقوف كل عام بعرفات، وزيارة المرضى والإخوان، وشهود الجنائز في كل آن، ومواساة الضعيف وإطعام الطعام، والعمل بمكارم الأخلاق وإفشاء السلام، والمصافحة والإهداء، وبشاشة الوجه عند اللقاء، وغيرها من الخصال الحميدة، والإحسانات العميمة الجديدة، إلا لما في ملاقاة الأجسام، وحسن المعاشرة معها على الدوام، من سر اتحاد الأرواح وتعارفها، وركون بعضها لبعض وتآلفها.

وانظر إلى ما في «الموطأ» عن عطاء بن أبي مسلم الخراساني معضلا[1] ، وأسند من طرق، أنه عليه الصلاة والسلام، قال: «تصافحوا يذهب الغل، وتهادوا وتحابوا تذهب الشحناء»، وفي معناه أحاديث كثيرة، وإلى ما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعا: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟، أفشوا السلام بينكم».

وكذلك ما شرعت المحبة والأخوة في الله، والمعاونة في دين الله، وآخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار من أصحابه مرة بعد أخرى؛ إلا لما في ذلك من الارتباط والائتلاف المؤدي لصلاح الدنيا والأخرى، وما حرمت الخصال الذميمة من كبر وحسد وغيبة ونميمة، وكذب وغصب وبهتان وزور، وقتل ونهب وغيرها من الفجور؛ إلا لما فيها من إثارة البغضاء والشحناء، وتفريق كلمة أرباب الشريعة السمحاء.

تنديد الشريعة بمن يقاطع أخاه أو يهاجره:

وانظر إلى ما ورد في الأحاديث الكثيرة والأخبار الشهيرة من الوعيد الشديد، والتهويل والتهديد، على من يقاطع أخاه أو يدابره، أو يصارمه أو يهاجره؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا، هَجْرُ المؤمنين ثلاثا، فإن تكلما وإلاّ أعرض الله عز وجل عنهما حتى يتكلما». رواه الطبراني في أبواب.

وقوله: «من هجر أخاه فوق ثلاث؛ فهو في النار إلاّ أن يتداركه الله برحمته»، رواه الطبراني أيضاً عن فضالة بن عبيد، وقوله: «من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه» رواه أبو داود عن أبي حراش حدرد بن أبي حدرد الأسلمي، وقوله: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»، رواه مسلم عن جابر، وقوله: «لو أن رجلين دخلا في الإسلام فاهتجرا لكان أحدهما خارجا من الإسلام حتى يرجع»، أي: الظالم منهما، رواه البزار عن ابن مسعود، وقوله: «تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس؛ فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرىء لا يشرك بالله شيئاً،

---

(١) المعضل: ما سقط من سنده رجلان.

إلاَّ أمرأً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا»، رواه مالك ومسلم عن أبي هريرة.

وقوله: «يطلع الله إلى جميع خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن»، رواه ابن ماجه عن أبي موسى، وابن حبان في صحيحه عن معاذ، والبزار بنحوه من حديث أبي بكر الصديق. وقوله: «ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرا: رجل أم قوما وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان»، رواه ابن ماجه عن ابن عباس؛ تجده من أقوى الأدلة أيضا لما ذكرناه، وبيناه قبل وسطرناه، وتعلم عظيم تشوق الشارع لحصول هذه المصلحة العظيمة، والمنفعة العميمة، التي يتسبب عنها صلاح الدنيا والدين، ويعود وبالها على الكفرة والفجرة المعتدين.

وفق الله المسلمين، وألف بين قلوب عباده المؤمنين، وأعانهم على بره وتُقَاه، وسلك بهم سبيل فضله ورضاه، بمنه وكرمه، وجوده وحرمه. . . آمين.

المبحث الثاني

ترك الاستعداد الحربي

ومنها وهو المبحث الثاني: ترك الاستعداد، وعدم النهوض على قدم الجد والاجتهاد، فيما يعين على محاربة الكفرة الأنذال، وما يغيظهم من السلاح والكراع والعدة والمدافع والمهاريز والأبطال، مع قيامهم هم بذلك أتم قيام، وإحداثهم في كل عصر ما يظنون أنه يكمل لهم به النظام، ينتهزون بذلك الفرصة على الإسلام، ويموهون على أهله به وبغيره من التمويهات العظام، مع أنا -يا عباد الله- أحق بذلك، وأولى بالقيام بالمستطاع مما هنالك، لأحقية ديننا وأشرفيته على سائر الأديان، وخوضهم في الزور والباطل والكفر والبهتان.

وقد قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم -يعني للكفار- مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]،

قال المفسرون: لما لم يكن للصحابة في غزوة بدر استعداد تام، نبههم تبارك وتعالى في هذه الآية على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في جميع الأزمان، بل الغالب عدم تأتيه بغيره على حسب ما جرت عليه عادة الله سبحانه.

وقوله: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ شامل لكل ما في طاقة البشر ومقدورهم، وجميع ما يدخل تحت كسبهم، وقوله: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ فسرت القوة ها هنا بجميع أنواع الأسلحة والآلات، وبالحصون والمعاقل، أي: اتخاذها وتحصينها بالتحفير وغيره، وبالرمي بالسهام ونحوها من كل ما يرمى به كالمكحلة[١] اليوم والمدافع ونحوها، وبجميع ما يتقوى به في الحرب على العدو، وبالشجعان والأبطال، والخيل والدواب، والسياسات والحيل وغير ذلك، وهو أشمل وأولى، إذ القوة منطبقة على الجميع، وعليه: فعطف الخيل على القوة من عطف خاص على عام، لمزيد الاهتمام بها لما لها من المزية العظيمة في الحرب، والإرهاب للعدو.

---

(١) المكحلة: البندقية.

الاستعداد للجهاد من فروض الكفاية:

وقال الفخر الرازي في تفسيره: «وهذه الآية تدل على أن الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح، وتعليم الفروسية، والرمي؛ فريضة، إلا أنه من فروض الكفاية».

وقد فرض الله الجهاد بالمال، كما فرضه بالنفس فقال: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، وهذا لأن الوسائل تعطى حكم المقاصد، والجهاد بالنفس فرض، فتكون وسيلته -وهي الجهاد بالمال- كذلك.

وقد دلت آية ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ . . . الخ على فائدتين من فوائد الاستعداد:

أولهما: حصول التقوية به على الجهاد بوجود عدته وآلاته، وما ينضم إليهما من معززاته ومقوياته.

ثانيهما: حصول الإرهاب والخوف به في قلوب الأعداء إذا علموا أن القوة حصلت للمسلمين عدة وعددا.

وناهيك بهما فائدتين عظيمتين، وثمرتين كبيرتين، إذ بهما يحصل الأمن والنصر والظفر، وتعود الكَّرة على من طغى وجحد وكفر، وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين جحدوا به السفلى، ودعائم الإسلام قائمة، وأركان الكفر ساقطة ومنهدمة، وفق الله المسلمين. . . آمين.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، أي: تيقظوا واستعدوا للأعداء ولا تغفلوا، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مقاتل ابن حيان قال: «خذوا حذركم: عدتكم من السلاح»، قالوا: والسلاح يسمى حِذْراً لأنه يتقى به ويحذر، وقال الضحاك: «خذوا حذركم؛ تقلدوا سيوفكم، فإن ذلك هيئة الغزاة».

وقال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢-١٠٣]، وقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، قيل: الإلقاء باليد إلى التهلكة هنا: ترك

الاستعداد، أي: أنفقوا أموالكم في مهمات الجهاد، وما يرجع إلى الاستعداد، وإلا تنفقوها في ذلك استولى عليكم عدوكم وأهلككم.

وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن أبي حبيب في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، قال: «وهو الإخلال بالسلاح في المغازي».

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي والدارمي وابن حبان والحاكم وصححه عن أنس مرفوعا: «جاهدوا المشركين بأموالكم-أي: بأن تستعدوا بها لقتالهم وتشتروا بها ما يحتاج إليه فيه من سلاح ودواب وزاد ونحو ذلك- وأنفسكم -أي: بأن تخرجوا إلى قتالهم- وألسنتكم» أي: بأن تكافحوا بها عن الدين وتهجوهم وتخوفوهم بالقتل والأخذ وما أشبه ذلك، وتحضوا الناس على الجهاد، وترغبوهم فيه، وتبينوا لهم فضائله، فإن الكل جهاد.

إنذار المسلمين بالذل إذا تركوا الاستعداد للجهاد:

وأخرج أحمد أيضا والطبراني في «الكبير» وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «الشعب» بسند حسن عن ابن عمر مرفوعا: «إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة[1]، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ أدخل الله عليهم ذلا »، وفي رواية لأحمد والبيهقي: «أنزل الله عليهم بلاء لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم»، وفي لفظ عزاه في «كنز العمال» لابن جرير الطبري عن ابن عمر أيضا: «إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله؛ بعث الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا أمر دينكم»... الحديث، وستأتي فيه ألفاظ أخر.

(١) العينة بكسر العين: بيع السلعة بثمن إلى أجل، ثم شراؤها بأقل من ذلك الثمن. (إدريس).

ومعناه كما قاله العلماء: إن الناس إذا بخلو بصرف الدنانير والدراهم فيما يتعلق بالاستعداد للعدو حرصا على الدنيا والاستكثار منها، ورضوا بما هم فيه من الأسباب، من التحيل على أكل الربى واتباع أذناب البقر للحراثة والزراعة ونحوها، وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ سلط الله عليهم عدوهم فلا يتخلصون منه حتى يرجعوا إلى ما هو واجب عليهم، من التأهب له أولا، ثم جهاده بالفعل ثانيا، والإغلاظ له، وإقامة الدين ونصرة الإسلام، حماية لجناب الله تعالى وجناب رسوله عليه الصلاة والسلام.

وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وقال: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤]، وقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، أي: بأسا وخشونة وشدة، وقال: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩]، ومعلوم أنه لا قتال ولا بأس ولا شدة ولا قوة ولا علو ولا ظهور إلا بآلة واستعداد، وقد ألف الناس تآليف عديدة فيما ورد في فضله والحث عليه، فلتُنظَر.

مسؤولية الإمام في الاستعداد للجهاد:

قال العلماء رضي الله عنهم: ويلزم الإمام -أي: السلطان- أن يأمر أهل القدرة بالاستعداد والتأهب للعدو، وباقتناء الخيول والآلات، وتعلم الرماية والسباحة والمصارعة والمسافرة وكيفية الطعن والضرب والكر والفر... وغير ذلك من كل ما فيه تدريب وتمهيد للقتال، ونفع في جهاد العدو الكافر، وعليه هو أيضا أن يتأهب بما يمكنه من تحصين الثغور والحصون وسدها، والتحفير عليها، ويكثر من الآلات السلاحية والمهاريز والأنفاض واقتناء الكور والبندق من الرصاص والبارود وما أشبه ذلك، ويأمر الناس بأن يتدربوا باستعمال ذلك بين يديه، ليعلم النجيب منهم فيكرمه، وغيره فيهينه.

ومن كانت هذه نيته من الملوك وأذهب طرفا ما من عمره في الاستعداد والتدريب، وعين من كل قبيلة مائة أو مائتين أو أكثر أو أقل بحسب كبرها وصغرها، من شجعانها وأبطالها ممن ظهرت نجابتهم وشدتهم في الإصابة في الرمي والكر والفر، بمرأى من

عينيه؛ حصلت له ولهم مزية الجهاد، ولم تَرُعْهُم الكتائب الوافرة وإن كانوا هم أقل عددا، بل هم مجاهدون وإن ماتوا قبل ملاقاة العدو، لأنهم على نيته، والأعمال بالنيات.

وكفى بمزية الجهاد مزية،إذ لا يدركها أحد ولو استمر في العبادة مائة ألف سنة أو أكثر، لأنه أعز دين الإسلام، ومشى على نهجه عليه السلام، وقام بأوامر الله أحسن قيام، وبالغ في إعلاء كلمة الله مبالغة الأبرار الكرام، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠]. ثم قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١].

ومن لم تكن هذه نيته منهم -أعني: الملوك- وأهمل أمر الاستعداد، وترك رعيته على ماهم عليه وفيه من النعاس والكسل والرقاد، والافتخار بفاخر اللباس، والانهماك في اللذات على مر الأنفاس، والتنافس فيما لا يغني في الشدائد ولا يفيد، بل يحط إلى أسفل سافلين وبعيد؛ تداعت أجناس النصارى عليهم وعليه، وتحركت الطواغيت من كل جهة إليهم وإليه، فتلَّهم الشيطان للجبين، وخسروا الخسران المبين، فلا هو وهم مفلحون في الدنيا بغلبةعدوهم اللعين، ولا ناجون في الآخرة من عذاب ربهم المُهين، وذلك دأب الله سبحانه مع من أهمل أمره، وأمن مكره!!.

ترك أهل الأندلس الاستعداد، واشتغالهم بالطرب والفساد:

وقد وقع لأهل جزيرة الأندلس أنهم تركوا الاستعداد، واشتغلوا باللهو والطرب والفساد، ولما دهمهم العدو مسلحا لابسا ثياب البذلة والقتال، خرجوا لقتاله بالغفائر وثياب الزينة، فدهشوا لعدم التدريب وممارسة القتال، فصبروا أياما قلائل ثم كَلُّوا، فأخذ رقابهم وأموالهم، وكانت ملوكهم لا ينصر بعضهم بعضا ولا يعينه، حتى تمكن العدو من طليطلة، قاعدة مملكتهم، وصارت ملوكهم تؤدي الضريبة من يومئذ للعدو

الكافر، ولم تقم لهم قائمة بعد حتى تملك جميع أراضيهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، والأمر لله ما شاء فعل.

وقد قالوا: إن الإمام مع الرعية، كالنفس مع صاحبها، إن لم يشغلها شغلته، فالإمام إن لم يشغلهم بأمور الجهاد شغلوه بالقيام عليه، وبعدم امتثال أوامره، كما أن النفس إن لم يشغلها صاحبها بالخير شغلته بالشر.

وقال الإمام ابن طلحة: «يلزم الإمام حمل الناس على الجهاد، فإن اتكل على أن يتكلف الناس لأنفسهم؛ ضاع الجهاد، وتهدم الإسلام، إذ لا يتم الجهاد إلا بحمل الإمام الناس عليه، وأخذ أموالهم من وجهها، ووضعها في محلها من جيوشهم، ويجبر أهل المال على كسب الخيول وآلة الحرب وسد الثغور».

وفي أواخر شرح نظم بيوع ابن جماعة: «من البدع المحرمة: التواطؤ على إهمال اقتناء الخيول لأهل القدرة، واكتسابِ أنواع العدة، وتعلمِ الرماية التي بها يسود الرجل ويصول، وتركِ التحصين والتحفير على ثغور المسلمين، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والتحفير والتحصين من القوة».

وعد ابن حجر الهيتمي في «الزواجر»: «من الكبائر ترك أهل الإقليم تحصين ثغورهم، بحيث يخاف عليها من استيلاء الكفار بسبب ترك التحصين»، ثم ذكر: «إن عَدَّ ما ذكر من الكبائر ظاهر، لأنه يحصل به من الفساد العائد على الإسلام وأهله ما لا يُتدارك خَرْقُه».

وجميع ما ورد من الوعيد في تركِ الجهاد، كله يأتي في ترك الاستعداد، إذ لا جهاد إلا به، وفي التنزيل: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]، فكل من يريد الجهاد يأخذ له في الاستعداد، ومن لا؛ فلا، ويأتي حديث: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق».

وجوب تدريب الشعب كله وعدم الاكتفاء بعسكر السلطان:

وفي العهود المحمدية: «اخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ، أن لا نتهاون بترك تعلم آلات الجهاد، كالرمي بالنشاب والمصارعة والمدافعة ونحو ذلك، ثم لا نتركها بعد التعلم حتى لا ينفك إدماننا، وهذا العهد قليل من الناس من يعتني به اكتفاء بعسكر السلطان، ويقول: إذا وقع دخول عدو بلادنا فعسكر السلطان يكفي، فكل ذلك جبن وكسل، وبئس الطباع، وكذلك من الأدب أن لا نتهاون بترك تعلم السباحة في البحر، لاحتمال أن يضطرنا عدو عند شاطىء البحر فيهلكنا، ولو أننا كنا نعرف السباحة لربما خلصنا منه، وقد كان شيخنا شيخ الإسلام الأنصاري مع كبر سنه، يعوم في بحر النيل كل سنة مرة، ويقول: أنا أخاف أن ينفك مني الإدمان في العوم، فإن ترك العوم نقص في الإنسان، والله أعلم».

روى مسلم وابن ماجه مرفوعاً: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو فقد عصا» .

وفي رواية: «من تعلم الرمي ثم تركه فقد عصاني» وفي رواية للطبراني: «من تعلم الرمي ثم نسيه فهي نعمة جحدها» ، وفي رواية: «من ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنما هي نعمة كفرها» ، ويقاس على الرمي ما ذكرناه من آلات الجهاد وما لم يذكر، والله تعالى أعلم».

وقال بعضهم: قوله في حديث مسلم: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أو فقد عصا» ، يشعر بأن من أدرك نوعاً من أنواع القتال التي يُنتفع بها في الجهاد في سبيل الله، ثم تساهل في ذلك حتى تركه كان آثماً إثماً شديداً، لأن ترك العناية بذلك يدل على

ترك العناية بأمر الجهاد، وترك العناية بالجهاد يدل على ترك العناية بالدين، لكونه سنامه وبه قام هـ.

انحطاطنا وسوء أحوالنا المعاصرة:

ونحن أيتها الأمة في هٰذه الأزمان، في كثير من البلاد والثغور والأقاليم، قد استحوذ علينا الشيطان الرجيم، فأصمنا وأعمانا، وأضلنا عن طريق الهدى وأغوانا، فتركنا ما هو الواجب علينا من أخذ الأهبة والاستعداد، والقيام في ذلك على ساق الجد والاجتهاد، حتى زالت هيبتنا من قلوب العِدَا، واستعدوا هم وجعلوا يهددوننا بالمجيء إلينا في اليوم وغداً، وطمعوا في أخذنا من غير سلاح، والاستيلاء علينا جداً بلا مزاح، بل قد استولوا على كثير من البلاد، واستعملوا عليها بمجرد الحيلة بلا قتال ولا جهاد، ومع ذلك فلم يشعر منا شاعر، ولا تزحزح واحد منا عما هو عليه من تعاطي أسباب الشر الظاهر، فلا يدري أذلك رضى منا بالكفر والصَّغار، ومحبة في أعداء الله تعالى الكفار، أم ذهبت عقولنا وآراؤنا مع الذاهبين، وعميت قلوبنا وبصائرنا، وتاهت في مفازات المنهمكين المتهتكين الهالكين؟، جبر الله بمنه صدع قلوبنا، وستر بمحض فضله وجوده ما أبديناه من زللنا وقصورنا، وقبيح عيوبنا وذنوبنا، بمنه وكرمه آمين.

وجوب اتخاذ الأسباب مع التوكل على الله تعالى:

وليعلم أن الله تبارك وتعالى قادر على نصر عباده المؤمنين، بدون استعداد ولا سبب أصلاً، لكن حكمته الباهرة اقتضت أنه لا بد من الأسباب وجوداً، ومن الغيبية عنها شهوداً، فنثبتها من حيث أن الله تعالى أثبتها بحكمته، ولا نستند إليها لعلمنا بأحديته، وبأنه تعالى يفعل ما يشاء في ملكه، قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ الآية، وقال: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾، قال البيضاوي: «وإمداد الملائكة، وكثرة العدد، والأهب[1] ونحوها، وسائط لا تأثير لها: فلا تحسبوا النصر منها، ولا تيأسوا منه

---

(١) الأهب: جمع أهبة وهي العدة يقال: أخذ للسفر أهبته.

بفقدها»هـ.

ولذا كان عليه السلام إذا أراد الخروج إلى الجهاد يستعد لذلك بجمع أصحابه، وباتخاذ الخيل والسلاح وما يحتاجون إليه من الآلات والزاد في السفر، ثم يرد الأمر بعد ذلك إلى مولاه عز وجل، ويترقب النصر منه تعالى، لا من شيء سواه، ويتضرع إليه ويدعوه ويسأله بأسمائه الحسنى، كقوله: «اللهم منزل الكتاب، مجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم». وفي رواية: «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب: اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»، وقوله: «اللهم أنت عضدي ونصيري بك أصول، وبك أحول، وبك أقاتل»، وقوله: «اللهم إنك إن تشأ لا تعبد في الأرض»، وقوله: «اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم انك إن تهلك هٰذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض».

فإذا ظفر بأعدائه رأى أن ذلك إنما هو منه سبحانه لا من غيره، ومن فعله تعالى على الحقيقة، لا من فعل أحد سواه. متحققاً بقوله تعالى لهم: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾، معترفاً بذلك، معلناً به، شاكراً لله عليه، قائلاً، إذا رجع من سفر غزوة: «آيبون تائبون عابدون، ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

وهٰذا لأن الإنسان وفعله مخلوقان لربه عز وجل كما قال تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾، فهو سبحانه الذي خلق ودبَّر وأعان وأجرى الأمور على يد من شاء واختار من خلقه، فكل منه، وكل راجع إليه.

عادة الله تعالى اختبار المؤمنين وامتحانهم:

ولو أراد تعالى أن يبيد أهل الكفر ويهلكهم بعذاب من عنده، ويكفي المسلمين أمرهم بغير قتال لفعل، كما قال تعالى في كتابه: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلو بعضهم ببعض﴾، أي سبق في علمه أنه لا بد من الاختبار، فيصير من قتل من المسلمين إلى ثواب، ومن هلك من الكافرين إلى عذاب وعقاب.

وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾، وقال: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه (أي مختلطين لا يعرف مؤمنكم من منافقكم) حتى يميز الخبيث من الطيب﴾، أي المؤمن من الكافر، بالهجرة والجهاد وغيرهما من التكاليف الشرعية.

وقال: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾، أي: لا يمتحنون ويختبرون بشدائد التكاليف، من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، وهجرة الشهوات والملاذ ونحو ذلك، وقال: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾، وهٰذا الاختبار والامتحان سنة قديمة جارية في الأمم كلها، كما يشير إليه قوله: ﴿وكاين من نبي قتل معه ربيون كثير﴾، الآية، وقوله: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.

فعلى المكلف ان يقوم بالأسباب امتثالاً للشريعة المطهرة، ويرد الأمر إلى الله تعالى بالرجوع والسكون إليه، والنزول بساحة كرمه عملاً بالحقيقة: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾، وقد قالوا: لا يحل ترك الأسباب اعتماداً على مسببها، لأن ذلك حقيقة بدون شريعة، وهي زندقة، لما فيها من النقض للحكمة الالآهية، والإلغاء لها، وقد قال عليه السلام لمن قال: أعقل ناقتي وأتوكل على الله، أو أطلقها وأتوكل؟: «اعقلها وتوكل».

وحملة القول، فلا يجوز لأحد ترك الجهاد والاستعداد اعتماداً على أن الله تعالى يقوم إن شاء بنصرة دينه، ويهلك الكفار، لما في ذلك من الرفض للشريعة المطهرة، والترك لها، والنبذ لما جاءت به من الوعد والوعيد، ولا يخفى ما فيه، ولا جهاد بدون استعداد، لما فيه من الإلقاء باليد للتهلكة، والتسبب في إذلال المسلمين والإسلام، واستيلاء الكفار عليهم وعلى بلادهم.

وأوجب وأحسن وأفضل من الاستعداد الحسي، الاستعداد المعنوي، باتباع الأمر والنهي، وتوسيد الأمر إلى أهله كما قال تعالى في نحوه: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد

التقوى﴾، وبالاستعداد المعنوي تقع المعونة من الله، ويحصل الرضى من جنابه وعلاه، ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾، وتحفظوا دينه القويم يحفظكم.

وبتركه تنحل العزائم، ويقع المسلمون في مهاوي التلف والعَطَب والجرائم، كما شوهد ذلك في عدة مواطن هنالك، وافهم الرمز والإشارة في قوله عليه السلام: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»، نسأله سبحانه بجاه من له الجاه، أن يوفقنا وجميع المسلمين لما فيه رضاه، بمنه وكرمه، وجوده وحرمه آمين.

المبحث الثالث

ترك الجهاد

ومنها وهو المبحث الثالث: ترك جهاد أعداء الدين، وعدم النهوض لمحاربتهم على مر الأزمان والسنين، كأن قتالهم صار شرعا منسوخا منقوضا، وإرسال البعوث إليهم عاد أمرا منبوذا مرفوضا، ولذلك ترى المسلمين أذلة بعد ما كانوا أعزة، وفقراء بعد ما كانوا أغنياء، ومتحاربين، إثر ما كانوا لقتال الكفرة متحزبين، ومفترقين، بعيد ما كانوا مجتمعين، وقلت البركات، وارتفعت الخيرات، وزال الحياء، وكثر الرياء، وجار الحكام، وساد اللئام، وحل البلاء، وعظمت المصيبة والرزء والشقاء، وتطاولت الأعداء، وكثر منهم للمسلمين السباء، فلا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا راجعون إلى الله.

الإنذار والوعيد الشديد لتاركي فريضة الجهاد:

وقد ورد في تركه في الكتاب والسنة وعيد شديد، وتوبيخ عظيم وتقريع وتهديد، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ -أي: بعذابه، وعن الحسن: هو عقوبة عاجلة أو آجلة - وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]، قرع تعالى ووبخ من كانت هذه الأشياء أحب إليه من الله والرسول والجهاد، وأوعدهم بقوله: ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤]، ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله.

قال في «الكشاف»: «وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها، كأنها تنعى على الناس ما هم فيه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين».

وقال ابن النحاس: «في هذه الآية من التهديد والتحذير والتخويف لمن ترك الجهاد رغبة عنه، وسكونا إلى ما هو فيه من الأهل والمال، ما فيه كفاية، فاعتبروا يا أولى الأبصار».

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩]، قال المفسرون: هذا تسخُط عظيم على المتثاقلين عن الجهاد المائلين عنه إلى الدنيا وشهواتها، حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق شامل لعذاب الدنيا باستيلاء العدو عليهم ونحوه، وعذاب الآخرة بالنار، وبأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيرا منهم وأطوع، وأعلمهم بأنه غني عنهم في نصرة دينه، لا يقدح تثاقلهم فيها شيئا.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ ﴾ [البقرة: ١٩٥] **ذهب جماعة منهم أبو أيوب الأنصاري إلى أن التهلكة هنا: الإقامة في الأهل والأموال وإصلاحها، وترك الغزو، لأن ذلك يقوي العدو ويجرئه على المسلمين فيفسد عليهم دينهم ودنياهم ويهلكهم.**

وقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، ذهب بعض المفسرين إلى أن الفتنة هنا: **التكاسل عن الجهاد،** أي: احذروا الفتنة التي لا يصيب شرها ووبالها الظالمين خاصة، بل يعمهم وغيرهم، وهي: التكاسل عن الجهاد، وفي تفسير البيضاوي لدى هذه الآية: «اتقوا ذنبا يعمكم أثره؛ كإقرار المنكر بين أظهركم، والمداهنة في الأمر بالمعروف، وافتراق الكلمة، وظهور البدع، والتكاسل في الجهاد»هـ.

وأخرج أبو داود وغيره بسند حسن عن ابن عمر مرفوعا: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم».

وأخرج أحمد عنه أيضا مرفوعا: «لئن اتبعتم أذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، وتركتم الجهاد في سبيل الله؛ ليلزمنكم الله مذلة في أعناقكم ثم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه وتتوبوا إلى الله»، وفي لفظ آخر له عنه أيضا: «لئن تركتم الجهاد وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة؛ ليلزمنكم الله مذلة حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا عما كنتم عليه».

قال العلماء رضى الله عنهم: أنزل النبي ﷺ في هذا الحديث ترك الجهاد والتشاغل بغيره من الأسباب منزلة الردة والخروج عن الدين، وفي ذلك من الزجر عن تركه والتقريع والتهويل على تاركه ما لا يخفى، ولذا ذكر ابن النحاس والدمياطي في «كتاب الجهاد» أن ترك الجهاد في جميع السنين والإعراض عنه ركونا إلى الدنيا خروج عن الدين ومفارقة له، واحتجوا له بهذا الحديث، وقال في «الزواجر»: «إن ترك الجهاد عند تعينه بأن دخل الحربيون دار الإسلام، أو أخذوا مسلما وأمكن تخليصه، وترك الناس الجهاد من أصله؛ كبيرة من الكبائر، قال: لأنه يحصل به من الفساد العائد على الإسلام وأهله ما لا يتدارك خرقه». محتجا على ذلك بهذا الحديث وغيره.

وأخرج تمام عن مساور بن شهاب مرفوعا: «إن العرب إذا اتبعت أذناب البقر صب الله عليهم الذلة، وسلط عليهم ولد فارس، فيدعون فلا يستجاب لهم»، وأخرج ابن مردويه والديلمي عن أبى هريرة رفعه: «من أشراط الساعة: سوء الجوار، وقطيعة الأرحام، وأن يعطل السيف عن الجهاد، وأن يتتحل الدنيا بالدين».

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والحاكم والبيهقي عن أبى هريرة أيضا مرفوعا: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق». أي: طائفة منه وخصلة من خصاله، فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق، لا سيما عند مس الحاجة إليه وظهور غربة الإسلام وضعف المسلمين وتسلط الذل التام على المؤمنين، كما أن فعله أحد شعب الإيمان، قالوا: وتحديث النفس بالغزو: أن ينوي الجهاد ، قال بعض: «وعلامته: إعداد الآلات، قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]».

وأخرج أبو داود وغيره عن أبي أمامة مرفوعا: «من لم يغز، أو يجهز غازيا، أو يخلف غازيا في أهله بخير، أصابه الله بقارعة -أي: بلية تقرعه وتهلكه- قبل يوم القيامة»، وأخرج عبد الرزاق عن مكحول مرسلا: «ما من أهل بيت لا يخرج منهم غاز، أو يجهزون غازيا، أو يخلفونه في أهله؛ إلا أصابهم الله بقارعة قبل الموت »، وأخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة مرفوعا: «من لقي الله بغير أثر من جهاد لقي الله وفيه ثلمة» أي: في دينه نقص وعيب.

وأخرج الطبراني بسند حسن عن أبي بكر الصديق مرفوعاً: «ما ترك قوم الجهاد إلاّ عمهم الله بعذاب. . .». . . الحديث. وأخرج ابن مردويه عن محمد بن عبد الله التيمي عنه أيضا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بذل، ولا أقر قوم المنكر بين أظهرهم إلا عمهم الله بعذاب». . . الحديث، وأخرج ابن عساكر عن الشعبي قال: لما بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه صعد المنبر فذكر الحديث في خطبته التي خطب بها لما بايعه الناس البيعة العامة التي كانت الغد من يوم السقيفة؛ وقال فيه: «ولا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا عمهم البلاء».

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» عن أبي أمامة مرفوعا: «كيف بكم إذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم ؟»، قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟!، قال: «نعم». . . الحديث.

وأخرج ابن عساكر في: «كتاب الجهاد» عن أنس مرفوعا: «من غزا غزوة في سبيل اللهفقد أدى إلى الله جميع طاعته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنا أعتدنا للظالمين نارا »، قال: قيل يا رسول الله: وبعد هذا الحديث الذي سمعنا من يدع الجهاد ويقعد؟، قال: «من لعنه الله وغضب عليه وأعد له عذابا عظيما، **قوم يكونون في آخر الزمان لا يرون الجهاد،** وقد اتخذ ربي عنده عهدا لا يخلفه: **أيما عبد لقيه وهو يرى ذلك أن يعذبه عذابا لا يعذب به أحدا من العالمين**».

الرد على القائلين بانقطاع الجهاد:

وأخرج ابن عساكر أيضا وضعفه، عن أنس أيضا مرفوعا: «لا يزال الجهاد حلوا خضرا ما أمطرت السماء وأنبتت الأرض، وسينشأ نشء من قبل المشرق يقولون: لا جهاد ولا رباط. أولئك وقود النار، بل رباط يوم في سبيل الله خير من عتق ألف رقبة، ومن صدقة أهل الأرض جميعا»، قال الدمياطي وابن النحاس: «وذكر في «شفاء الصدور» عن زيد بن أسلم عن أبيه مرفوعا: «لا يزال الجهاد حلوا خضرا ما قطر القطر من السماء، وسيأتي على الناس زمان يقول فيه قراء منهم: ليس هذا بزمان جهاد، فمن أدرك ذلك الزمان فنعم زمن الجهاد»، قالوا: يا رسول الله، وأحد يقول ذلك؟،

قال: «نعم، من لعنه الله والملائكة والناس أجمعون».

قلت: وهذا إخبار عن غيب وقع، فإن كثيرا من المتفقهة وأهل الثروة والرياسة ونحوهم في هذا الزمان يقولون: إن الجهاد فيه متعذر على الناس، ويعللون ذلك بكثرة الأجناس[1]، وقوتهم وعظيم جرأتهم، وشدة شوكتهم، فيخاف من مناشبة القتال معهم ما هو أكبر، وأدهى وأمر.

بل رأيت تُوَيْلفا مطبوعا لبعض المارقين اللئام، يحض فيه أهل الإسلام، على ترك الجهاد في هذه الأزمان، والدخول فيها في طاعة عباد الصلبان، أخزاه الله وأخزى أثوابا عليه، و أوصل جميع النقم وأنواع العذاب إليه، وعلل ذلك بضعف المسلمين، وقوة الكفرة المجرمين، **وهذه فتوى كاذبة واهية، بل من الدسائس النصرانية، والسياسات الكفرانية، والتسويلات الشيطانية، ولا تصح بحال، ولا يقبل من مارق فيها مقال.**

أما أولاً: فإن النبي ﷺ قد أخبر ببقائه إلى يوم الدين، وأنه لا ينقطع مدة بقاء الموحدين، وانظر إلى قوله عليه السلام في حديث أبي داود وغيره عن أنس: «والجهاد ماض منذ بعثني الله عز وجل إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل»، وقوله في حديث الطبراني في «الأوسط» عن علي: «والجهاد ماض إلى يوم القيامة منذ بعث الله محمدا إلى آخر عصابة من المسلمين، لا ينقض ذلك جور جائر ولا عدل عادل». وقوله في حديث الصحيحين عن عروة بن الجعد البارقي: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة. الأجر والمغنم»، وفي حديث مالك أيضا عن المغيرة بن شعبة: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله -قال في «التيسير»: أي: يوم القيامة- وهم ظاهرون»، وفي حديثهما أيضا عن معاوية: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من كذبهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

---

(١) أي: الكفار وأعداء الإسلام.

وفي رواية لمسلم: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»، وفي أخرى له أيضا: «لا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة» وقوله في حديث مسلم والحاكم في «المستدرك» وصححه عن عقبة بن عامر: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»، وقوله في حديثه أيضا عن ثوبان: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»، وقوله في حديثه أيضا، وحديث أحمد وابن الجارود في «المنتقى» وبوب عليه بقوله: «باب: دوام الجهاد إلى يوم القيامة»، عن جابر بن عبد الله: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»، وقوله في حديثه أيضا عن جابر بن سمرة: «لن يبرح هذا الدين قائما تقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة».

وقوله في حديثه أيضا عن سعد بن أبي وقاص: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة »، وقوله في حديث الحاكم بإسناد صحيح عن عمر: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة».

وقوهل في حديث أحمد وابن جرير عن سلمة بن نفيل الحضرمي: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس، يزيغ الله بهم قلوب أقوام فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»، وقوله في حديث أبي داود مترجما له بقوله: «باب: في دوام الجهاد»، عن عمران بن حصين: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال».

وقوله في حديث أحمد عن أبي أمامة الباهلي: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك». والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وأما ثانياً: فإن للمسلمين في كل قطر -والحمد لله- كما هو مشاهد لهم في أنفسهم،

القوة الكاملة، والشجاعة البليغة العاملة، التي ليست لغيرهم من الكفار، في أكثر النواحي والأقطار، مع كثرة عددهم، ووفور قبائلهم، بحيث إن القبيلة الواحدة من قبائلهم العظام، ربما تقوم وحدها بمدافعة بعض أجناس الكفرة اللئام، إذا تركت ونفسها، لا يتعرض متعرض من أهل الإسلام لها، فضلا عن القبائل المتعددة، والجموع الكثيرة المتجددة.

وانظر ما فعله قريبا من هذا الأوان، أهل الريف[1] من أهل هذا المغرب الأقصى البعيد العمران، مع قلة ذات يدهم وخيولهم وأسلحتهم، ببعض الطغاة من الأجناس، وما فعله بغيرهم غيرهم من قبائل العرب والناس، وأجناس الروم بهذا مُقِرون، وبه وبأكثر منه معترفون، ويقولون: لا يماثل المسلمين أحد من غيرهم في الأخذ والبطش والشجاعة، ولكن دخلهم الطمع وحب الدنيا، فلم يبق لهم في الرأي وحسن التدبير بضاعة، ولقد صدقوا في ذلك وإن كانوا كاذبين.

حالة المسلمين اليوم كما وصفها الرسول ﷺ:

قد ذهبت بمحبة الدنيا عقولنا وآراؤنا مع الذاهبين، وظهر فينا مصداق الأخبار النبوية، والأحاديث الكريمة المصطفوية، التي منها ما أخرجه أحمد وأبو داود والبيهقي في «الدلائل»، وغيرهم عن ثوبان مرفوعا: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها »، قيل: يا رسول الله؛ فمن قلة منا يومئذ؟، قال: «لا؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت».

وأخرج البيهقي في «السنن» عن أبي هريرة مرفوعا: «كيف أنت يا ثوبان إذا تداعت عليكم الأمم كتداعيكم على قصعة الطعام تصيبون منه ؟» قال: أمن قلة ؟، قال: «لا؛ أنتم يومئذ كثير، ولكن يلقى في قلوبكم الوهن»، قالوا: وما الوهن يا رسول الله ؟ قال: «حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال».

---

(١) الريف يطلق علىٰ منطقة جبلية معينة في شمال المغرب تطل علىٰ شواطيء البحر الأبيض المتوسط، وهي موطن قائد الثورة الشهير: محمد بن عبد الكريم الخطابي. إدريس.

وأخرج أبو النعيم في «الحلية» عن أنس، وعن معاذ رفعاه: «أنتم اليوم على بينة من ربكم، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتجاهدون في سبيل الله، ثم تظهر فيكم السكرتان: سكرة الجهل، وسكرة حب العيش، وستحولون عن ذلك، فلا تأمرون بمعروف، ولا تنهون عن منكر، ولا تجاهدون في الله. القائم يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين صِدِّيقا»، قالوا: يا رسول الله، منا أو منهم؟، قال: «لا؛ بل منكم»، وأخرج أحمد والبزار والطبراني وأبو نعيم والحاكم بسند صحيح، عن سمرة مرفوعا: «يوشك أن يملأ الله أيديكم من العجم، ويجعلهم أسدا لا يفرون، فيقتلون مقاتلتكم، ويأكلون فيئكم»، أي: بسبب حبنا للدنيا وكراهيتنا للموت والجهاد، كما صرح به فيما قبله. وأخرج البزار عن أنس وحذيفة مثله، والبزار والطبراني عن ابن عمرو مثله، والطبراني عن أبي موسى مثله.

وأخرج الحاكم في «المستدرك» والديلمي عن علي رفعه: «إذا أبغض المسلمون علماءهم، وأظهروا عمارة أسواقهم، وتألبوا على جمع الدراهم؛ رماهم الله بأربع خصال: بالقحط من الزمان، والجور من السلطان، والخيانة من ولاة الأحكام، والصولة من العدو»، وأخرج الطبراني في «الكبير» عن ابن عمر مرفوعا: «ليأتين على الناس زمان قلوبهم قلوب العجم»، قيل: وما قلوب العجم؟، قال: «حب الدنيا، سنتهم سنة الأعراب، ما أتاهم من رزق جعلوه في الحيوان، يرون الجهاد ضرارا، والزكاة مغرما».

وأخرج الحكيم الترمذي وابن أبى الدنيا عن أبي هريرة مرفوعا: «إذا عظمت أمتي الدنيا -وفي لفظ: الدينار والدرهم- نزعت منها هيبة الإسلام، وإذا تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حرمت بركة الوحي، وإذا تسابت أمتي؛ سقطت من عين الله»، وأخرج البزار بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعا: «إنما أهلك من كان قبلكم الدينار والدرهم، وهما مهلكاكم»، وأخرج الترمذي وقال: حسن صحيح؛ وابن حبان والحاكم في صحيحيهما، عن كعب بن عياض مرفوعا: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي: المال».

وأخرج أبو نعيم في «المعرفة»، عن فاطمة بنت الخطاب رفعته: «لا تزال أمتي بخير ما لم يظهر فيهم: حب الدنيا، وعلما ء فساق، وقراء جهال، وجبابرة، فإذا ظهرت خشيت أن يعمهم الله بعقاب»، وعن وهب بن منبه قال: تصدى الشيطان لسليمان بن داود عليهما السلام فقال له سليمان: ما أنت صانع بأمة محمد ﷺ إذا أنت أدركتهم؟ قال: أزين لهم الدنيا حتى يكون الدينار والدرهم أشهى إلى أحدهم - أي: بعضهم - من شهادة أن لا إله إلا الله. نعوذ بالله من ذلك، ونسأله أن يحمينا من فتنة ما هنالك.

فبان أن محبة الدنيا والانهماك فيها من أعظم أسباب الوبال، بل هو الأصل في كل ما عرض من الفتور في الدين والانحلال، ولم يكن تنافس السلف فيها، ولا كان بشر منهم يصطفيها، بل رفضوها وزينتها رفضا، وقاموا بالوظائف الدينية نفلا وفرضا، حتى أظهروا منه المعالم، وأقاموا به المباني والمراسم، فأثابهم الحق تعالى على ذلك بالنصر المكين، وبسط لهم في البسيطة لواء الفتح والتمكين، وهابتهم الملل وجميع الأجناس، وحفظوا من كيد الوسواس الخناس.

وأما ثالثا: فإن الشرع المطاع، حرم على المسلمين الفرار إذا كانوا نصف الكفار أو بلغ عددهم اثني عشر ألفا، لزيادته تعالى في قوتهم عناية بهم ولطفا.

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحَسَّنَهُ، والحاكم وصححه وأُقِر، والبيهقي في «السنن»، وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس مرفوعا: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تغلب»، وفي رواية: «ولن تولى»، وفي أخرى: «ولا تنهزم اثنا عشر ألفا من قلة »، زاد ابن عساكر: «إذا صبروا وصدقوا».

قال العلماء رضي الله عنهم: يؤخذ منه أن عدد المسلمين إذا بلغ اثني عشر ألفا يحرم الفرار ولو زاد العدو على مثليهم أو أمثالهم، بل ولو بلغ عدد العدو ما عسى أن يبلغ، وهذا هو ما عزاه ابن رشد لأكثر أهل العلم، وقال القرطبي: «هو مذهب جمهور العلماء»، وجعلوا هذا الحديث مخصصا لعموم الآية الشريفة، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦]، أعني: لعموم مفهومها،

فإن منطوقها: وجوب المصابرة للمثلين، ومفهومها: جواز الترك عند كون العدو أكثر من المثلين، وهذا عام خصص بما ذكر.

والمسلمون -والحمد لله- في كل قطر من أقطار الدنيا أكثر من هذا العدد الذي هو اثنا عشر ألف بأضعاف متضاعفة، وآلاف متآلفة، بل تقدم لنا تبعا لبعض أهل الحزر أنهم يبلغون نحوا من ثلاثمائة مليون نفس تقريبا، فكيف يتضعضع هذا العدد بل عشر عشر عشره لعدو لعين ؟!!!، أو يعطي في دينه الدنية لكافر نجس مهين؟!!![1].

وأما رابعا: فإن الله تعالى أخبرنا في غير ما آية من كتابه بأن الغلبة بإذنه، أي: إرادته ومشيئته، وأن النصر إنما هو من عنده، قال تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، أي: قليلون، وقال: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠]، وقال: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وإذا كان ذلك بإذنه ومن عنده، فيهبه لمن يشاء من عباده كما قال: ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الروم: ٥]، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ١٣].

وقد وعدنا بالنصر والظفر إن صبرنا ونصرنا دينه واتقيناه، فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١٩]، أي: الكاملين في إيمانهم، بالنصر والتأييد والمعونة، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

---

(١) أما الآن فهم أكثر من ذلك العدد بحوالي أربعة أضعاف.

وقال: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وقال: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ -أي: دينه- يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ . إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ -أي: الغالبون- إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وأخرج أبو نعيم في «الحلية» عن علي مرفوعا: «من اتقى الله عاش قويا وسار في بلاد عدوه آمنا»، وأخرج الحكيم الترمذي في نوادره عن واثلة بن الأسقع مرفوعا: «من اتقى الله أهاب الله منه كل شيء، ومن لم يتق الله أهابه الله من كل شيء»، وأخرج ابن النجار عن ابن عباس مرفوعا: «من اتقى الله وقاه كل شيء».

وأخرج ابن أبي الدنيا عن قتادة قال: مكتوب في التوراة: «ابن آدم اتق الله ونم حيث شئت»، وأخرج أيضا عن عروة قال: كتبت عائشة إلى معاوية: «أما بعد؛ فاتق الله، فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا».

وأخرج أيضا عن أبي حازم قال: «ترصدني أربعة عشر عدوا، أما أربعة منها: فشيطان يضلني، ومؤمن يحسدني، وكافر يقاتلني، ومنافق يبغضني، وأما العشرة منها: فالجوع والعطش، والحر والبرد، والعري والهرم، والمرض والفقر، والموت والنار. ولا أطيقهم إلا بسلاح تام، ولا أجد لهن سلاحا أفضل من التقوى»، وأخرج الحاكم في التاريخ، والديلمي، وابن عساكر، عن أنس مرفوعا: «إن الله يقول كل يوم: أنا ربكم العزيز؛ فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز».

وانظر إلى الصحابة رضوان الله عليهم فإنهم ببركة طاعتهم لله تعالى ولرسوله ﷺ، وامتثالهم لأوامرهما، واجتنابهم لنواهيهما، فتحوا البلاد والأقاليم شرقا وغربا في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة، رضي الله عنهم، ونفعنا بهم آمين.

اقتران النصر بالعمل الصالح:

وفي «زاد المعاد» لابن القيم، في فصل: هديه ﷺ في الجهاد والغزوات. قال: وأخبر الله تعالى عباده أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم، وأنه إن سلطه عليهم؛ فلتركهم بعض ما أمروا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يؤيسهم ولم يقنطهم، بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم ويداووا جراحهم ويعودوا إلى مناهضة عدوهم فينصرهم عليهم ويظفرهم بهم، فأخبرهم أنه مع المتقين منهم، ومع المحسنين، ومع الصابرين، ومع المؤمنين».

وبوب البخاري: «باب عمل صالح قبل القتال»، ثم حكى عن أبي الدرداء قال: «إنما تقاتلون بأعمالكم»، وهذا أخرجه عنه ابن المبارك في كتاب: «الجهاد» بهذا اللفظ، وأخرجه عنه الدِينَوَرِي في «المجالسة» بلفظ: «أيها الناس: عمل صالح قبل الغزو، فإنما تقاتلون بأعمالكم».

وأخرج الترمذي والبزار عن عبد الرحمن بن عوف قال: «عبانا رسول الله ﷺ ببدر ليلا»، قال في «المدخل»: ، «والتعبية هي: تسوية الصفوف، وتقدمة العمل الصالح بين يدي القتال من الإمام والناس، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليرجى به الظفر والنصر، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] هـ. وفي «المدخل» أيضا، بعد ذكره لحديث: «أبغوني في ضعفائكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»، ما نصه: «ومعنى قوله ﷺ: «ابغوني في ضعفائكم»، أي: اطلبوني: أي: إنه يكون معهم، ويؤيد ذلك ما روي عن النبي ﷺ حكاية عن الله تعالى: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»، فإذا كان الله معهم فهم منصورون».

قال: «ويريد بالضعفاء -والله أعلم- الذين لم يكن لهم ظهور في الدنيا، ولا هم طالبون لها، وهم زاهدون في دنياهم، راغبون في آخرتهم، طائعون لله، ناصرون لدينه، فهم منصورون، قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، أي: بالنصر والمعونة، أي: مع الصابرين عن المشتهيات من المحرمات، والصابرين على الطاعات وجهاد الكفار، فالله ناصرهم ومعينهم».

من قواعد الحرب:

روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لخالد بن الوليد حين بعثه لقتال أهل الردة: «احرص على الموت توهب لك الحياة»، ووجه أبو مسلم قوما إلى الغزو فقال: «ألزموا قلوبكم الصبر؛ فإنه سيف الظفر، واذكروا كثرة الضغائن؛ فإنها تحض على الإقدام، والزموا الطاعة؛ فإنها حصن المحارب».

ومن الحكمة: «قوة النفس في الحرب علامة الظفر»، ومنها: «تَقَحُّمُ الحرب ينجح الغَلَب»، ومنها: «الهزيمة تَحُل العزيمة»، ومنها: «الحيل أبلغ من العمل»، ومنها: «الرأي السديد أجدى من الأيد الشديد»، ومنها: «شدة الصبر فاتحة النصر».

وقالت الحكماء: «إذا أردت أن تكيد من يحسدك؛ فازدد فضلا في نفسك»، وقال الرازي في تفسيره: «كل من صبر على أداء أوامر الله تعالى، واتقى كل ما نهى الله عنه، كان في حفظ الله، فلا يضره كيد الكافرين، ولا حيل المحتالين، إذ الله إنما خلق الخلق للعبودية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات: ٥٦] فمن وفى بعهدها في ذلك فالله أكرم أن لا يفي بعهد الربوبية في حفظه من الآفات والمخالفات، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، إشارة إلى أنه يوصل إليه كل ما يسره».

ولبعضهم:

عـدّوك بـالتقـىٰ والعلـمِ فـاقهـر　　فـأنـت بـذا وذاك عليـه تقـوى
فمـا قـرن الفتـى شيئـا بشـيء　　كمثـل العلـم يقـرنـه بتقـوى

وفي «مفيد النعم» للتاج السبكي: «طلب الملك المظفر سيف الدين نظر شيخ الإسلام وسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، بحضرة الملك الظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون وغيرهما من الأمراء، وحادثه في الخروج إلى لقاء العدو من التتار، لما دهموا البلاد ووصلوا إلى عين جالوت، فقال له: أُخرج!، وأنا أضمن لك على الله النصر، فقال: إن المال في خزائني قليل، وأريد الاقتراض من التجار، فقال: إذا أحضرت أنت وجميع العسكر كل ما في بيوتكم وعلى نسائكم من الحلي الحرام، وضربته على السكة، وأنفقته على الجيش، وقصر عن القيام بكلفتكم، أنا أسأل لكم الله تعالى في إظهار كنز من الكنوز، يكفيكم ويفضل عنكم، وأما أنكم تأخذون أموال المسلمين وتخرجون إلى لقاء العدو، وعليكم المحرمات من الأطرزة المزركشة والمناطق المحرمة، وتطلبون من الله تعالى النصرة؛ فهذا لا سبيل إليه. فوافقوه وأخرجوا ما عندهم، ففرقه وكفى، وخرجوا وانتصروا».

فعُلِمَ أن الناس لو اتقوا ربهم عز وجل باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، وكفوا عن الظلم، وردوا المظالم إلى أهلها، وأحيوا السنن وأخمدوا نيران البدع والفتن، وقاتلوا كما أمروا؛ كفاهم الله كل مؤونة، وأمدهم بجنود لا يرونها، كما أمد أصحاب نبيه سيدنا محمد ﷺ بذلك، ووقاهم شر عدوهم، وهذا من الأمور المشاهدة.

أسباب هزائمنا، وموقفنا الاستسلامي بعدها:

فإنا والله ما سمعنا ولا رأينا من قام بالله في أمره كما أمر الله وخذله الله، ولكنا أحدثنا في ديننا ما أحدثنا، وغيرنا من معالم الدين والسنة ما غيرنا، ثم خرجنا المرة بعد المرة إلى الجهاد، وأمرنا أمر الجاهلية الأولى بل أعظم في الفساد، نأكل الحشيش ونشرب الدخان والخمور، ونتجاهر بالفواحش من الزنى وغيره من الفجور، ونتهاون بالصلوات

وغيرها مما هو من الدين، ولا نعتني بشيء من أمور المجاهدين، لابسين ثياب الزينة والفخار، متدينين بأكل الأموال بالباطل والاستحقار، جاعلين أمر هذه الشعيرة العظيمة بيد المترفين والجهلة والأشرار، ومن لا نَهَمَ لهم إلا في الأكل والنوم و النكاح وإقامة الرياسة والجمع و الادخار.

إلى غير ذلك مما يقصر عنه وصف الواصف، ويقص عليك شيئا من تفاصيله المطلع العارف، **فلما أن عوملنا بشؤم أفعالنا، وولينا بسبب ذلك منهزمين على أعقابنا، قلنا: ما بقي في هذه الأزمنة جهاد، وما بقي فيها إلا المصانعة أو الدخول تحت أهل العناد، فصانعناهم، وهاديناهم، وجاريناهم، فكأنما بذلك زدناهم وعلينا جرأناهم.**

لا يندفع العدو بالمداراة ولا المصانعة:

كيف وقد تقرر أن العدو لا يندفع بالمداراة، ولا يقنع بالمجاراة والمحاباة، فحاولوا تبديل ملتنا، ولم يرضوا بسوى تملك أراضينا ومهجتنا، أفنرضى -معاشر الإسلام- بهذه الذلة العظيمة، ولا نرجع إلى الطريقة المستقيمة ؟، وهي: ترك ما نحن فيه من التنعمات والترفهات والمخالفات، وما نحن مقيمون عليه من تشييد الأبنية الرفيعة، والمساكن والغرف والمتنزهات، والرجوع إلى التقوى والأهبة والاستعداد وإعلاء كلمة الله بالجهاد، **ووالله ثم والله، إنه لباق إلى يوم الدين،** ولكننا خرجنا فيه وفي سائر أحوالنا عن سبيل المهتدين، فعاد شؤم ذلك علينا، ووجهت وجوه أعدائنا إلينا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، أي: بشؤم ذنوبهم، وتركهم المركز الذي رسمه لهم رسول الله ﷺ. وقد أوحى الله تبارك وتعالى إلى بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام: «إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني»، وفي تفسير: «روح البيان» لدى قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ١٠]، ما نصه: «وكل عصر على التنزل بالنسبة إلى ما قبله، ولهذا لا يظهر النصر في بعض السرايا، بل يقال: يا أيها الكفرة اقتلوا الفجرة».

تأخر النصر سببه التقصير في الدين:

وفي «حسن المحاضرة» للإمام السيوطي رحمه الله: «قال ابن عبد الحكم: أنبأنا عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال: أقام عمرو بن العاصي محاصرا الإسكندرية أشهرا، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ما أبطأ بفتحها إلا لما أحدثوا. وأخرج ابن عبد الحكم عن زيد بن أسلم قال: لما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب إلى عمرو بن العاصي: أما بعد؛ فقد عجبت لإبطائكم عن فتح أمصاركم، تقاتلونهم منذ سنتين، وما ذاك إلا لما أحدثتم، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم»، انظر تتمته.

وفي «المدخل» ما نصه: «وقد ورد أن عمر بن الخطاب جاءه كتاب من بعض جيوشه بالشام وهم يخبرونه فيه بأنهم قد افتتحوا البلدة التي نزلوا بها، وكانت الحرب بينهم وبين أهلها من أول النهار إلى الزوال، فبكى حتى بلت دموعه لحيته، فقيل له: أتبكي والنصر لنا؟، فقال: والله ما الكفر يقف أمام الإسلام من غدوة إلى الزوال، إلا من أمر أحدثتموه أنتم أو أنا».

وروى الطبراني في «الأوسط» بإسناد جيد، عن أبي ذر أنه قال لحبيب بن مسلمة: هل يثبت لكم العدو حلب شاة، قال: نعم وثلاث شياه غزر، فقال أبو ذر: غللتم ورب الكعبة، سمعت النبي ﷺ يقول: «إن لم تغل أمتي لم يقم لهم عدو أبدا»، ذكره المنذري في «الترغيب».

المخاطب بالتنفيذ خطابا أوليا هم الولاة أصحاب الأمر:

واعلم أن المخاطب بجميع ما تقدم خطابا أوليا في كل قطر، هم: الولاة وأصحاب الأمر، لما جعل الله بأيديهم من الحل والربط، وسماع الكلمة، ونفوذ الأمر، فعليهم أن يقوموا بهذه الوظيفة وغيرها من وظائف الدين أتم قيام، ويلزموا الناس بالقيام بها، فإن لم يفعلوا كانوا آثمين غاشين لله تعالى ولرعاياهم، ولحقهم جميع الوعيد الوارد في ذلك.

وقد تقدم قول ابن طلحة: «يلزم الإمام حمل الناس على الجهاد، فإن اتكل على أن يتكلف الناس بأنفسهم؛ ضاع الجهاد، وتهدم الإسلام، إذ لا يتم الجهاد إلا بحمل الإمام الناس عليه».

وفي «التوضيح»: قال في «الكافي»: «وفرض على الإمام إغزاء طائفة إلى العدو في كل سنة مرة، يخرج معهم بنفسه، أو يخرج من ينوبه، يدعوهم إلى الإسلام ويرعبهم، ويكف إذايتهم، ويظهر دين الله عليهم، ويقاتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، أو يعطوا الجزية».

وممن نص على أن ذلك فرض على الإمام: القرطبي في تفسيره، وغير واحد، وفي «مرقاة المفاتيح» لعلي القاري ما نصه: «وفي «شرح العقائد»: الإجماع على أن نصب الإمام واجب، لأن كثيرا من الواجبات الشرعية يتوقف عليه، كتنفيذ أحكام المسلمين وإقامة حدودهم، وسد ثغورهم، وتجهيز جيوشهم، وأخذ صدقاتهم، وقهر المتغلبة والمتلصصة وقطاع الطريق، وإقامة الجمعة والأعياد، وتزويج الصغير والصغيرة اللذين لا أولياء لهما، وقسمة الغنائم... ونحو ذلك من الأمور التي لا يتولاها آحاد الأمة».

لا تجوز مهادنة العدو ومصالحته من غير ضرورة ولا مصلحة إجماعا:

قال علماؤنا وغيرهم: ولا تجوز للإمام والناس أن يهادنوا العدو ويصالحوه من غير ضرورة ولا مصلحة إجماعا، لأنه ترك للجهاد صورة ومعنى، فإن فعلوا كانوا غاشين لأنفسهم ولله تعالى، آثمين عاصين، فإن صالحوه لضرورة شرعية من استعداد، أو إقامة جيش، أو طلب خديعة أو حيلة، أو ما أشبه ذلك من المصالح التي يعود نفعها على المسلمين؛ جاز ذلك.

قال ابن عبد البر عن سحنون: «ولا يبعدوا في المدة»، ونقل ابن شاس عن أبي عمران أنه استحب أن لا تكون المدة أكثر من أربعة أشهر إلا مع العجز، فإن طولوها لغير

ضرورة ولا مصلحة لم يجز أيضا، وكانوا غاشين لأنفسهم ولله تعالى، آثمين عاصين، وكيف يطوّل فيها سكونا إلى الدعة والراحة، واشتغالا بما لا يجدي نفعا؟! بل ربما ضر من تأمل الوعيد السابق في ترك الجهاد والاستعداد.

وما وقع لكثير من أهل الأقطار، من قبل عدوهم حتى صار يقطع لهم البحار، ويتبعهم في الفيافي والقفار، والمسلمون أمامه كأولاد الجراد، هذا يتقدم أمام الآخر سالكين نهج الفرار؛ إلا من طول المهادنة في تلك الأوطان، وعدم ممارسة القتال وشدة الامتحان، فسكنوا إلى الراحة، واشتغلوا بالتكسب وأمور الزراعة، وصار عدوهم يتحيل عليهم بأدنى التحيلات، ويظهر لهم المحبة والصداقة والمصافاة، إلى أن انتهز فيهم فرصته فأتى عليهم، ووجه وُجّهَ النكال إليهم، فندموا حيث لا ينفع الندم، وما بالعهد من قدم.

قال ابن عرفة: «كره علماؤنا المهادنة على أن يعطينا أهل الحرب مالاً كل عام، ولقد طلب الطاغية ذلك من عبد الله بن هارون على أن يعطوه مائة ألف دينار كل عام، فشاور الفقهاء في ذلك؛ فقالوا له: الثغور اليوم عامرة فيها أهل البصائر بالقتال، وأكثرهم من البلدان، فإن انقطع عنهم الجهاد تفرقوا، وخلت الثغور للعدو، والذي يصيبه أهل الثغور منهم أكثر من مائة ألف، فسر بذلك ورجع إلى رأيهم».

فانظر -رحمك الله- كيف احتال العدو وسمح بإعطاء المال، لأجل أن يتفرق من الثغور أهل البصائر بالقتال، ويسكن الناس إلى الراحة والكسل، فلا يقدرون على مقاومته بعد ذلك، بل يحصل لهم الملل، لعدم ممارستهم للقتال واستعدادهم له، وسكونهم إلى ما لا يعني من الطرب واللهو والبطالة، وانظر أيضا: كراهية العلماء لتلك المهادنة مع أخذ المال من العدو، فكيف بها مع عدم الأخذ، أو مع دفع المال له بدون ضرورة ولا مصلحة شرعية؟!! وهذا كله في أحكام المهادنة إن كان الجهاد فرض كفاية بأن كان العدو مطلوبا في بلاده غير طالب.

وأما إن كان الجهاد فرض عين. بأن كان العدو طالبا للمسلمين غير مطلوب لهم، كما هو الحال اليوم، وكانوا نصفه عددا أو اثني عشر ألفا فأكثر: فذكر في

«المعيار» في «كتاب الجهاد»، من جواب لبعض فقهاء تلمسان، أنه: «لا يجوز الصلح والهدنة بحال، وإن وقع وجب نقضه، قال: لا سيما إن طالت مدته، فقد عادت على العدو -أهلكه الله- مصلحته، وعلى المسلمين مفسدته، وإن تخيلت فيه مصلحة؛ فهي للعدو أعظم من وجوه مكملة: فإنه يتحصن في تلك المدة، ويكثر من آلات الحرب والعدة، فيتعذر على المسلمين الاستنقاذ، ويصعب عليهم تحصيل المراد، بعد تيسره لو ساعده التوفيق، ولكن المولى جل جلاله المسؤول في هدايته إلى سواء الطريق، فما وقع من الصلح فهو مصلحة للعدو، وهو مفسدة على الإسلام، فلا يكون له في نفس الأمر انبرام، فالصلح المذكور يجب نقضه، لأنه بمقتضى الشرع غير منبرم، فحكمه غير لازم، عند كل من حقق أصول الشريعة بنظر عالم، وفي «التلقين»: لا يجوز ترك الجهاد لهدنة إلا من عذر»، وراجعه.

لا عهد ولا ميثاق للنصارى واليهود:

قال بعض: وكيف يصح الصلح والهدنة من العدو الطالب للمسلمين، النازل بأرضهم، والله سبحانه يقول: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ الآية [التوبة: ٧]، فهو استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثون. مع وغرة صدورهم، يعني: محال أن يثبت لهؤلاء عهد، فلا تطمعوا في ذلك، ولا تحدثوا به أنفسكم، ثم قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا -أي: حلفا- وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨]، أي: عهدا. قاله غير واحد من المفسرين.

والصلح الوارد عنه ﷺ، إنما هو منه إليهم، لأنهم مطلوبون وقتئذ، لا منهم إليه، بحيث ظهر عليهم عليه الصلاة والسلام، وطالبهم في أرضهم؛ جاز صلحه لمصلحة، ولا شك أن العدو الكافر النازل بأرض الإسلام، والذي أخذ لهم الثغور والأمصار، قد ظهر عليهم؛ فكيف يرتقب عهده، وتسكن النفس إليه؟! وكيف يكون للمغلوب على غالبه الكافر عهد وميثاق ؟!!.

ولهذا قال الحافظ الإمام أبو العباس الونشريسي رحمه الله في معياره أثناء جواب له ما نصه: «كيف يوثق بهم عند قوتهم وظهورهم، وكثرة عدتهم، ووفور عددهم، اعتمادا على وفائهم بعهودهم في شريعتهم، ونحن لا نقبل شهادتهم بالإضافة إليهم، فضلا عن قبولها بالإضافة إلينا، فكيف يعتمد على زعمهم بالوفاء ؟!» انتهى الغرض منه.

ومعناه: إن العهد أعلى مراتبه أن يكون شهادة، ونحن لا نقبل شهادة بعضهم على بعض، فكيف نقبلها على المسلمين، ونعتمد على زعمهم ووعدهم بالوفاء؟، فهذا خرق للإجماع، والكتاب والسنة بلا نزاع، قال تعالى مخبرا عن دوام معاداة الكفار للمؤمنين، وأنهم لا ينفكون عنها، بقوله: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧]، انتهى كلام البعض المذكور بلفظه.

وقد تقدم لنا أنه وقعت عهود كثيرة من الطاغية - لعنه الله- لأهل الأندلس، فلما تم له الأمر لم يف لهم بشيء منها، ونقضها عروة عروة، ومكر بهم غاية المكر، وحملهم على التنصر كرها، فهو - أهلكه الله- دائما، إنما يطلب العهود مع كونه غالبا، لفرصة ينتهزها، أو حيلة يستعملها، فيكون الصلح عائدا على المسلمين بالمفسدة كما مر، وقد قال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥]

دور المنافقين في استيلاء الكفرة على أراضي المسلمين:

قلت: وإذا كان مطلق الصلح لا يجوز عند كون الجهاد فرض عين؛ فكيف به المدة الطويلة؟، فكيف بمصالحتهم على الدوام والاستمرار، حتى يحصل للناس اليأس من الجهاد ؟، كما هو حال هذه الأعصار، فإنه آل الأمر فيها، بل وكذا فيما قبلها من الأزمان، إلى أخذ الرشوة من عُبَّاد الصليب والأوثان؛ ليترك قتالهم في كل آن، وزاد الأمر شدة في هذا الأوان، فأخذت منهم في غير ما قطر لتمهد لهم البلاد، وتكون يدهم العليا على سائر العباد، فأربىٰ هذا الآخذ مع زعمه أنه يتدين بدين الإسلام على كل منافق، فلا شك أن عذابه في الآخرة يتضاعف ويسلك به في جهنم أصعب المضايق، إذ كان سببا لهلاك الإسلام والمسلمين، واستيلاء الكفرة الظالمين المجرمين.

قال في «روح البيان» لدى قوله تعالى ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ الآية [التوبة: ٧٥]، ما نصه: «قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بمنافقيها، وجئنا بالحَجَّاج، لفضلناهم».

«يقول الفقير، سامحه الله القدير: هذا الكلام بالنسبة إلى ذلك الوقت، ولو أنه رأى وزراء آل عثمان ووكلاءهم في هذا الزمان؛ لوجدهم أرجح من كل منافق، لأنه بلغ نفاقهم إلى حيث أخذوا الرشوة من الكفار، ليسامحوهم في مقاتلتهم ومحاربتهم، خذلهم الله ودمرهم» انتهىٰ منه بلفظه.

ولو أنه رأى ما فعله بعض قواد المسلمين الآن في كثير من الأقطار، من أخذ الرشوة من أجناس الكفار، ليكونوا من أعوانهم، ويوصلوهم إلى تملك أراضي إخوانهم؛ لضاق به النطاق، وعلم أن نفاق هؤلاء أعظم نفاق، على الشمول والإطلاق.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا في «صفة النار» عن أبي الأحوص قال: قال ابن مسعود: أي أهل النار أشد عذابا؟. فقال رجل: المنافقون. فقال له ابن مسعود: صدقت؛ فهل تدري كيف يعذبون؟ قال لا؛ قال: يجعلون في توابيت من حديد تصمد عليهم، ثم يجعلون في الدرك الأسفل في تنانير أضيق من زج، يقال لها: جب الحزن، تطبق على أقوام بأعمالهم آخر الأبد. وفي الآية الشريفة: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦]، وفقنا الله تعالى وإياهم للتوبة النصوح بمنه وكرمه آمين.

الجهاد اليوم فرض عيني:

ثم ما أشرنا إليه من أن الجهاد اليوم فرض على الأعيان، هو ما تدل له نصوص العلماء، وأقاويل المحدثين والفقهاء، لأنهم قالوا، حسب ما تقدم عنهم: إذا نزل العدو بساحة المسلمين صار فرض الجهاد عينا عليهم أجمعين.

والآن قد نزل العدو في سائر الأقاليم بساحات، وهتك في كل النواحي أستارا وحرمات، وأخذ معاقل وحصونا، وسبى قبائل وبطونا، واستعبد كثيرا من المسلمين، واسترق طوائف من المؤمنين، فلا شك أنه متعين على كل الناس، وواجب على جميع الأنواع منهم والأجناس[1].

فهم آثمون بتركه، مواخذون على عدم القيام به، وأشدهم مؤاخذة بذلك: الولاة، ومن له أعظم القدرة عليه من الأمراء والوزراء والقضاة.

وممن أفتى بأنه فرض عين في هذا الزمان: الشيخ سيدي شقرون بن هبة، أحد حفاظ المتأخرين من العلماء التلمسانيين، راجع: «فلك السعادة، الدائر بين فضل الجهاد والشهادة»: للشريف الفقيه العلامة سيدي محمد المدعو عبد الهادي بن عبد الله بن علي بن طاهر الحسني.

وإذا كان فرض عين، وصولحوا على تركه، وقلنا: إن هذا الصلح لم يصادف محلا، فهل يجوز للمسلمين الإقدام عليه بغير إذن من الإمام؟.

ذكر في «المعيار» من الجواب المشار إليه قريبا لبعض فقهاء تلمسان، ما يفيد الجواز، يعني عند ظن القدرة عليهم، والأمن من مؤاخذة الأمراء وصولتهم، ثم قال ما نصه: «ودليل ذلك أيضا: أن الصلح المذكور فيه ترك الجهاد المتعين، وترك الجهاد المتعين ممتنع، فالصلح المذكور ممتنع، وكل ممتنع غير لازم، فالجهاد في الموضع المذكور لم يزل متعينا من الوخذة (الاحتلال) إلى الآن، قال: وعن ابن القاسم: إن طمع قوم في فرصة في عدو قربهم، وخشوا إن أعلموا الإمام منعهم؛ فواسعٌ خروجهم، وأحب إلي أن يستأذنوه، وقال ابن حبيب: سمعت أهل العلم يقولون: إن نهى الإمام عن القتال لمصلحة حرمت مخالفته إلا أن يدهمهم العدو، وقال ابن رشد: طاعة الإمام لازمة وإن كان غير عدل، ما لم يأمر بمعصية، ومن المعصية: النهي عن الجهاد المتعين على ما تقدم، والله أعلم». انتهىٰ منه بلفظه.

---

(١) وما زال الحكم الشرعي إلى الآن لبقاء الحالة كما كانت عليه.

ويفهم من قوله: «المتعين»: أن الجهاد إذا لم يتعين بأن كان فرض كفاية، حيث يكون المسلمون طالبين للعدو، فإنه لا يجوز بغير إذن من الإمام، وفي أول كتاب: الجهاد من «تكميل التقييد» لابن غازي نقلا عن المازري ما نصه: «الخروج إلى القتال من دون إذن الإمام، بل بحسب ما يسنح لرأي بعض الناس، قد يجني على المسلمين، وقد يحرك عليهم من عدوهم ساكناً، وشرا كامنا، يتسع الخرق فيه عليهم اتساعا لا يقدرون على إصلاحه، وقد قال بعض أصحابنا في سرية خرجت بغير إذن الإمام وهم من القلة بحيث يكونون راكبين للخطر، واقعين في الغرر: «إن الإمام يمنعهم مما غنموه أدبا لهم، فعاقبهم في المال لكونهم مخطئين في تركهم استيذان الإمام، ومن استعجل شيئا قبل وقته عوقب بالحرمان».

وفي «الشامل» ما نصه: «ولا يجوز خروج جيش دون إذن إمامه وتوليته عليهم من يحفظهم، إلا أن يجدوا فرصة من عدو، وخافوا فواته لبعد الإمام، أو خوف منعه، وحرم على سرية بغير إذنه، ويمنعهم الغنيمة أدبا لهم، إلا أن يكونوا جماعة لا يخشون عدوا فلا يمنعهم الغنيمة، ولا ينفل إلا من أطاعه».

وفي «التوضيح» ما نصه: «ابن المواز: ولا يجوز خروج جيش إلا بإذن الإمام، وقال مالك: لمن وجد فرصة من عدو الجهاد بغير إذن الإمام، ولم يجز ذلك لسرية، ويحرمهم ما غنموا، إلا أن تكون جماعة لا يخاف عليها؛ فلا يحرمهم، يريد: وقد أخطأوا».

وقال الشيخ زروق كما في «الحطّاب»: «التوجه للجهاد بغير إذن الإمام سلم الفتنة، وقل ما اشتغل به أحد فنجح».

وهذا في الجهاد الذي هو فرض كفاية كما لا يخفى، والله أعلم.

وجوب استشارة أهل العلم والدين في الجهاد وغيره:

هذا ومن الأمور المتعينة في كل أمر يعرض، وخصوصا الجهاد، الرجوع إلى العلماء والصالحين وأهل الخير، ومن لا تميل به رغبته أو رهبته عن الصواب والسداد، استشارة

واستهداء واسترشادا، واستنصارا بهم وبدعوتهم وإخلاصهم واسترفادا[1].

وقد قال الله تعالى لأعقل خلقه وأهداهم وأرشدهم، سيدنا محمد ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:]، وفي الترمذي وغيره عن أبي هريرة قال: ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ، وفي «كشف الغمة»: «كان رسول الله ﷺ إذا تعارض عنده أمران خطب الناس وقال: «أشيروا علي يا معشر المسلمين».

وأخرج البيهقي في «الشعب» وابن عدي بسند حسن، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال رسول الله ﷺ: «أما إن الله ورسوله لغنيان عنها، ولكن جعلها الله رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشدا، ومن تركها لم يعدم غيا».

وأخرج الخطيب في «رواة مالك» عن أبي هريرة رفعه: «استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا».

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال: «ما شاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم»، وقال ابن عطية: «الشورى من قواعد الدين، وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا مما لا خلاف فيه».

وقال ابن رشد: «لا ينبغي لأحد أن يستشير في شيء من أموره رجاء أن يوافق في ذلك الأمر إلا من يخاف الله عز وجل من أهل الثقة والأمانة، مخافة أن يغشه ولا ينصحه، وينبغي له أن يتوخى في ذلك أهل الفضل والدين تبركا بهم ورجاء أن يوفقوا فيما يشيروا به عليه لفضلهم».

وفي «العهود المحمدية»: «سمعت أخي أفضل الدين يقول: لا تستشر محب الدنيا في شيء من أمور الآخرة، فإن تدبيره ناقص لحجابه بالدنيا عن الآخرة، ولا تستشر أيضا محب نعيم الآخرة من الزهاد والعباد في شيء من الأحوال المتعلقة بالأدب مع الله

---

(١) من أعظم مصائب هذا العصر أن الجماعات الإسلامية من أبعد الناس عن العلماء والفقهاء.

تعالى، فإنه محجوب بذلك عن الحق، وعن حضرته الخاصة، واستشر بعض العارفين بالله في أمور الدنيا والآخرة؛ فإنهم قطعوا المرتبتين، ووصلوا إلى حضرة الحق وعرفوا آدابها، ودرجات أهلها في الأدب، وفي المثل السائر: استعينوا على كل حرفة بصالح من أهلها».

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني في «الكبير» عن أمية بن خالد بن عبد الله بن أسيد الأموي مرسلا: «إنه عليه الصلاة والسلام كان يستفتح ويستنصر بصعاليك المسلمين»، أي: بدعاء فقرائهم وضعفائهم.

وترجم البخاري في الجهاد: باب: من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب. ثم أورد داخل الترجمة حديث مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: رأى سعد أن له فضلا على من دونه، فقال النبي ﷺ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟!!».

وترجم أبو داود: باب: الانتصار برذل الخيل والضعفة. ثم أخرج عن أبي الدرداء مرفوعا: «إبغوني -أي: اطلبوا لي- الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم».

وترجم الترمذي: باب: ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين. ثم أورد حديث أبي الدرداء المذكور.

وترجم النسائي بقوله: الانتصار بالضعيف. ثم أورد حديث مصعب بن سعد المتقدم، بلفظ: عن مصعب بن سعد عن أبيه، أنه: ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب النبي ﷺ: فقال نبي الله ﷺ: «إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»، وأورد أيضا حديث أبي الدرداء بلفظ: «إبغوني الضعيف، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم».

وفي «المدخل»: «الأصل الذي يعول عليه في جهاد العدو، ويعتقد النصر من جهته، هو: التعلق بجناب أولياء الله تعالى، والرجوع إليهم، والصدور عن رأيهم. ألا ترى إلى ما حكي عن عبد الملك بن مروان، لما أن خرج لبعض غزواته، قال: انظروا إلى محمد

بن الحنفية، فذهبوا إليه ثم رجعوا فقالوا: وجدناه في المسجد يصلي، فقال اذهبوا فقد نصرنا، سبَّابته في القبلة عندي خير من كذا وكذا ألف فارس. فمضوا لما كانوا بسبيله، فنصروا وغنموا. وقد تقدم قوله عليه السلام: «ابغوني في ضعفائكم».

وفق الله المسلمين، وأرشدهم إلى القيام بهذه الشعيرة التي هي أساس الدنيا والدين، بمنه وكرمه، وجوده وحرمه... آمين.

المبحث الرابع

إسناد أمور الدين إلى غير أهلها

ومنها وهو المبحث الرابع: إسناد أمور الدين من جهاد وغيره إلى غير أهلها، وتفويضها إلى من لا خبرة له بفرعها وأصلها، ولا عنده علم ولا رأي ولا سياسة ولا تدبير، ولا المعرفة بالجهات التي بها يتيسر العسير، أو لا شجاعة فيه ولا قوة ولا عزم، ولا نهضة ولا إقدام ولا حزم، أو لا دين له ولا مروءة ولا حياء، ولا له عن محارم الله عز وجل انكفاف ولا ارعواء، أو لا إسلام له بالكلية، في ظاهر الأمر أو باطن القضية.

وهذا أيضا من أكبر أنواع الفساد، وأعظم أسباب المهاوي والتلف والنكاد، لأن مثل هذا: إما جاهل لا يدري ما يصنع، ولا ما يضع ولا ما يرفع، فيخبط في القضايا خبط عشواء، وينقلب فيها بما يجعل العيون الحديدة عمياء.

وإما ضعيف العزم والقوى، لا يقدر على مناهضة الحروب ونحوها ولا يقوى، فتعود عليه الكرات، ويرى من عدوه جميع المضرات.

وإما قليل الدين، يزيغ به هواه عن طريق المهتدين، فلا يبالي ببيع دينه بالرشاء، ويوقع غيره في المهالك أبىٰ أو شا.

وإما منافق أو كافر، خادع ماكر، يظهر النصيحة والوداد، وهو يجر إلى الكفر والعناد، ويسعى بجوارحه كلها في ظهور العدا، وإذاقة الإسلام وأهله كؤوس الردى، كما شوهد في كثير، ومشاهدته تغني عن التذكير.

وقد سرى هذا الداء في جميع الأقطار، وعم شؤمه النواحي كلها والأمصار، وصارت المناصب الشرعية كلها بالتوارث و التجالد والحمية، لا بالاستحقاق والأهلية، فضاع الدين بيننا بل اضمحل بالكلية، وعم الجهل والفساد في جميع البرية، وظهر من البدع

المحرمة، والنبذ للشريعة المعظمة، ومن أمارات الساعة ما قد ظهر، حسبما أخبر بذلك سيد البشر، ﷺ، وكرم ومجد وعظم.

أخرج البخاري في «العلم» وفي «الرقاق» وهو مما انفرد به عن بقية الكتب الستة، واللفظ له في كتاب «العلم»، عن أبي هريرة قال: «بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة ؟، فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فَكَرِهَ ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: «أين أُراه السائل عن الساعة؟» قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة»؛ قال: كيف إضاعتها ؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

وقوله: «وُسِّدَ» معناه: أُسند وجعل وفوض، وقوله: «الأمر»؛ أي: المتعلق بالدين، من إمارة وقضاء وإفتاء وتدريس وخطابة وإمامة وجهاد وغير ذلك، وقوله: «إلى غير أهله» أي: إلى من لم توجد فيه شرائط الاستحقاق، كالمرأة والصبي والجاهل، والخائن، والغاش، والبخيل، والجبان، والفاسق، والمنافق، والكافر... ونحوهم.

وفي «عمدة القاري»: «قال الكرماني: أسند الأمر [إلىٰ غير أهله]: فوضت المناصب إلى غير مستحقها، كتفويض القضاء إلى غير العالم بالأحكام كما هو في زماننا، قلت: أي: قال العيني: يا ليت أن يتولى الجاهل بلا رشوة، لأنه يحتمل أن يكون دَيِّناً يستفتي فيما يجهله، فالمصيبة العظمى أن يتولى الجاهل بالرشوة، فلعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش، حيث قال: «لعن الله الراشي»... الخ الحديث، رواه عبد الله بن عمرو بن العاصي، ولا شك أن من لعنه الله لعنه رسول الله ﷺ، وأعظم المصائب أن الديار المصرية التي هي كرسي الإسلام، لا يتولى فيها القضاة والحكام وسائر أصحاب المناصب إلا بالرشى والبراطيل، ولا يوجد هذا في بلاد الروم ولا في بلاد العجم»هـ.

وفي «فتح الباري»: «قال ابن بطال: معنى: أسند الأمر إلى غير أهله: أن الأيمة قد ائتمنهم الله على عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم، فينبغي لهم تولية أهل الدين؛ فإذا قلدوا غير أهل الدين، فقد ضيعوا الأمانة التي قلدهم الله تعالى إياها».

وقوله: «فانتظر الساعة »، أي: الساعة الكبرى، وهي: القيامة، فإن ذلك من أشراطها، ودليل من أدلة دنوها واقترابها، وإنما دل على ذلك لإفضائه إلى اختلال الأمر، وعدم تمام النظام، ووهن أمور الدين، وضعف أحكام الإسلام، بل ذهابها واضمحلالها وإبدالها بأحكام جاهلية. وقال الطيبي: «لأن تغير الولاة وفسادهم مستلزم لتغير الرعية، وقد قيل: الناس على دين ملوكهم ».

إسناد المناصب لغير مستحقيها يؤدي للفساد والانحلال:

قلت: وفي الحديث أيضا إشعار بأن ذلك من أدلة قيام الساعة الصغرى، وهي ساعة ذلك الأمر الخاص، الذي وسد إلى غير مستحقه، بأن يختل نظامه، ويتبدل حاله، وينعكس فيه القصد، فإن كان علما انقلب جهلاً، أو طاعة انقلبت معصية، أو عبادة يطلب تصحيحها حكم ببطلانها، أو طريقة يقصد الوصول إلى الله منها، صارت قاطعة عنه، أو جهادا يطلب به إعزاز الدين والإسلام؛ انعكس فيه الحال، وصارت العزة ذلة، وهكذا في كل شيء، وكل أمر، متى رأيناه قد تولاه من ليس بأهل؛ علمنا من ذلك أنه يؤول إلى الفساد والانحلال والاضمحلال، وأنه لا تكون منه كائنة، ولا يرجى منه خير أصلا، وهذا أمر مشاهد لكل أحد، في كل عصر وكل بلد.

فعلى من ولاه الله أمور المسلمين أن ينصح لله ولرسوله ولنفسه وللمؤمنين، فلا يصحب، أو يرافق، أو يجالس، أو يستشر، أو يواكل، أو يفاوض، إلا مؤمنا كاملا، عالما عاملا، متيقظا حازما، للدين وأهله ناصحا وخادما، ولا يولي أمرا ما من أمور المسلمين إلا من أجمع على استحقاقه له وأهليته، وقيامه به أتم قيام في حضوره وغيبته، وإذا صحب أو ولى من اعتقد أهليته فتبين خلافه؛ أقصاه وعزله في الحين، واستبدله بغيره من أهل العدالة والتقوى والفضل المستبين، حتى تجري الأمور مجاريها، وتقع مواقعها، ولا يقع فيها شيء من الاختلال، لا في الحال ولا في الاستقبال، وهذا، لمن وفقه الله له علامة من علامات سعادته وسعادة رعاياه، وأنهم ممن أراد الله بهم خيرا، وامتن عليهم بمزاياه.

أخرج الترمذي في جامعه في كتاب «الزهد»، وقال: حسن صحيح غريب، وفي

«شمائله» والبخاري في «الأدب المفرد»، كلهم في قصة أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري، عن أبي هريرة مرفوعا: «إن الله لم يبعث نبيا ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالا -أي: لا تمنعه من فساد يعمله- ومن يوق بطانة السوء؛ فقد وقي»، أي: حفظ من كل الأسواء وجميع المكاره.

وأخرج أبو داود والبيهقي في «الشعب» عن عائشة مرفوعا: «إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه. وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه».

وإياه ثم إياه والمترفين المتنعمين المتعمقين في اللذات، المشغولين بنيل الشهوات، الذين لا همة لهم إلا في المأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات والمركوبات؛ فإن هؤلاء لا يصلحون لصالحة دينية أبدا، وترؤسهم من أمارات السوء والسخط حالا وغدا، وانظر إلى قراءة من قرأ: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمَّرنا مترفيها﴾ [الإسراء: ١٦]، بتشديد الميم، من أَمَّرْنا من التأمير، وإلىٰ ما أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» عن علي مرفوعا: «إذا أراد الله بقوم سوءا جعل أمرهم إلى مترفيهم».

ومن قبائحهم؛ شراء الدنيا بدينهم؛ وهو أيضا من أمارات الساعة، قال عليه الصلاة والسلام: «تكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع أقوام دينهم بِعَرَضٍ من الدنيا»، أخرجه الترمذي وقال: غريب من هذا الوجه عن أنس مرفوعا.

فليكن أمير المؤمنين -نصره الله- متيقظا في هذا الباب غاية التيقظ والاستبصار، ناظرا فيه بعين البصيرة والإبصار، فإنه الباب الموصل إلى جميع الخيرات لمن أحكمه واستبصر، ودقق نظره فيه واستخبر، ونيل جميع المضرات لمن أهمله وتساهل، وعنه تكاسل أو تغافل، وقد تقدم ويأتي من معنى هذا المبحث ما فيه كفاية، لمن أمده مولاه بالتوفيق والهداية.

يا ربنا وفق سلطان الإسلام وجميع أتباعه ورعاياه إلى ما فيه رضاك، واهده واهد به حتى تجعله من أهل حضرتك وقربك ورحماك، وانصره النصر المكين، وانشر له في البسيطة لواء الفتح والتمكين، آمين يا رب العالمين.

المبحث الخامس

مصافاة الكفار واتخاذهم أصدقاء

ومنها وهو المبحث الخامس: مصافاة الكفار، واتخاذهم أصدقاء وأولياء من دون المؤمنين الأبرار، ومودتهم والركون إليهم، والتعويل في أمور المسلمين عليهم، وهذه هي الداهية الكبرى، والمصيبة التي أبادت الإسلام وأهلكته دنيا وأخرى.

إذ فيها بلايا لا تنحصر، ورزايا لا يحيط بها مستكثر: كاطلاعهم على عورات المسلمين، وتكشفهم على مخبآت بواطن المؤمنين، وتشجعهم وجرأتهم، وإهانة المسلمين وزوال هيبتهم، مع أنهم كما ذكره الله تعالى في كتابه: لا يألوننا خبالا وإفسادا، ويودون عنتنا كفرا وعنادا، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، وودوا لو كفرنا كفرهم أو أكثر، أو غفلنا عن أسلحتنا وأمتعتنا فيميلون علينا ميلة واحدة، ويكرون كرة متحدة، وما يودون أن ينزل علينا من خير من ربنا، ولا أن ينال فضله أحد من حزبنا.

ولذا حذرنا تعالى من موالاتهم غاية التحذير، ونفرنا منهم أتم تنفير، قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية [آل عمران: ١١٨]، وقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ -أي من دينه- فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨] بمعنى أنه بريء منه، ومفارق دينه.

وقال: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨]، ثم فتنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، أي: إن أفرادها كلها منحصرة في جنابه تعالى فلا ينالها إلا أولياؤه، وقال: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا

﴿ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠-٨١] ، قال المفسرون: أي: خارجون عن الملة والدين.

وقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]. قال ابن عباس: أي: كافر مثلهم.

وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، والركون: هو أدنى ميل.

قال في «الكشاف»: « والنهي متناول للإنحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم، ومجالستهم، وزيارتهم، ومداهنتهم، والرضى بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، ومد العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم، قال: وتأمل قوله ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟﴾، فإن الركون هو: الميل اليسير».

و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قيل: الكفار خاصة، وقيل: أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم، وهو الصحيح، و﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تحرقكم على ركونكم إليهم.

وقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥]، وقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

وقد قال العلماء رضى الله عنهم: يؤخذ من مجموع الآيات: أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار ومودتهم، وأن من كان مؤمنا لا يوالي كافرا ولا يوده، لأن من أحب أحدا امتنع أن يحب عدوه.

وقال بعضهم: حاصل القرآن مقاطعة الكفار من جميع الوجوه، ومباينتهم في كافة الأحوال، فلا مواصلة ولا مودة ولا موالاة بيننا وبينهم أصلا.

وفي كتاب «الجهاد» من «المعيار» من جواب لمؤلفه في تحريم الإقامة بدار الكفر وإيجاب الهجرة منها، بعد ما ذكر فيه كثراً من الآيات المتقدمة ما نصه: «فهذه الآيات القرآنية كلها أو أكثرها، لا سيما قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٨٠]، إلى آخرها، نصوص في تحريم الموالاة الكفرانية، وأما قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، فما أبقت متعلقا إلى التطرق لهذا التحريم، وكذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]، وتكرار الآيات في هذا المعنى، وجريها على نسق وتيرة واحدة؛ مؤكد للتحريم، ورافع للاحتمال المتطرق إليه، فإن المعنى إذا نص لعينه، وأكد بالتكرار؛ فقد ارتفع فيه الاحتمال بلا شك، فتتعاضد هذه النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، والإجماعات القطعية، على هذا النهي، فلا تجد في تحريم هذه الإقامة وهذه الموالاة الكفرانية، مخالفا من أهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فهو تحريم مقطوع به من الدين، كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وقتل النفس بغير حق، وأخواته من الكليات الخمس التي أطبق أرباب الملل والأديان على تحريمها».

إنما يكون الحب في الله والبغض في الله:

وأخرج ابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أَحبَّ في الله، وأبغض في الله، وعاد في الله، ووال في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك. ثم قرأ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ ...﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

وأخرج البيهقي في «الشعب» عن مجاهد عن ابن عباس قال: عاد في الله، ووال في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذاك.

وأخرج الطبراني في «الكبير» عن محمد بن عمرو بن الحمق مرفوعا: «لا يجد العبد ريح الإيمان حتى يحب لله، ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاية من الله».

وأخرج ابن النجار عن عائشة رفعته: «الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليل المظلم، أدناه أن تحب على شيء من الجور وتبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله؟!! قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وأخرج أبو نعيم في «الحلية» عن ابن مسعود مرفوعا: «أوحى الله إلى نبي من الأنبياء أَنْ: قل لفلان العابد: أما زهدك في الدنيا فتعجلت راحة نفسك، وأما انقطاعك إلي فتعززت بي، فماذا عملت فيما لي عليك؟!، قال: يارب ومالك علي ؟، قال: هل واليت لي وليا أو عاديت لي عدوا ؟».

وأخرج الحكيم الترمذي عن واثلة بن الأسقع مرفوعا: «يبعث الله يوم القيامة عبدا لا ذنب له، فيقول له: بأي الأمرين أحب إليك: أن أجزيك بعملك أم بنعمي عليك ؟ قال: رب أنت أعلم أني لم أعصك. قال: خذوا عبدي بنعمة من نعمي. فما يبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة. فيقول: رب بنعمتك ورحمتك. فيقول: بنعمتي ورحمتي. ويؤتى بعبد محسن في نفسه لا يرى أن له سيئة، فيقال له: هل كنت توالي أوليائي؟، قال: يا رب كنت من الناس سلما، قال: هل كنت تعادي أعدائي؟، قال: يا رب لم أكن أحب أن يكون بيني وبين أحد شيء، فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعاد أعدائي».

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب مرفوعا: «أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله»، وأخرج الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس مرفوعا:

«أوثق عرى الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله».

وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ وابن مردوية عن كثير بن عطية عن رجل رفعاه: «اللهم لا تجعل لفاجر عندي يدا ولا نعمة فيوده قلبي، فإني وجدت فيما أوحيته إلي: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وأخرج ابن شاهين في «الأفراد» عن ابن مسعود مرفوعا: «تقربوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، والقوهم بوجوه مكفهرة - أي: عابسة قاطبة- والتمسوا رضى الله بسخطهم، وتوبوا إلى الله بالتباعد عنهم»، وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الشعب»، عن أبي هريرة مرفوعا: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

من مشى مع ظالم فقد أجرم:

وأخرج القضاعي عن معاذ بن جبل مرفوعا: «من مشى مع ظالم فقد أجرم، يقول الله: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

وأخرج الطبراني في «الأوسط» بسند حسن عن جابر مرفوعا: «كل نفس تحشر على هواها، فمن هوى الكفرة فهو مع الكفرة، ولا ينفعه عمله شيئا».

وأخرج البخاري تعليقا عن عائشة، وأحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة، والطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود رفعوه: «الأرواح جنود مُجَنَّدة -أي: جموع مجتمعة- فما تعارف منها -أي: توافق في الصفات وتناسب في الأخلاق- ائتلف، وما تناكر منها -أي: لم يتوافق ولم يتناسب- اختلف». قال في «التيسير»: «قال البيهقي: سألت الحاكم عن معناه فقال: المؤمن والكافر لا يسكن قلب كل واحد منهما إلا إلى شكله».

وأخرج الطبراني في «الكبير» والضياء عن أبي قرصافة مرفوعا: «من أحب قوما حشره الله في زمرتهم»، قال في «التيسير»: «فمن أحب أولياء الرحمان فهو معهم في الجنان، ومن أحب حزب الشيطان فهو معهم في النيران»، وعن عبد الله بن مسعود قال: «لو أن رجلا قام بين الركن والمقام يعبد الله تعالى سبعين سنة وهو يحب ظالما؛ لبعثه الله مع من يحب».

وأخرج الشيخان عن أنس وابن مسعود وأبي موسى مرفوعا: «المرء مع من أحب» وهو حديث متواتر، وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري مرفوعا: «لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي»، قال العلماء: ومصاحبة كامل الإيمان أولى؛ لأن الطباع سراقة.

وأخرج أبو داود بسند حسن عن سمرة بن جندب مرفوعا: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»، وفي رواية أخرى لغيره: «لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم فهو منهم».

وأخرج أبو داود والترمذي عن جرير بن عبد الله مرفوعا: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول الله لم ؟، قال: «لا تراءى ناراهما»، قال في «النهاية»: «أي: يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك، ولا ينزل بالموضع الذي إذا أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها في منزله، ولكنه ينزل مع المسمين في دارهم، وإنما كره مجاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا أمان، وحث المسلمين على الهجرة».

وأخرج البيهقي في «الشعب» وابن عساكر ويعقوب بن سفيان عن الحارث بن معاوية أنه: قدم على عمر بن الخطاب فقال له: كيف تركت أهل الشام ؟، فأخبره عن حالهم: بحمد الله. ثم قال: لعلكم تجالسون أهل الشرك؟، قال: لا يا أمير المؤمنين. فقال: إنكم إن جالستموهم أكلتم معهم وشربتم معهم، ولن تزالوا بخير ما لم تفعلوا ذلك.

وأخرج عبد بن حميد عن حذيفة قال: ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر، وتلى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: «خصلتان إذا صلحتا للعبد صلح ما سواهما من أمره: الطغيان في النعمة، والركون إلى الظلم»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

من تشبه بقوم فهو منهم:

وأخرج أحمد وأبو داود والحاكم في «المستدرك»، وأبو يعلى والطبراني في «الكبير» بسند فيه مقال عن ابن عمر، والطبراني في «الأوسط» بسند حسن عن حذيفة مرفوعا: «من تشبه بقوم -أي: تزيا في ظاهره بزيهم، وفي تصرفه بفعلهم، وفي تخلقه بخلقهم، وسار بسيرتهم وهديهم، في ملبسهم وبعض أفعالهم، كالمشي والحركات والسكنات ونحو ذلك- فهو منهم»، ونحوه أخرجه البزار من حديث حذيفة وأبي هريرة، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» عن أنس والقضاعي عن طاووس مرسلا، كما أشار له في «المقاصد الحسنة».

قال العلماء رضي الله عنهم: من تشبه بأهل الكفر محبة لهم، ورضى بكفرهم؛ فهو كافر كفرا بواحا، ومن فعل ذلك غافلا عن هذا القصد؛ فقد شابههم في أمورهم الجاهلية، ففيه خصلة من خصالهم تلزمه التوبة منها.

وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني: «أقل أحوال هذا الحديث أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]».

وقال في «شرح المواهب»: «القصد من هذا الحديث على هذا التفسير: الزجر والتنفير لا حقيقة ذلك، إذ التزيي بزي الكفار حرام لا ردة، إن لم يذهب بنحو الزنار للكنيسة».

وقال القرطبي: «لو خص أهل الفسق والمجون بلباس؛ منع لبسه لغيرهم، فقد يظن به من لا يعرفه أنه منهم، فيظن به ظن السوء؛ فيأثم الظان والمظنون فيه بسبب العون عليه».

قلت: ومن هذا الحديث ونحوه من الأحاديث التي بمعناه: أخذ الفقهاء ما ذكروه في باب الردة من أن لبس الطرطور (شاشية طويلة) والزنار والبرنيطة (الشمرير) ونحوها مما هو من ملبوس الكفار الخاص بهم: رِدَّة، لكن إن علم أنه فعله محبة فيهم، ورضى بكفرهم؛ حكم بردته مطلقاً اتفاقا، بل إجماعا، وإن لم يعلم أنه فعله كذلك؛ فالحكم بها مقيد بقيود وهي:

١- أن يفعله في بلاد المسلمين التي لا يلجأ فيها إلى الفعل.

٢- وأن لا يكون فعله له على وجه اللعب والهزء والسخرية.

٣- وأن ينضم إليه المشي للكنسية ونحوها.

لا إن فعله في بلاد الكفر حيث يضطر فيها إليه، ولا يتمكن من الترك، كأسير عندهم، يضطر إلى استعمال ثيابهم، فلا حرمة عليه، فضلا عن الردة، ولا إن فعله على وجه اللعب والهزء والسخرية، كالمعروف عند أهل مغربنا بـ: بأَ الشِّيخ، أو لم ينضم إليه المشي إلى الكنيسة ونحوها؛ فلا ينتهي إلى الكفر، وإن كان محرما فيهما شديد التحريم، يعاقب فاعله أشد العقوبة، وانظر شروح خليل وحواشيه لدى قوله في الردة: «وشد زنار».

وقد تظاهرت الأحاديث والآثار وتكاثرت بالأمر بمخالفتهم، والنهي عن التشبه بهم وموافقتهم، كحديث الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو مرفوعا: «ليس منا -أي: من العاملين بهدينا، والجارين على منهاج سنتنا- من تشبه بغيرنا -أي: في نحو ملبس وهيأة ومأكل ومشرب وكلام وترهب وتبتل ونحو ذلك- لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى، فإن تسليم اليهود: الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى:

الإشارة بالأكف»، قال الترمذي: إسناده ضعيف. لكن يقويه الحديث السابق فإنه حديث حسن كما قاله الحافظ في «الفتح» والسيوطي والمناوي وغيرهم.

وحديث مسلم عن أبي هريرة: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم»، وحديث أبي نعيم وأحمد والنسائي عن الزبير بن العوام، والنسائي أيضا عن ابن عمرو، والترمذي عن أبي هريرة رفعوه: «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود».

وحديث أحمد وابن حبان عن أبي هريرة مرفوعا: « غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود والنصارى »، وحديث ابن عبد البر في «التمهيد» عن ابن عمر مرفوعا: «اخضبوا وافرقوا وخالفوا اليهود»، قال ابن عبد البر: إسناده حسن ورجاله كلهم ثقات، وأورده في «الجامع» بلفظ: «اختضبوا »، وعزاه لابن عدي عن ابن عمر، قال في «التيسير»: بإسناد ضعيف.

وحديث ابن حبان في كتاب «أخلاق النبي ﷺ » عن أبي هريرة مرفوعا: «اختضبوا فإن اليهود والنصارى لا تختضب: فخالفوهم»، وحديث الدارقطني والطبراني في «الكبير»، بسند رجاله ثقات عن ابن عباس مرفوعا: «خمروا وجوه موتاكم ولا تَشَبَّهوا باليهود»، وفي رواية: «بأهل الكتاب».

وحديث الترمذي عن عبادة بن الصامت قال: كان رسول الله ﷺ يقوم في الجنازة حتى توضع في اللحد، فمر حبر من أحبار اليهود فقال: هكذا نفعَل!. فقال رسول الله ﷺ «اجلسوا وخالفوهم»، وحديث أحمد عن ابن عمرو قال: رآني رسول الله ﷺ وعلي ثياب معصفرة[1]؛ فقال: «القها فإنها ثياب الكفار ».

وحديث مسلم عن ابن عمر قال: رأى النبي ﷺ علي ثوبين معصفرين فقال: «إن هذا لباس الكفار؛ فلا تلبسهما »، قال الزرقاني في «شرح المواهب»: «أي: حذرا من التشبه بهم فيما هو مخصوص بهم ».

---

(١) معصفرة: نسبة للعُصفُر، وهو نبات برتقالي اللون إلىٰ أحمر يصبغ به.

وحديث أبي داود والترمذي عن ركانة بن عبد يزيد المطلبي مرفوعا: «فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس»، قال ابن العربي: «أي: إن المسلمين يلبسون القلنسوة وفوقها العمامة، أما لبس القلنسوة وحدها فزي المشركين. قال: والعمامة سنة المرسلين»، وقد صح حديث: «لا يلبس المُحْرِمُ القميص ولا العمامة»، فدل على أنها عادة أمر بتركها في الإحرام[1].

قال ابن تيمية: «وهذا بين في أن مفارقة المسلم للمشرك في اللباس مطلوبة للشارع، إذ الفرق بالاعتقاد والعمل بالعمامة حاصل، فلولا أنه مطلوب أيضا لم يكن فيه فائدة»، نقله ككلام ابن العربي قبله في «شرح المواهب».

وحديث أحمد ومسلم والثلاثة عن عمرو بن العاصي مرفوعا: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب: أُكْلة السَّحَر»، وحديث أحمد والبيهقي في «السنن» عن ابن عباس مرفوعا: «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود، صوموا قبله يوما وبعده يوما».

وحديث أحمد أيضا عن أبي أمامة الباهلي قال: خرج رسول الله ﷺ على مشيخة من الأنصار، بيض لحاهم، فقال: «يا معشر الأنصار حمروا وصفروا؛ وخالفوا أهل الكتاب»، قال: فقلنا: يا رسول الله إن أهل الكتاب يتسرولون ولا يأتزرون؛ فقال: «تسرولوا وائتزروا وخالفوا أهل الكتاب»، قال: فقلنا: يا رسول الله إن أهل الكتاب يتخففون ولا ينتعلون. قال: فقال: «فتخففوا وانتعلوا، وخالفوا أهل الكتاب»، قال: فقلنا: يا رسول الله؛ إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم، قال: فقال: «قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب»، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدا.

وأما الآثار: فأخرج أبو عبيد في «الغريب» عن أبي أسامة: أن عمر بن الخطاب قال: «أدبوا الخيل، وإياكم وأخلاق الأعاجم، ومجاورة الخنازير، وأن يرفع بين أظهركم الصليب»، وأخرج مسلم وغيره عن أبي عثمان النهدي قال: كتب إلينا عمر ونحن

---

(١) للمؤلف -رضي الله عنه- مؤلف حافل في هذا الباب اسمه: «الدعامة في أحكام سنة العمامة». توسع فيه في أمور التشبه بالكفار. طبع ببيروت في حياة مؤلفه.

بأذربيجان: «يا عتبة بن فرقد، إنه ليس من كَدِّكَ ولا كد أبيك ولا كد أمك، فأشبع المسلمين في رحالهم، مما تشبع منه في رحلك، وإياكم والتنعم وزي أهل الشرك، ولَبُوس الحرير»، وأخرجه أيضا ابن حبان في صحيحه وقال فيه: «وإياكم وزي الأعاجم».

وفي «الدر المنظم» للعزفي نقلا عن ابن وضاح قال: حدثنا محمد بن يحيى الصدفي، حدثنا أسد بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم عن أبي عثمان النهدي أن عمر كتب إلى عتبة بن فرقد: «إياك والتنعم وزي الأعاجم».

وأخرج العسكري من حديث حماد عن حميد الطويل قال: كان الحسن يقول: «إذا لم تكن حليما فَتَحَلَّم، وإذا لم تكن عالما فتعلم، فقلَّ ما تشبه رجل بقوم إلا كان منهم»، وأخرج أيضا من حديث زافر عن عمرو بن عامر البُجَلي قال: قال الحسن: «هو والله أحسن منك رداء وإن كان رداؤك حبرة رجل رداه الله الحلم، فإن لم يكن حلم -لا أبالك- فتحلم، فإنه من تشبه بقوم لحق بهم».

وقال العزفي في «الدر المنظم»: قال ابن وضاح: وحدثنا بهلول بن راشد عن سفيان الثورى قال: دعي حذيفة بن اليمان إلىٰ طعام، فلما أقبل من باب البيت رأى شيئا من زي الأعاجم؛ فرجع وهو يقول: «يحذر الرجل أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر». ثم قيل له: كيف ذلك أصلحك الله؟، فقال: «من تشبه بقوم فهو منهم»، وقال فيه أيضا: قال أحمد بن زياد: قال لنا ابن وضاح: جاء في الحديث أن عمر بن الخطاب قال: «اجتنبوا أعياد اليهود والنصارى، فإن السخط ينزل عليهم في مجامعهم، ولا تتعلموا رطانتهم فتتخلقوا ببعض أخلاقهم»، وروىٰ أن نفراً من أهل العراق قالوا لعبد الله بن عمر: كيف تقول في النيروز؛ فإن أهل بلدنا يعظمونه ويهدون لنا فيه؟، كأنهم يسألونه عن تعظيمه، فقال ابن عمر: «لا أدري ما نيروزكم هذا، من تشبه بقوم فهو منهم».

ثم قال العزفي: قال ابن وضاح: وسألت أبا زكريا يحيى بن سليمان عن إمام يقبل هدايا الصبيان في أعياد النصارى ويعظمها، فقال: وما أراه مسلما، قلت: لا يصلى وراءه؟ قال: «أنا أقول لك: ما أراه مسلما وأنت تقول لا يصلى وراءه؟!!» قال ابن

وضاح: وسألت سحنون عن ذلك فقال: «رجل سوء »هـ[1].

وقال مالك بن دينار: «أوحى الله عز وجل إلى نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن: قل لقومك لا يدخلوا مداخل أعدائي، ولا يلبسوا ملابس أعدائي، ولا يركبوا مراكب أعدائي، ولا يطعموا مطاعم أعدائي، فيكونوا أعدائي، كما هم أعدائي».

وفي «نزهة الناظرين » للشيخ تقي الدين اليابي ثم الحلبي في كتاب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال: «المسألة الرابعة من المنكرات: موالاة اليهود والنصارى، ومشاركتهم في أعيادهم»، ثم نقل عن الإمام أبي محمد في «معالم التنزيل» قال في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾: يوافقهم ويعينهم ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ثم قال: «روى البيهقي عن عمر قال: لا تعلموا رطانة الأعاجم ولا تدخلوا على المشركين في كنائسهم يوم عيدهم، فإن السخط ينزل عليهم، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: من صنع نيروزهم ومهرجانهم، وتشبه بهم حتى يموت؛ حشر معهم». وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]: هو أعياد المشركين. وقال عبد الملك بن حبيب من أصحاب مالك: لا يعانون على شيء من عيدهم؛ لأن ذلك من تعظيم شركهم، وعونهم على كفرهم»، والآثار أيضا في هذا المعنى كثيرة والله أعلم.

وفي «القوت »: «روينا في خبر أن الله تعالى أخذ على كل مؤمن في الميثاق أن يبغض كل منافق، وأخذ على كل منافق أن يبغض كل مؤمن»، وذكر قبله أن بغض المبتدع، والفاجر المجاهر، والظالم المعتدي، وترك موالاتهم ونصرتهم؛ واجب على المؤمنين.

وقال بعض العلماء: يجب على كل مؤمن أن يستحضر بغض كل كافر لنبينا، وعظيم دعواتهم علينا، وطعنهم في ديننا، وأن كل كافر ولي الشيطان اللعين، بل هو الشيطان بعينه.

---

(١) ما رأي الذين يحتفلون اليوم عندنا بأعياد النصارىٰ ليلة عيد الميلاد، ويعطلون في رأس السنة الميلادية ويتهادون فيه، ويقدمون الهدايا للموظفين والمسؤولين؟ ومارأي الذين يعطلون يومي السبت والأحد مع اليهود والنصارىٰ ويرفضون تعطيل يوم الجمعة ويعرقلون صلاتها؟ ويدعون مع ذلك أنهم يمثلون الشعب المسلم؟. (إدريس).

وقيل: من والى أعداء الله تبرأ الله منه، ووكله إليهم. وقيل أيضا: مخالفة الاعتقاد، تمنع الوداد. وسئل ابن عباس عن ذبائح نصارى العرب، وعن ذبائح بني تغلب، وهم أهل نجران؛ فقرأ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

منع استشارة المشركين في أمور المسلمين:

وأخرج النسائي عن أنس مرفوعا: «لا تستضيئوا بنار المشركين، ولا تنقشوا على خواتيمكم عربيا»، وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الشعب» عنه أيضا مرفوعا: «لا تنقشوا في خواتيمكم عربيا ولا تستضيئوا بنار المشركين»، فذُكر ذلك للحسن فقال: نعم؛ لا تنقشوا في خواتيمكم محمدا، ولا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم.

قال الحسن: وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وفي «النهاية»: لا تستضيئوا بنار المشركين، أي: لا تستشيروهم ولا تأخذوا آراءهم، جعل الضوء مثلا للرأي عند الحيرة، وقيل معناه: لا تقربوا منهم، كما قال في الحديث الآخر: «لا تراءى ناراهما»[1].

منع الاستعانة بالمشركين في القتال:

قلت: ويحتمل أن يكون معناه: لا تستعينوا بهم، ولا تستنصروا بجنابهم.

وقد أخرج أحمد و الجماعة إلا البخاري، عن عروة عن عائشة أنه عليه السلام خرج

---

(١) اليوم لا نستشيرهم فقط، بل هم خبراؤنا التقنيون الذين يقررون ويقترحون علينا ما يجب أن تكون عليه سياستنا في الاقتصاد والمالية والتعليم والإعلام، والثقافة وغيرها من شؤون حياتنا الاجتماعية، ونستشيرهم فيما يجري في مؤتمراتنا الخاصة، بينما نحن لا نعرف عن أسرارهم شيئاً، وثقة العرب في مشورتهم ونصائحهم ووعودهم السياسية هي سبب جميع الهزائم التي حلت بهم. (إدريس).

إلى بدر فلحقه رجل من المشركين، يذكر منه جرأة ونجدة، ليقاتل معه، فقال له عليه السلام: « ارجع فلن أستعين بمشرك»، قال الطرطوشي في سراجه: « وهذا أصل عظيم في: أن لا يستعان بكافر. قال هذا وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي ﷺ ويراق دمه، فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين؟!!!»هـ.

وأخرج أحمد أيضا وأبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن عائشة أيضا مرفوعا: «إنا لا نستعين بمشرك»، وأخرج أيضا والحاكم في« المستدرك» وصححه وابن أبي شيبة وإسحاق بن راهوية والطبراني في معجمه عن خبيب بن يسار مرفوعا: «إنا لا نستعين بالمشركين».

وأخرج إسحاق بن راهوية في مسنده عن أبي حميد الساعدي مرفوعا: « إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين»، وأخرجه الواقدي في كتاب «المغازي» بلفظ: «إنا لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك».

وفي «المختصر» عطفا على ما يحرم: «واستعانة بمشرك إلا لخدمة»، وفي «المدونة»: « ولا يستعان بالمشركين في القتال إلا أن يكونوا نواتيا وخدما فلا بأس به»، ومثله في ابن الحاجب. فقال في «التوضيح»: لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[النساء:٨٩]، ولما في الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام لليهودي الذي تبعه: «ارجع فلن نستعين بمشرك».

قال: «واختلف إذا خرج الكفار من تلقاء أنفسهم؛ فظاهر ما في سماع يحيى أنهم لا يمنعون، وقال أصبغ: يمنعون أشد المنع، وقيل في قوله تعال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: وليا يتولى شيئا من مهماتكم، ونصيرا ينصركم على أعدائكم».

وقال أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾: «لا تنصروهم ولا تستنصروا بهم».

فتوى العلماء في الاستنصار بالنصارى على المسلمين:

قلت وهذا كلّه في الاستعانة بهم في الحرب على أمثالهم من المشركين، **وأما الاستعانة بهم على قتال المسلمين، فلا يكاد يصدر من مسلم، ولا يخطر جوازه إلا على بال من قلبه وراء لسانه**، وقد ذكر البُرْزُلّي في «كتاب القضاء» من نوازله أن أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني: «استفتى علماء زمانه، وهم من هم، في انتصار ابن عباد الأندلسي بالكتب إلى الإفرنج ليعينوه على المسلمين، فأجابه جلهم بردته وكفره»، انظر «نفح الطيب» للمقَّرى، و«نزهة الحادي» لليفرني، في ذكر الخبر عن استصراخ مولاي محمد بن مولاي عبد الله بالنصارى، وما وقع بسبب ذلك.

ومما يدخل في النهي عن الاستعانة بهم: استخدامهم في أمر الديوان ونحوه، وجعلهم عمالا على المسلمين، أو كتبة، أو وزراء، أو ما أشبه ذلك، مما فيه توليتهم على شيء من أمور المسلمين، أو على مسلم في شيء من الأشياء ولو قليلا.

وقد نص غير واحد من العلماء على تحريمه ومنعه لثبوت النهي عنه بالنصوص المؤكدة؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «الإسلام يعلو ولا يعلى عليه»، أخرجه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة»، والدارقطني والبيهقي في «السنن» وغيرهم عن عائذ بن عمرو المزني.

حرمة استخدام الكافر خدمةَ عَمَالةِ على المسلمين:

وقد شاع في هذه الأعصار، في كثير من الأقطار؛ توليتهم على المؤمنين، وإعلاؤهم بالتحكم في رقاب المسلمين، من غير مبالاة بما يحصل للمسلمين في ذلك من الذل والهوان، ولا بما يلحقهم به من الإذاية البليغة والنقصان، فخالفوا كتاب الله، وغيروا سنة رسول الله، ﷺ، فليحذروا شؤم هذه الرذيلة الجسيمة، وليعرفوا وخامتها وما ينشأ عنها من القبائح العظيمة، وفقنا الله وإياهم لسلوك رضاه، ومن علينا في الدارين بفضله ورحماه... آمين.

وقد قال بعض من تكلم على بعض أحاديث «الجامع الصغير» في الكلام على حديث: «تقربوا إلى الله ببغض أهل المعاصي»، ما نصه: «ويحرم على الأمير أن يستخدم الكافر خدمة عمالة[1] على المسلمين، كأن يجعله كاتبا عليهم أو قابضا منهم، أو وزيراً لأن فيها من الأمور القبيحة ما لا يرضاه العدو لعدوه فكيف يرضاه مسلم لأمة محمد ﷺ؟!!»، وقال في «زاد المعاد» في الكلام على حديث: «إن للمسلمين يدا على من سواهم» ما نصه: «وهذا يمنع من تولية الكفار شيئا من الولايات».

ويُحكى أن والي الإسكندرية في زمن الشيخ أبي الوليد الطرطوشي استعمل يهوديا على قبض الأعشار، فجعل يُضَيِّقُ على الناس؛ فشكى الناس إلى الطرطوشي، فكتب إلى الوالي يقول له: «لقد وليت ذميا علينا، ولم تشكر لفضل الله منة، ألم تسمع لقول الله فيهم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وبعث بذلك إلى الوالي، فقرأ ذلك بحضرة جلسائه، فقالوا له: لقد تجاسر عليك هذا العالم، فقال: والله ما قال إلا حقا. فعزل اليهودي وتاب إلى الله من تولية الكفار.

ويحكى أيضا عن أبي الوليد هذا أنه لما دخل على الخليفة في وقته بمصر، ورأى بإزائه وزيرا راهبا قد سلم إليه قياده، وأخذ ينفذ كلامه في المسلمين؛ أنشده:

يا أيها الملك الذي جُودُهُ ... يطلبه القاصد والراغب
إنّ الذي شُرِّفْتَ من أجله ... يزعُم هذا أنه كاذب

فاشتد غضب الخليفة إذ ذاك على الراهب حين سمع هذين البيتين، وأمر به فسحب وضرب وقتل.

ويحكى أيضا أن أمير المؤمنين المتوكل أقصى اليهود والنصارى، ولم يستعملهم، وأذلهم، وخالف بين زيهم وزي المسلمين، وجعل على أبوابهم مثالا للشياطين، لأنهم أهل لذلك، وقرب منه أهل الحق، وباعد عنه أهل الباطل والأهواء، فأحيىٰ الله به الحق وأمات به الباطل. قال الطرطوشي في «السراج»: «فهو يذكر بذلك ويترحم عليه ما دامت الدنيا».

---

(١) أي: ولاية، مثل القيادة والوزراة وغير ذلك.

وفي «التيسير»: «إنه كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه مملوك رومي اسمه: وثيق، وكان أمينا، فكان يقول له: أسلم أستعين بك على أمانة المسلمين. فيأبى، فيقول له: إنا لا نستعين على أمانتهم بمن ليس منهم. فلما احتضر عمر أعتقه».

ويروى أن بعض عماله كتب إليه: إن العدو قد كثر، وإن الجزية قد كثرت، فنستعين بالأعاجم. فكتب إليه عمر: «إنهم أعداء الله سبحانه، وإنهم لنا غششة، فأنزلهم حيث أنزلهم الله ولا تردوا إليهم شيئا». وقال لأبي موسى لما أراد أن يستكتب كاتبا نصرانيا: «مالك -قاتلك الله- أما سمعت قوله تعالى: ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ [آل عمران: ٨٨] الآية، وقوله: ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة: ٥١]، قال: فقلت: له دينه، ولي كتابته. فقال: «لا أكرمهم بعد إذ أهانهم الله، ولا أعزهم بعد إذ أذلهم الله، ولا أؤمنهم بعد إذ خوفهم الله، ولا أئتمنهم بعد إذ خونهم الله، ولا أدنيهم بعد إذ أقصاهم الله» قال: فقلت: إنه لا يتم أمر البصرة إلا به. فقال: «مات النصراني والسلام»، يعني: هب أنه مات، فما تصنع بعده اصنعه الآن، واستعن بغيره من المسلمين. وكتب رضي الله عنه إلى أهل الأمصار: «لا تكاتبوا أهل الأديان فتجري بينكم وبينهم المودة».

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أنه قيل له: إن هاهنا غلاما من أهل الحيرة حافظا كاتبا، فلو اتخذته كاتبا. فقال: «قد اتخذت إذن بطانة من المؤمنين».

والظاهر حمل الحديث، أعني: حديث: «لا تستضيئوا » إلخ، على ما هو أعم من الاستشارة والاستعانة والاستنصار وغير ذلك كأخذ العلم عنهم، والتطبب بهم، وما أشبه ذلك.

التحذير من رياض الأطفال ومدارس النصارى اللادينية:

أما أخذ العلم عنهم من حساب أو طب أو غيرهما؛ فقد بالغ في التحذير منه في «المدخل» في السفر الثاني، في: فصل: انصراف الصبيان من المكتب. قائلا ما نصه: «وقد تقدم أنه: ينبغي للآباء أن ينظروا لأولادهم من المؤدبين من هو أورع وأزهد وأتقى،

إلى غير ذلك مما تقدم، لأنه رضاع ثان للصبي بعد رضاع الأم، وإذا كان ذلك كذلك، فليحذر ما أحدثه بعض عوام المسلمين بأولادهم، من أنهم يخرجونهم من المكتب الذي يقرؤون فيه كتاب ربهم عز وجل، ويتعلمون فيه شريعة نبيهم عليه الصلاة والسلام، ويذهبون بهم إلى كُتَّاب النصارى لتعليم الحساب، وهذا رضاع ثالث بعد رضاع المؤدب، وقد قيل: الرضاع يغير الطباع، فهذا أمر شنيع قبيح من الفعل؛ لأن الولد لم تحصل له قوة الإيمان بعد، ولم يقرأ العلم، ولم يعرف أقوال العلماء، وقد تسبق إليه الدسائس من النصراني الذي يقرأ عليه الحساب، أو من الجماعة الذين عنده، صغارا كانوا أو كبارا».

«ثم إن النصراني مع ذلك يؤدبه على ما يخطر له ويمر بباله من كفره وطغيانه، ويُظْهر أن ذلك من قبل تعليمه الحساب، وهذا لا يرضى به عاقل، ولا من فيه مروءة من المسلمين، والصبي في هذه السن قابل لكل ما يلقى إليه، مثل الشمع أي شيء علمت عليه طبع فيه، فيخاف على الولد -وهو الغالب- أن يتغير حاله، فيرجع مكان الصدق كذبا وبهتانا، وموضع النصيحة غشا وخديعة، وموضع الألفة بالمسلمين انقطاعا ووحشة، ومكان الاستسلام والانقياد خبثا ومداهنة... إلى غير ذلك من مكرهم وخصالهم الرديئة، وإذا كان ذلك كذلك؛ فيخشى عليه أن يركن إلىٰ قول النصراني، وإلى شيء ما من اعتقاده، أو استحسان حال من أحواله، وقد قال مالك رحمه الله تعالى: لا تمكن زائغ القلب من أذنيك، لا تدري ما يعلقك من ذلك...» إلى آخر ما قال في «المدخل» في هذه المسألة، فلينظر فيه فإنه نفيس غاية، وقد بين ما فيها من المفاسد زيادة على ما ذكرنا، وشفا الغليل جزاه الله خيراً.

قلت: وقد كثر هذا الذي ذكره الآن في البلاد المشرقية، وأحدثوا فيها في كثير من المدن الإسلامية مدارس يتعلم فيها أولاد المسلمين الألسن[1]، وكتابة النصارى والحساب والطب وغير ذلك، والمعلمون فيها إما نصارى، وهو الغالب، وإما بعض من يزعم

---

(١) أي: اللغات.

الإسلام وأفعاله أفعال النصارى، وزيه زيهم، ويقع في هذه المدارس من الفساد بأولاد المسلمين المُرْد، زيادة على فساد عقيدتهم ودينهم ما الله به أعلم، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ذهاب الدين وغربته وغربة أهله، وذهاب عقول المسلمين وآرائهم، وظهور شعائر الكفر وأهله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نسأله سبحانه أن يلطف بنا فيما جرت به مقاديره، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة بمنه وكرمه. آمين.

ومن كتاب «البيان والتحصيل»: «سئل مالك رحمه الله عن تعليم أولاد اليهود والنصارى الكتابة بغير قراءة القرآن فقال: لا والله ما أحب ذلك، يصيرون الى أن يقرأوا القرآن. قال: وسألته عن تعليم المسلم عند النصراني كتاب المسلمين أو كتاب الأعجمية. فقال: لا والله لا أحب ذلك. وكرهه، قال: ولا يتعلم المسلم عند النصراني ولا النصراني عند المسلم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، قال ابن رشد رحمه الله: «أما تعليم المسلم أبناء اليهود والنصارى، أو تعليمهم، أي: المسلمين عندهم، أي: النصارى، فالكراهة في ذلك بينة، وقد قال الإمام ابن حبيب رحمه الله: إن ذلك مَسْخَطَةٌ ممن فعله، مسقطة لإمامته وشهادته». نقله في «المدخل» في: فصل: تزويق الألواح.

مفاسد التطبب عند النصارى واليهود:

وأما التطبب بهم ففيه أيضا مفاسد:

منها التغرير بالنفس للقطع بغشهم وإذايتهم لمن ظفروا به من المسلمين، سيما إن كان المريض كبيرا في دينه أو علمه أو هُما، خصوصا إن كان هذا المتطبب يهوديا، فإن القاعدة عندهم في دينهم أن من نصح مسلما فقد خرج عن دينه، وأن من استحل السبت فهو مهدر الدم عندهم، حلال لهم سفك دمه، والمسلمون يستحلونه فيعملون فيه ما يرى اليهود تحريمه، فدمهم عندهم حلال.

وفي «الديباج» لابن فرحون في ترجمة المازري أنه: «كان يفزع إليه في الفتوى في الطب، كما يفزع إليه في الفتوى في الفقه، قال: يُحكى أن سبب قراءته الطب ونظره

فيه، أنه مرض فكان يطببه يهودي، فقال له اليهودي يوما: يا سيدي مثلي يطب مثلكم، وأي قربة أتقرب بها في ديني مثل أن أفقدكم للمسلمين؟!، فمن حينئذ نظر في الطب».

وقتلهم لغير ما واحد من المسلمين معلوم، وغشهم وخداعهم مشاهد غير مكتوم، قال في «المواهب اللدنية»: «ولا ريب أن من خاطر بنفسه -أي: من المسلمين- بالتطبب عندهم؛ يخشى عليه أن يدخل في عموم النهي فيمن قتل نفسه بشيء، قال: وقد كثر الضرر في هذا الزمان بأهل الذمة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، والله تعالى يرحم القائل:

لعـن النصـارى واليهـود فـإنهـم ... بلغـوا بمكـرهـمُ بنـا الآمـالا

خـرجـوا أطبـاء وحُسَّـابـا لكـي ... يتقـاسـمـوا الأرواح والأمـوالا

وقد قيل:

كـل العداوة قد تُرجىٰ إزالتها ... إلا عداوة من عاداك في الدين

ومنها: تأسي غيره من المسلمين به في ذلك، سيما إن كان ممن يقتضى به؛ فيدخل فيمن سن سنة سيئة.

ومنها: تعظيم شأنهم سيما إن كان المريض الذي يباشرونه رئيسا، فإنهم يتفاخرون بمباشرته، ويتعززون على المسلمين بسبب صلتهم به والترداد لبابه، وقد أمر الشارع بتصغير شأنهم، وهذا عكسه.

ومنها: النظر في وجوههم الخبيثة، والتودد لهم ظاهرا بالقيام والإجلاس على الفرش، وتهيئة الطعام الحسن وغير ذلك، وفيه من القبح والمذمة والخسة والدناءة والتدنيس للعرض والدين ما لا يخفى.

ومنها: تذلله لهم، والمؤمن لا يذل نفسه، سيما لكافر.

ومنها: محبته لهم بقلبه إن ظهر له منهم تودد بالكلام ونحوه، وانتفاع في المعالجة، فلا يقدر بعد ذلك على عداوتهم كما أمره الله سبحانه.

وفي «المنن الكبرى» للشعراني: «ومما من الله به علي: حمايتي من التداوي بإشارة كافر، لعدم الثقة بقوله شرعا، وقلَّ من يسلم من ذلك في هذا الزمان، وقد سمعت سيدي عليا الخواص -رحمه الله تعالى- يقول: في ضمن التداوي بإشارة الكافر نكتة تخفى على كثير من العلماء، فضلا عن غيرهم؛ وهي: إذا وافق شفاؤه إشارة ذلك اليهودي مثلا، يصير يوده بقلبه قهرا عليه، فيريد أن يتخذه عدوا كما أمره تبارك وتعالى فلا يقدر على نفسه أن يعاديه، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١].

«قال الشيخ محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه: وإنما قال تعالى: وعدوكم. ولم يكتف بقوله: عدوي؛ لعلمه بأن في عباده من لا ينزجر عن مودة الكافر لكونه عدوا لله وحده، فلذلك قال: وعدوكم؛ حتى لا يبقى لنا عذر في مودة الكافر. فاعلم يا أخي ذلك وافهمه، واعمل على التخلق به، والله سبحانه يتولى هواك، ويدبرك فيما أبلاك، والحمد لله رب العالمين».

ومنها: إعانتهم على كفرهم وفسقهم بما يعطيه لهم.

ومنها: إن كان المريض امرأة مسلمة؛ تمتع عدو الله الكافر بالنظر إليها وجسها، سيما مع فقد الضرورة الداعية لمباشرة الكافر، لوجود المسلم، وذلك بعيد من الغيرة الإسلامية، مع أنه قد تقرر في الشرع: حرمة تمكين الكافر من النظر إلى شيء من بدن المرأة المسلمة، فضلا عن جَسِّهِ من غير ضرورة مُلِحَّة، وانظر «المدخل» في الفصل الذي عقده في التحذير من معالجة الطبيب والكحال الكافرين.

وقد قال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: دليل تخليطك: صحبتك للمخلطين، ودليل انقطاعك: صحبتك للمنقطعين. وقال بعض العارفين: مخالطة الجاهل -أي: فضلا عن الكافر- أضر من السم، وأنفذ من السهم. وقال أحمد بن حرب: ليس شيء أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين، والنظر إلى أفعالهم، وليس شيء أضر على القلب من مخالطة الفاسقين، والنظر إلى أفعالهم.

وكان الحسن البصري يقول: مصارمة الفاسق قربة إلى الله تعالى.

ورضي الله عن الإمام أحمد بن حنبل؛ فإنه كان إذا لقي كافرا يغمض عينيه، أي: لكون النظر في الكافرين ينقص الإيمان، كما أن النظر في المؤمنين يزيد فيه. وعن الأستاذ سيدي هبة -وكان عالما تقيا- أنه: كان إذا مر لبعض شأنه وحاذى قصر أولياء اليهود، شمر عن ساقيه ويقول لأصحابه: اجروا لئلا ينزل عليهم غضب فيصيبكم معهم!! ولا يزال يجري مع أصحابه حتى يبعدوا عن قصورهم.

وفي «المقصد الأحمد» لأبي محمد سيدي عبد السلام القادري، أن العارف بالله سيدي أحمد بن عبد الله مَعَنْ الأندلسي، كان لا يبيع اليهود ولا يبتاع منهم شيئا أبدا، بل إذا أحس بنيابة أحد من المسلمين عنهم في الشراء لم يبايعه، وما أكل يهودي قط طعامه ببيع ولا بغيره، معاداة لهم في الله ورسوله، وتنزها عن ملاقاة وجوههم الخبيثة، وكثيرا ما كان ينهى عن مخالطتهم ومبايعتهم وسائر معاملاتهم رضي الله عنه.

فإن قيل: من الناس من تلجئه الضرورة إليهم، فلا يجد بدا من مخالطتهم، وإظهار المودة لهم، فما يصنع من ألجأته الضرورة لذلك؟.

قلنا: من ألجأته الضرورة الشرعية لهم اقتصر في معاملتهم ومخالطتهم على القدر الذي تلجيء إليه، من غير أن يشين دينه بشيء مما يدنسه، أو ينهى عنه الشرع المطاع.

وقد ذكر بعض العلماء أن البشاشة في وجوههم ظاهرا مع عدم ميل القلب إليهم بالمحبة تجوز إذا دعت إليها ضرورة شرعية؛ كدفع إذاية عنه أو عن مسلم، لقول أبي الدرداء: «إنا لَنَبُشُّ -وفي لفظ: لَنُكَشِّر- في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم»، وكذلك المصافحة، لقول علي بن أبي طالب: «إنا لنصافح أَكُفًّا نرى قطعها». وكذلك القيام ونحوه إذا كان تركه يؤدي لمفسدة أعظم.

وفي كتاب: الجامع من نوازل البرزلي من جواب لعز الدين ما نصه: «وأما الكفار؛ فلا يقام لأحدهم، لأنا أمرنا بإهانتهم، وإلزامهم لإظهار الصغار، وكيف يفعل ذلك بمن

يكذب الله ورسوله؟، فإن خفنا من شرهم ضررا عظيما؛ فلا بأس بذلك، لأن التلفظ بكلمة الكفر جائز عند الإكراه. قال: وأما إكرامهم بالألقاب الحسان؛ فلا يجوز إلا لضرورة أو حاجة ماسة، وينبغي أن تهان الكفرة والفسقة زجرا عن كفرهم وفسقهم وغيرة لله عز وجل»هـ.

قال البرزلي بعده: «وقوله: لا يقام للكافر إلا أن يخاف منه شدة الضرر: في «المدارك»: حكى الدارقطني أن وزير المعتضد دخل على القاضي إسماعيل، وكان نصرانيا، فقام له ورحب به، فرأى إنكار من شهد عنده ذلك؛ فقال: علمت إنكاركم، قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ ﴾ الآية [الممتحنة: ٨]، هذا رجل يقضي حوائج المسلمين، وهو سفير بيننا وبين المعتضد، وهذا من البر. فسكت الجماعة عند ذلك، ولعله رأى هذه ضرورة، وتأنس بظاهر الآية، وخاف من أذاه إن لم يفعل ذلك».

ثم قال البرزلي: «وكذا تلقيب الكافر بقائد وشيخ وتكنيته -أي: لا بأس بهما- وقد ورد في الأحاديث الكنية، وكنى في القرآن أبا لهب، واسمه: عبد العزي، وسمعت شيخنا (أي: ابن عرفة) نادى مقدم النصارى بتونس بالقائد، وذلك إذا بنيت على ذلك مصلحة». انتهىٰ منه بلفظه.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين أولياء، فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم في الدين، وذلك قوله: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران: ٢٨].

حكم الدعاء للظالم بالبقاء:

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: «التقية جائزة إلى يوم القيامة»، قلت: والحذر الحذر من أن يسرقه ذلك حتى يميل أو يركن بقلبه أدنى ميل أو ركون إليهم؛ فإنه مقام زلت فيه أقدام، لم تؤيد بنور من الملك العلام، وآل بها الحال بسببه إلى استحسان

أحوالهم، والميل بالقلب والقالب إليهم، والدعاء لهم ببقاء الدولة والنصر وما أشبه ذلك، مما لا تدعو ضرورة لفعله هنالك، وأي ضرورة تلجيء المسلم إلى مثل هذا الفعل الوخيم؟!! لولا المداهنة والميل إلى الدناءة والوصف الذميم، نسأل الله العافية.

وقد أخرج البيهقي في «الشعب» وابن أبي الدنيا في «الصمت» عن الحسن، وأبو نعيم في «الحلية» عن سفيان الثوري قال: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه»، وبعضهم كالزمخشري في: تفسير سورة هود، والغزالي في موضعين من «الإحياء»، جعله حديثا مرفوعا، قال في «المقاصد»: «ولم نره في المرفوع».

قال الطرطوشي في سراجه: «وهذا -يعني: باب الدعاء للظالم بالبقاء- باب ينبغي لذوي الدين حفظه. قال: وقد رأى بعض الفقهاء الخروج من هذه العهدة بالتعريض».

وأخرج ابن أبي الدنيا في «الصمت»، وابن عدي في «الكامل» وأبو يعلى والبيهقي في «الشعب» بسند ضعيف عن أنس مرفوعا: «إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق»، وفي لفظ عزاه في «الجامع» لابن أبي الدنيا في كتاب «ذم الغيبة»، وأبي يعلى والبيهقي في «الشعب» عن أنس، وابن عدي في «الكامل» عن أبي هريرة: «إذا مدح الفاسق غضب الرب، واهتز لذلك العرش»، قال علي القارى في «شرح المشكاة»: «وإذا كان هذا حكم من مدح الفاسق؛ فكيف بمن مدح الظالم وركن إليه ركونا ؟!!».

وأخرج ابن عدي عن عائشة والطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم في «الحلية» عن عبد اللهبن بشر رفعاه: «من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام »، وأسانيده ضعيفة، وأورده الغزالي بلفظ: «من أكرم فاسقا » بدل: من وقر صاحب بدعة.

قال العلماء: وإنما كان معينا على هدم الإسلام لأن المبتدع مائل عن الاستقامة، فمن وقره حاول اعوجاج الاستقامة، لأن معاونة نقيض الشيء معاونة لرفع ذلك الشيء، ومحاولة اعوجاج الاستقامة؛ عين هدم الإسلام ورفعِهِ، نسأل الله العافية دينا وبدنا، ودنيا وأخرى بمنه وكرمه... آمين.

المبحث السادس

اتباع عوائد الكفار والتمذهب بمذاهبهم والعمل بقوانينهم

ومنها، وهو المبحث السادس: اتباع عوائدهم الردية، والتمذهب بمذاهبهم المُرْدِيَة، والأخذ بقوانينهم الفاسدة، والاستحسان لآرائهم الضالة الكاسدة، وهذه أدهى وأمر، وأشد وأعظم وأكبر؛ إذ لا شك أن في ذلك نبذا للشريعة الغرا، وما جاء به خير أهل الدنيا والأخرى، سيدنا محمد، ﷺ، وأن ذلك يؤول إلى الكفر الصريح، أو قل: هو عينه لدىٰ كل قلب قريح.

الحرية بمفهومها الغربي:

إذ من جملة تلك القوانين البائدة، والآراء الباردة، ما يسمونه بالحرية، وهي عندهم عبارة عن أن كل واحد يتدين بما شاء من الأديان، ويتمذهب بما أحب من المذاهب، ويفعل في نفسه ما شاء من غير تحجير عليه من أحد، ذكر كان أو أنثى، بحيث لا عليه في الانتقال من دين الإسلام إلى دين النصرانية مثلا، ولا عليه في التمذهب بمذهب المعتزلة أو القدرية مثلا، ولا عليه في ترك الصلاة أو الصوم أو غيرهما مما ثبت في الدين المحمدي، ولا عليه في فعل الزنى أو اللواط، أو التعامل بالربى أو غير ذلك مما نهي عنه فيه، ولا يخفى ما في هذا من النسخ للشريعة المحمدية، بل والإبطال لها بالكلية، والإلغاء لأوامرها، والنبذ لزواجرها، والتعطيل لأحكامها، والانسلاخ عن رسومها ومعالمها، نسأل الله العافية.

التسوية بين المسلمين وغيرهم في جميع الأحكام:

ومن جملتها: التسوية بين المسلم واليهودي والنصراني والمجوسي وغيرهم في جميع الأحكام، بحيث يقتل المسلم بالكافر ولو حربيا، ولا يتملك المسلم كافرا مسبيا، قاصدين بذلك نبذ عزة الإسلام وسلطنته، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

الوظائف المالية[1] المفروضة على الأشخاص:

ومن جملتها الوظائف التي يوظفونها على كل أحد في نفسه وعبده ودابته وكلبه وداره وحانوته وبستانه وما أشبه ذلك في كل سنة، بحيث يعطي فيها عن كذا كذا، وعن كذا كذا. . . وهكذا، مما لم يأت به شرع ولا تقرر في دين، بل هو محض أكل أموال الناس بالباطل، وشبه الجزية يؤخذ من المسلم، وقد جاء في الشرع النهي عن ذلك والوعيد فيه، وأن لا جزية على مسلم.

أخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن ابن عباس مرفوعا: «لا تصلح قبلتان في أرض واحدة، وليس على مسلم جزية»، أي: خراج يدفعه في كل عام، وقد حاول بعض من لا دين له الاستدلال على جواز هذا بما أخرجه أرباب السنن الأربعة، عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ لما وجهه إلى اليمن، أمره أن يأخذ من كل حالم، -أي: محتلم- دينارا أو عدله معافر» وهي ثياب تكون باليمن، وقال: إن هذا توظيف منه عليه السلام في كل سنة على كل محتلم من المسلمين عن رقبته، خارج عن الزكاة الشرعية.

وهذا قلب لموضوع الأحاديث، وخرق للإجماع، وإرضاء للمخلوق بما يسخط الخالق سبحانه، فإن العلماء قالوا في هذا الحديث: إنه يعني بالدينار فيه من الحالم؛ الجزية من يهود اليمن ونصاراهم، لأن أهل اليمن كان فيهم يهود ونصارى. وفي «زاد المعاد» لابن القيم قال: «روى عبد الرزاق في مصنفه، وأبو عبيد في الأموال، أن النبي ﷺ أمر معاذ بن جبل أن يأخذ من اليمن الجزية من كل حالم أو حالمة -زاد أبو عبيد: عبدا أو أمة- دينارا أو قيمته معافر». فصرح في هذه الرواية بأن ذلك جزية.

وحكى غير واحد الإجماع على أن لا جزية على مسلم، وعلى أنه لا يحل ماله إلا بطيب نفس منه، وبعد ما عد الشيخ يوسف بن عمر في «شرح الرسالة» من شروط أخذ الجزية: أن يكون المأخوذ منه كافرا، قال ما نصه: «وإنما قلنا: كافرا؛ احترازا من

---

(١) أي: الضرائب.

المسلم، إذ الإجماع على تحريم مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفسه، وأن لا جزية على المسلم». وقال أيضا عقب الكلام على ما يؤخذ من الكفار إذا دخلوا بلاد المسلمين للتجارة ما نصه: «فهذا الكلام فيما يؤخذ من تجار أهل الذمة والحربيين؛ وأما المسلمون فلا يجوز أن يؤخذ منهم شيء بالإجماع، إلا ما ذكر عن ابن مزين أنه قال: يجوز أن يوظف على المسلمين شيء إذا لم يكن هناك بيت مال».

وأخرج الحاكم في «المستدرك» من حديث جابر مرفوعا: «من أرضى سلطانا بما يسخط ربه خرج من دين الله»، وأخرج الطبراني في «الكبير» عن عصمة بن مالك مرفوعا: «من تحبب إلى الناس بما يحبوه، وبارز الله بما يكره؛ لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان».

وأخرج ابن حبان في صحيحه وابن عساكر في تاريخه عن عائشة مرفوعا: «من التمس رضى الله بسخط الناس؛ رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله؛ سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»، وقال ابن مسعود: إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه، فيخرج ولا دين له. قيل له: لم ؟! قال: لأنه يرضيه بسخط الله.

الحكم بغير ما أنزل الله:

ومن جملتها -أعني: تلك القوانين- الحكم في القضايا النازلة بين الخلق، بغير ما حكم به فيها الملك الحق، بل بضوابط عقلية، وسياسات كفرية، وآراء فكرية، لم يأت بها شرع ولا دين، ولا نزل بها مَلَكٌ من ملائكة إله العالمين، وإنما هي أحكام مختلقة وافقهم فيها ضعفة الإيمان، ممن استزله وأغواه الشيطان، حاولوا بها تبديل الشرع المطاع، وتحويل ماله من الأوضاع، وإظهار عزتهم، وترويج كفرهم شركهم وكلمتهم، والكتاب والسنة مملوءان بالتحذير من هذا، والتنفير عنه، والوعيد عليه، والتقريع والتوبيخ لمن يفعله أويميل بقلبه إليه.

وكيف -أيتها الأمة- نتمذهب بمذاهبهم، ونأخذ في الدين بقوانينهم وأحكامهم، أونميل أدنى ميل إليها، ونساعد في زمن من الأزمان عليها؟!.

والحق تعالى يقول في كتابه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا. أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا. فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا. أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا. وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا. فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٥٩-٦٥]، ويقول: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ. أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠]، ويقول: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ثم قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ثم قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

قال الطرطوشي في سراجه: «فكل من لم يحكم بما جاء من عند الله ورسوله؛ كملت فيه هذه الأوصاف الثلاثة: الكفر والظلم والفسق».

ويقول: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، ويقول: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ويقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ -أي: يخالفه- مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ -أي: وهو سبيل الكافرين- نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]،

ويقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦]، ويقول: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

وهل يصح لمؤمن بعد سماعه لهذه الآيات ووعيدها، وتقريعها وتوبيخها وتهديدها، أن يميل إلى غير ما حكم الله ورسوله به أو يصغي إليه، أو يعول في شيء من أموره عليه؟!، لا والله؛ إلا إن كان ضعيف الإيمان، أو عديم الإسلام والدين والإيقان.

ليس منا من عمل بسنة غيرنا:

وكيف أيتها الأمة ذلك أيضا، والنبي ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»، أخرجه الشيخ أبو القاسم الأصبهاني في كتاب «الحجة» وغيره بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو، زاد الطبراني في روايته: «لا يزيغ عنه».

ويقول: «من رغب عن سنتي فليس مني»، أخرجه مسلم عن أنس، وابن عساكر عن ابن عمر، ويقول: «ليس منا من عمل بسنة غيرنا»، أخرجه الديلمي عن ابن عباس، ويقول: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو رد»، أي: مردود عليه، أخرجه الشيخان عن عائشة، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا؛ فهو رد» وفي أخرى لأبي داود: «من صنع أمرا على غير أمرنا؛ فهو رد».

ويقول: «إياكم والمحدثات؛ فإن كل محدثة ضلالة»، أخرجه أبو داود، والترمذي وقال: حسن صحيح، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، عن العرباض بن سارية. ويقول: «إياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»، أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم عن العرباض أيضا.

ويقول: «من أحدث حدثا، أو آوى محدثا، أو ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا

عدلا»، أخرجه الترمذي عن ثوبان، والطبراني في «الكبير» عن ابن عباس، ويقول: «أحسن الكلام كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد، ألا وإياكم ومحدثات الأمور، فإن شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة »، أخرجه ابن ماجه بسند جيد عن ابن مسعود.

ويقول: «لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»، أخرجه أحمد والطبراني في «الكبير» والحاكم في «المستدرك»، وابن أبي عاصم في «كتاب السنة» عن العرباض بن سارية، ويقول: «من ابتدع بدعة ضلالة لا ترضي اللهورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا»، أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده.

ويقول: «لا يقبل الله لصاحب بدعة صلاة ولا صوما ولا صدقة ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا، يخرج من الإسلام كما يخرج الشعر من العجين»، أخرجه ابن ماجه عن حذيفة، والديلمي عن أنس. ويقول: «يجيء قوم يميتون السنة، ويوغلون في الدين، فعلى أولئك لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين»، أخرجه الديلمي عن أبي هريرة.

ويقول: «تعمل هذه الأمة برهة بكتاب الله، ثم تعمل برهة بسنة رسول الله، ثم تعمل بالرأي. فإذا عملوا بالرأي؛ فقد ضلوا وأضلوا »، أخرجه أبو يعلى عن أبي هريرة أيضا، ويقول: «لكل عمل شِرّة -أي: نشاط وهمة- ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى -وفي لفظ: أفلح- ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»، أخرجه ابن أبي عاصم، وابن حبان في صحيحه عن ابن عمر، ويقول: «أبغض الناس إلى الله تعالى ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرىء بغير حق ليهريق دمه»، أخرجه البخاري عن ابن عباس.

ويقول: «أحمق الحمق وأضل الضلال: قوم رغبوا عما جاء به نبيهم إلى نبي غير نبيهم، وإلى أمة غير أمتهم» أخرجه الديلمي عن أبي هريرة، ويقول: «كفى بقوم حمقا -أو قال: ضلالا- أن يرغبوا عما جاء به نبيهم، إلى غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم» فنزلت: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، أخرجه الدارمي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن يحيى بن جعدة.

ويقول: «لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني؛ لضللتم، أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم». أخرجه البيهقي في «الشعب» عن عبد الله بن الحارث، ويقول: «إنكم اليوم على دين، وإني مكاثر بكم الأمم، فلا تمشوا بعديَ القهقرا»، أخرجه أحمد عن جابر.

ويقول من جملة حديث: «فَلَيُذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، فأناديهم فأقول: ألا هَلُم. فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: فسحقا فسحقا». أي: فأبعدهم الله بعدا، أو: فطردهم طردا. أخرجه مالك في «الموطأ» ومسلم وأبو داود من حديث أبي هريرة، ويقول: «إنها ستكون فتنة»، قيل: فما المخرج منها؟، قال: «كتاب الله؛ فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحُكْم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله». الحديث، أخرجه الترمذي عن علي.

ويقول: «من فارق الجماعة -أي: وهي ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه- شبرا؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»، أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم في «المستدرك» عن أبي ذر، وفي رواية للحاكم عنه: «من خالف جماعة المسلمين شبرا فقد خلع رقبة الإسلام من عنقه».

ويقول: «إن الله تعالى فرض فرائض؛ فلا تضيعوها، وحد حدودا؛ فلا تعتدوها، وحرم أشياء؛ فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان؛ فلا تبحثوا عنها». أخرجه الدارقطني والطبراني في «الكبير» وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «السنن»،

عن أبي ثعلبة الخشني، وحسنه النووي، وأبو بكر بن السمعاني، وصححه ابن الصلاح، والأحاديث في مثل هذا كثيرة.

الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهلية:

وقد أخرج ابن بشران عن علي قال: «ثلاثة لا يقبل الله معها عملا: الشرك والكفر والرأي»، قالوا: يا أمير المؤمنين ما الرأي ؟، قال: «تدع كتاب الله وسنة نبيه، وتعمل بالرأي»، وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال: الحكم حكمان: حكم الله، وحكم الجاهلية، ثم تلا هذه الاية: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وأخرج عبد بن حميد في مسنده بسند صحيح عن ابن عمر قال: «صلاة السفر ركعتان، من خالف السنة كفر»، وأخرج اللالكائي في «السنة»، وابن أبي حاتم وغيرهما عن عمر بن عبد العزيز قال: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في رأي من خالفها، ومن اتبع اهتدى بها مهتد، ومن استنصر بها منصور ومن خالفها وغير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا».

وفي جامع خليل: **«ويجب تسليم السنن، ولا تعارض بقياس ولا برأي»، أي: فأحرى أن لا تجوز معارضتها بقوانين رومية، بل ربما كان ذلك كفرا، نسأل الله العافية.**

وفي أواخر كتاب الجامع، من «نوازل» البرزلي نقلا عن بعض السلف قال: «الشريعة كسفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»، وفي «الشفا»: «إن بعض عمال عمر بن عبد العزيز كتب إليه يخبره بحال بلده، وكثرة لصوصه، هل يأخذهم بالظنة -أي: التهمة- أو يحملهم على البينة، وما جرت عليه السنة؟، فكتب إليه عمر: خذهم بالبينة وما جرت عليه السنة؛ فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله!! وعن بعض

الملوك أنه كان يقتل سراق بلده بالسياسة، ولا يقطعهم كما ورد في الشرع، فكانت تكثر السرقة، فشكا ذلك لبعض علماء زمانه، فقال له: اعمل بالسنة تندفع بها الكثرة، فعمل بها فقلت السرقة ببركة اتباعه لها».

وفي «روح البيان» لدى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، ما نصه: «وفي الحديث: «يؤتى بِوَالٍ نقص من حد سوطا فيقال: لم نقصت ؟، فيقول: رحمة لعبادك، فيقال له: أنت أرحم مني؟!، انطلقوا به إلى النار، ويؤتى بمن زاد سوطا فيقال له: لم زدت؟، فيقول لينتهوا عن معاصيك، فيقال له: أنت أحكم مني؟!، فيؤمر به إلى النار».

وفي «معيد النعم» للتاج السبكي ما نصه: «ومن حقهم -يعني: نواب السلطنة- إلقاء مقاليد الأحكام إلى الشرع، لأنه لا حاكم إلا الله تعالى، ولن تفعل العقول شيئا، فإذا رأيت من يعيب على نائب السلطان انقياده للشرع، وينسبه بذلك إلى اللين و الرخاوة؛ فاعلم أنه يخشى عليه أن يكون ممن طبع على قلبه، وأن عاقبته وخيمة، بل حق على كل مسلم الرضى بحكم الله تعالى والانقياد له، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون، والكافرون، والظالمون».

وفيه أيضا ما نصه: «وعليه -يعني: الحاجب- رفع الأمور إلى الشرع، وأن يعتقد أن السياسة لاتنفع شيئا، بل تضر البلاد والرعايا، وتوجب الهرج والمرج، ومصلحة الخلق فيما شرعه خالقهم، الذي هو أعلم بمصالحهم ومفاسدهم، وشريعة نبينا محمد ﷺ متكفلة بجميع مصالح الخلق في معاشهم ومعادهم، ولا يأتي الفساد إلا من الخروج عنها، ومن لزمها صلحت أيامه واطمأنت...» إلى أن قال: «فمن خطر له أنه ما لم يسفك الدماء بغير حق، ويضرب المسلمين بغير حق؛ لم تصلح أيامه، فَعَرِّفْهُ أنه باغ جهول أحمق، حمار، دولته قريبة الزوال، ومصيبته سريعة الوقوع، وهو شقي في الدنيا والآخرة، وإذا أخذه الله تعالى لم يفلته، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، أخبر جل وعلا أنا لا نؤمن حتى نُحَكِّمَ هذا النبي العظيم، ثم إذا حكم

لم نجد في أنفسنا حرجا وضيقا وقلقا من حكمه، بل نطمئن له، ونسلمه وننقاد ونذعن، وإلا فنحن غير مؤمنين، فكفى بهذه الآية واعظا وزاجرا لمن وفقه الله تعالى»هـ.

وفي شرح الإمام الحطاب لمختصر خليل، في باب الحج، لدى قوله: «كإحرامه أوله» ما نصه: «فائدة: قال ابن مسدي في خطبة منسكه: وعن سفيان بن عيينة قال: قال رجل لمالك بن أنس من أين أحرم؟، قال: من حيث أحرم رسول الله ﷺ، فأعاد عليه مرارا وقال: إن زدت على ذلك؟ قال: فلا تفعل، فإني أخاف عليك الفتنة. قال: وما في هذا من الفتنة، إنما هي أميال أزيدها؟! فقال مالك: قال الله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال: وأي فتنة في هذا؟! قال: أي فتنة أعظم من أن ترى أنك أصبت فضلا قصر عنه رسول الله ﷺ؟ أو ترى أن اختيارك لنفسك خير من اختيار الله تعالى لك، واختيار رسول الله ﷺ؟!!»[1].

وسئل شيخ الإسلام أبو محمد سيدي عبد القادر الفاسي رضي الله عنه، حسبما في نوازله الكبرى، عن مسألة تظهر من جوابه، فأجاب بما نصه: «الجواب والله الموفق سبحانه: أن ما ذكر من أخذ المال من الجاني بسرقة أو زنى أو قتل، أو غير ذلك من الفواحش التي رتب الشارع عليها ما رتب، وما يزعمه فاعل ذلك من رعاية المصالح؛ باطل، بل هو افتيات وتقدم على الله ورسوله لمجرد الشهوة والهوى، والمصلحة إنما هي فيما شرعه الله لعباده، وقد قال تعالى. ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] ومن لم تصلحه السنة لا تصلحه البدعة، وفتح هذا الباب، والقول بما ذكر؛ يجر إلى تعطيل الشرائع ودثورها، والرجوع إلى قوانين وسياسات، كسياسات كسرى وقيصر، وكفى بذلك جرأة وإثما مبينا».

---

(١) انظر هذا مع الضلالة والزندقة الذين يروجهما بعض المحسوبين على الدعاة والعلماء، من أن رسول الله ﷺ له أفعال هي فعل مشرع معصوم، وأخرى هي فعل إنسان يصيب ويخطىء، ليست تشريعا، وإن كانت من قوله وفعله

فأخزىٰ الله أثواباً عليه ... وأخزىٰ الله ما تحت الثياب

ويريدون بذلك رد السنة في وجهه ﷺ، لا ردهم الله بخير!!.

فتأمل هذا كله تعلم ما في اتباع تلك القوانين الفاسدة. والآراء الضالة الكاسدة. من الخروج عن الشريعة المطهرة. والنبذ لأحكامها المعتبرة. وما وراء ذلك والعياذ بالله تعالى إلا الكفر الصريح الظاهر. أعاذنا الله منه، ومن كل ما يجر إلى هذا الأمر المفظع الخاسر. هذا إن لم نستحل ذلك. ولم نعتقد حقية ما هنالك. وأما إن استحللناه. أو اعتقدنا حقية أصله ومبناه؛ فقد كفر المستحل ومعتقد الحقية والعياذ بالله تعالى جزما. وخرج عن الدين المحمدي حتما. نسأل الله العافية.

وهذا هو مراد أعداء الله تعالى وأعداء رسوله ﷺ منا، ولا يرضون منا بدونه ولا بغيره قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٩]، وقال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩]، وقال: ﴿ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، وقال: ﴿ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩]، وقال: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ٢].

وكيف -معاشر المسلمين وأهل الإسلام- يليق بآحادنا أن يسلك هذه المسالك، أو يأخذ بقلامة ظفر من ليلها الحالك، نعوذ بالله من ذلك، ومن كل ما يؤدي إلى شيء مما هنالك، ونسأل الله العظيم، بجاه نبيه وحبيبه الكريم، أن يطهرنا وساحتنا من هذه الأدناس، ويحفظنا من كيد الأنجاس الأرجاس، بمنه. آمين.

حكم وصف الأحكام الوضعية بأنها: عدل:

وقد بلغنا أن بعض المتهورين في دينهم يسمي أحكامهم القانونية: عدلا، فإن أراد به العدل الحقيقي، وأن نفس تلك الأحكام الكفرانية حق وصواب؛ فهو كافر بالله تعالى وبرسوله، مرتد من غير ارتياب، لأن ذلك خلاف ما علم ضرورة، كتابا وسنة وإجماعا من ذمها والتشنيع عليها، وأن العدل محصور في شريعة الله التي حواها كتابه وسنة نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال عليه الصلاة والسلام لذي الخويصرة -وهو رجل من بني تميم- لما قال له: اعدل: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خِبْتُ وخَسِرتُ إن لم أكن أعدل». رواه البخاري عن أبي سعيد.

وإن أراد أنها عدل في الجملة من حيث ما فيها من التسوية بين الشريف والمشروف، والأمير والمأمور، لا غير؛ لم يكفر، ولكنه يعاقب أشد العقوبة لما تضمنه كلامه من تفخيم شأنهم، وأوهمه خطابه من حقية قانونهم، ويقال حينئذ: التسوية بين من ذكر في الأحكام الحَقِّيَة حكمٌ شرعي، ومن الشرع تلقاه أولئك الكفرة، وإنما حرفه فسقة الولاة ونحوهم.

وقد سئل الشيخ سيدي عبد القادر الفاسي حسبما في أجوبته الستينية عن رجل قال في يهودي مات: ما كان اليهودي فلان إلا رجلا مليحا، كان يقول الحق، ويعمل به، الله يرحمه.

فأجاب بما محصله: «إن هذه مقالة جاهل مغرق في الجهالة، فإن كان مراده أن ما كان عليه من الكفر، وما كان ينطق به منه: حق؛ فهو كافر، لأن استحسان الكفر واعتقاد حقيته كفر. وإن كان قصده أنه: ينصف من نفسه، ولا يريد أن يبخس أحدا حقه ولا يظلمه، فالأمر فيه خفيف. وأما قوله: الله يرحمه؛ فهو غير جائز لقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾ [التوبة: ١١٣]، وقوله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا ﴾ [التوبة: ٨٤]» انظره.

واجتهد -بالله عليك- إن كانت لك قدرة في كف هذه المفسدة عن المسلمين، ودفعها عن ساحتهم الدفع العظيم المبين، وشد على هذه الشريعة المحمدية يد الضنين، فإنه لا نجاة لك إلا بذلك يوم العرض على رب العالمين، والله سبحانه يتولى هداك وهدانا أجمعين، ويجعلنا لسلف الأمة وصلاحها من المتبعين، بمنه وكرمه وجوده وفضله. . . آمين.

المبحث السابع

الإضرار بالمسلمين بالتسلط والظلم والإفساد

ومنها، أعني مواد العطب والاختلال، وأسباب الشر وتبدل الأحوال، وهو المبحث السابع: الإضرار بالمسلمين، والتسبب في الإذاية العظيمة للمؤمنين، بالتسلط عليهم بالجور والظلم والإفساد، والبغي والعتو وغير ذلك من العناد، وتسليط قساة القلوب ومن لا يكاد يعرف الله عليهم، وتوجيه الوجوه التي لا ترجو لقاءه إليهم، وهذا أيضا من أعظم أسباب الوبال، والأمور المؤذنة بالهلاك والعذاب والنكال، إذ الظلم دمار، والعدل عمار، ودار الظلم خراب ولو بعد حين، ودار العدل عامرة بيقين.

وأجمع الحكماء والعقلاء على أن المُلْكَ يثبت مع الكفر، ولا يثبت مع الظلم، وقال كعب لأبي هريرة: في التوراة: من يظلم يخرب بيته. فقال أبو هريرة: وذلك في كتاب الله: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ [النمل:٢٧] ويقال: أربعة لا يثبت معها الملك: غش الوزير، وسوء التدبير، وخبث النية، وظلم الرعية. فالظلم أدعى شيء إلى سلب النعم، وحلول النقم.

وما ورد في التحذير منه، ووعيد مرتكبه، في الكتاب والسنة كثير، وهو في أكثر الدواوين شهير. وكفى فيه قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم:٤٢]، قال ميمون بن مهران: «كفى بهذه الآية وعيدا للظالم، وتعزية للمظلوم». وقوله: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٧]، وقوله: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:٤٤]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف:٢٩].

وفي الحديث عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي -أي: تنزهت وتعاليت عنه- وجعلته بينكم محرما؛ فلا تظالموا»...

الحديث، أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي ذر. ومعنى: جعلته بينكم محرما: حكمت بتحريمه عليكم، قال الهيثمي وغيره في «شرح الأربعين النووية»: «وهذا مجمع عليه في كل ملة، لاتفاق سائر الملل على مراعاة حفظ الأنفس، فالأنساب، فالأعراض، فالعقول، فالأموال، والظلم قد يقع في هذه أو بعضها، قال: وأعلاه الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهو المراد بالظلم في أكثر الآيات، قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ثم تليه المعاصي على اختلاف أنواعها».

ومعنى: لا تظالموا. لا يظلم بعضكم بعضا، فإن الله تعالى يعاجل الظالم بالعقوبة في الدنيا، ثم يقتص منه في الآخرة للمظلوم، بقدر ظلامته، وقد يمهله الله تعالى في الدنيا، زيادة في استدراجه ليزداد عقابه، ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] فيكون إمهاله عين عقابه.

وتقدم حديث أبي الشيخ بن حيان في كتاب «التوبيخ» عن ابن عباس مرفوعا: «قال الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله»... الحديث، وفي الصحيحين عن أبي موسى مرفوعا: «إن الله ليملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] وفي حديث الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» عن علي مرفوعا: «يقول الله تعالى: «اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصرا غيري»، وعن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله؛ ما كانت صحف إبراهيم؟، قال: «كانت أمثالا كلها؛ أيها الملك المسلط، المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها ولو كانت من كافر»... الحديث، أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم والبيهقي.

وأخرج الطبراني عن معاوية وعن ابن مسعود رفعاه: «لا يقدس الله -أي: لا يطهر ويرفع- أمة لا يقضىٰ فيها بالحق، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعتع»، وأخرج البزار والطبراني من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه

عن جده مرفوعا: «إني أخاف على أمتي من أعمال ثلاثة» قالوا: ما هي يا رسول الله؟، قال: «زلة عالم، وحكم جائر، وهوىً متبع».

خمس عقوبات إلهية لازمة لخمسة ذنوب:

وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «كيف أنتم إذا وقع فيكم خمس، وأعوذ بالله أن تكون فيكم، أو تدركوهن ؟:

١- ما ظهرت الفاحشة في قوم قط، يعمل بها فيهم علانية؛ إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم.

٢- وما منع قوم الزكاة؛ إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا.

٣- وما بخس قوم المكيال والميزان؛ إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان.

٤- ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله؛ إلا سلط الله عليهم عدوهم فاستنفذوا بعض ما في أيديهم.

٥- وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه؛ إلا جعل الله بأسهم بينهم».

وقد أخرجه الحاكم بنحوه من حديث بريدة وقال: صحيح على شرط مسلم.

قال العلماء: والظالم منحط عن رتبة النبوءة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ورتبة الولاية والحفظ والرعاية؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، هذا فيمن ركن إلى الظالم، فكيف بالظالم نفسه؟!.

ورتبة السلطنة؛ لقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وعن نظر الخلائق ومحبتهم؛ لحديث: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها».

والظالم غير مفلح في الدنيا؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١] خاسر في الآخرة؛ لحديث: «إن الظلم ظلمات يوم القيامة». أخرجه الشيخان عن ابن عمر.

وكيف يولى على المسلمين من لا يراقب فيهم المولى، ويعاملهم بأنواع النكال من النهب والضرب والسجن بل أعلىٰ، والنبي ﷺ يقول: «من ولي من أمر المسلمين شيئا، فأمر عليهم أحدا محاباة؛ فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم»، أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن أبي بكر الصديق، ويقول: «من استعمل رجلا من عصابة -أي: جماعة- وفيهم من هو أرضى لله منه؛ فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»، أخرجه الحاكم أيضا عن ابن عباس؟!!.

وكفى في ذلك أيضا، وفي التسلط بالجور والظلم؛ ما قيل من إنه: يؤخذ للمظلوم بأخذ ماله من حسنات ظالمه، في كل دانق سبعون صلاة مقبولة. زاد بعض مشايخ الحنفية: في جماعة. هذا في الظلم بأخذ المال، فكيف به بالضرب والنكال، فكيف به بالقتل ونحوه؟!!!، عافانا الله بمنه.

مفلس ملعون من يؤذي المؤمنين ويضربهم:

وفي حديث أبي هريرة مرفوعا: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»، رواه مسلم والترمذي.

وكفى فيه أيضاً أن فيه الإضرار الكبير بالمؤمنين، والإذاية العظيمة لأهل لا إله إلاّ الله المسلمين ، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٨]، وأخرج الترمذي، وقال: غريب. عن أبي بكر الصديق مرفوعا: «ملعون من ضار مؤمنا أو مكر به -أي: مبعد من رحمة الله تعالى يوم القيامة- إن لم يدركه العفو»، وأخرج الرافعي عن علي مرفوعا: «ليس منا من غش مسلما، أو ضره، أو ماكره ».

وأخرج البيهقي في «الشعب» عن ابن عمرو مرفوعا: «من نظر إلى أخيه نظرة يخيفه بها؛ أخافه الله يوم القيامة »، وأخرج الطبراني في «الأوسط» عن ابن عمر مرفوعا: «من أخاف مؤمنا؛ كان حقا على الله أن لا يؤمنه من إفزاع يوم القيامة »، وأخرج أيضا بسند حسن عن أنس: قال رسول الله ﷺ لرجل: «رأيتك تتخطى رقاب الناس وتؤذيهم، من آذى مسلما فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله ».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة مرفوعا: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب»؛ أي: أعلمته بأني محارب له ، ونظيره قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الآية [البقرة:٢٧٩]، ويقرب منه: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المائدة:٣٣]، ومن حاربه الله، أي: عامله معاملة المحارب، من التجلي عليه بمظاهر القهر والجلال والعدل والانتقام؛ لا يفلح أبدا، بل لا بد والعياذ بالله تعالى من أن يموت على الكفر، نسأل الله العافية.

قال الفاكهاني: من حاربه الله أهلكه. وقال غيره: إيذاء أولياء الله علامة على سوء الخاتمة؛ كأكل الربا. وما من مؤمن إلا ويمكن أن يكون وليا لله، لأن سر الخصوصية محجوب عن أكثر الخلق، لا يطلع عليه إلا قليل ممن أطلعه الله عليه، وقد قيل:

فلا تحقرنْ شخصا من الناس عَلَّهُ ... وليُّ إلــه العالمين ولا تدري
فــذو القدره عند الله خافٍ عن الورىٰ ... كما خَفِيَتْ عن علمهم ليلة القدر

وحينئذ: فمن آذى مؤمنا، أيَّ مؤمن كان؛ فقد تعرض لهذا الوعيد العظيم؛ بل نقول: المؤمنون كلهم أولياء الله حقا، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال بعض العارفين: إياك ومعاداة أهل لا إله إلا الله؛ فإن لهم من الله تعالى الولاية العامة. وهم أولياء الله، وإن أخطؤوا وجاءوا بقراب الأرض خطايا، لا يشركون بالله شيئا، فإن الله تعالى يتلقاهم بمثلها مغفرة.

وقد عدوا إذاية المؤمن والإضرار به من الأمور التي تقارب الكفر، وأنشدوا في ذلك:

كن كيف شئت فإن الله ذو كرمٍ ... وما عليك إذا أذنبت من باسٍ

سوى اثنتين فلا تقربهما أبدا ... الشرك بالله، والإضرار بالناس

وهذا: لأن حقوق الخلق مبنية على المشاحة والتعسير، والله ذو الكرم الغزير، ولذا كان سفيان الثوري يقول: لأن تلقى الله تعالى بسبعين ذنبا فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد. وعن أبي بكر الوراق قال: أكثر ما ينزع الإيمان من العبد إنما ينزع منه عند الموت. قال: فنظرنا في الذنوب فلم نجد ذنبا أسرع نزعا للإيمان من ظلم العباد.

ويقال: الذنوب ثلاثة: ذنب لا يغفره الله وهو: الشرك، وذنب لا يتركه الله وهو: مظالم العباد، وذنب لا يعبأ الله به وهو: سائر السيئات .بمعنى أنه: يغفرها لمن استغفر، ولمن شاء، دون ذلك، فافهم. وقد جاء هذا في عدة أحاديث فلتنظر.

وجاء أيضا أنه: ليس شيء أكرم على الله من المؤمن، وأنه أكرم على الله تعالى من بعض ملائكته، ومن ملائكته المقربين، وجاء أيضا في حرمته أنها: أعظم عند الله من حرمة الكعبة والحجر الأسود الذي فيها، وأنه أعظم حقا منهما، وإذا كان بهذه المثابة عند الله؛ كانت إذايته وظلمه والإضرار به عظيمة عند الله تعالى، يخاف على فاعلها من أن يعاجله الله بسوء المنقلب في الدنيا، وبالعذاب المهين في الدار الآخرة.

وقد جرت عادة الله تعالى بأن الولاة إذا طغوا وفسدوا؛ تسلط عليهم العدو، فكدر معيشتهم، وأفسد عليهم عيشهم، وتجرأ عليهم بالإذلال، وأخذ البلاد

والأموال، وربما أدى ذلك عند تماديهم على الطغيان؛ إلى استئصالهم، واستيلاء العدو على جميع ما بأيديهم، نسأل الله العافية.

وقد تقدم قريبا قوله عليه السلام في حديث ابن عمر مرفوعا: «ولا حَكَمَ أمراؤهم بغير ما أنزل الله؛ إلا سلط الله عليهم عدوهم فاستنفذوا بعض ما في أيديهم»، وفي حديث الطبراني عن ابن مسعود مرفوعا: «**لا تظالموا فتدعوا فلا يستجاب لكم، وتستسقوا فلا تسقوا، وتستنصروا فلا تنصروا**».

خطورة التصميم والمجاهرة بالمعاصي مع ذكر الله تعالى[1]؛

ومن العجائب: أن من الظلمة من يكون منهمكا في الفجور والمعاصي وأكل الحرام، وما أشبه ذلك، غير مستقبح لحاله، ولا خائف من عاقبته ومآله، مصرا على أمره، مصمما على البقاء على ظلمه وجوره، وهو مع ذلك يذكر الله، ويصلي على نبيه ﷺ، ويقرأ القرآن، ويزور الأولياء، ويرى أن ذلك يكفيه، مع أن هذا استخفاف بالله ورسوله وأوليائه، مؤذن بخلو القلب من التعظيم، يخاف على صاحبه أشد الخوف، وهو معرض للهلاك إلا أن يتداركه الله، وذِكْرُهُ حجة عليه، كالقوم الذين يقرؤون القرآن ولا يجاوز تراقيهم، وقد جاء أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: قل للظالمين لا يذكروني؛ فإني آليت على نفسي أن أذكر من ذكرني، فإذا ذكروني ذكرتهم بالغضب. وجاء: رب قاريء والقرآن يلعنه.

وفي «إرشاد الساري» في شرح حديث: «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» ما نصه: «هذه الفضائل الواردة في التسبيح ونحوه -كما قال ابن بطال وغيره- إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال؛ كالطهارة من الحرام والمعاصي العظام، **فلا يظن ظان**

---

(١) هذه المسألة تعتبر من أبرز مسائل العصر، ومن أخطرها، لما تفضي إليه من انفصام في الدين، ومحاربة أولياء الله الصالحين بدعوىٰ التطرف والإرهاب، مع أن الفاعل لظلمهم ربما يجاهر بالصلاة وفعل بعض الخيرات، فيلتبس الأمر على العامة وضعفاء النفوس سوء الظن بأولياء الله الداعين إلى تحكيم شرع الله تعالى، ويا حبذا أن يتصدىٰ الأعلام الربانيون للتأليف في هذا الأمر والتشنيع عليه.

أن من أدمن الذكر، وأصر على ما شاء من شهواته وانتهاك دين الله وحرماته، أنه يلتحق بالمتطهرين المتقدسين، ويبلغ منازلهم بكلام أجراه على لسانه ليس مع تقوى ولا علم صالح»هـ.

ويزيدهم اغترارا: ما يرونه من المهلة، ويحملون تأخير العقوبة وعدم المعاجلة بها في الدنيا على استحقاق الوصلة، وذلك من المكر الخفي،وأمارات الاستدراج، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ -إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم- فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ -أي: أسباب العافية وأبواب الرفاهية- حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ -أي: من الحظوة الدنيوية، ولم يشكروه عليها برجوعهم منها إلينا- أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً -أي: فجأة- فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] أي: آيسون من كل خير، وقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، قال ابن عطاء: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة، وفي الحديث: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، رواه أحمد عن عقبة بن عامر، وفي الحِكَم: خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه، أن يكون ذلك استدراجا ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]. وقال ابن السماك في بعض مواعظه: «لقد أمهلكم حتى كأنه أهملكم، ولقد ستر حتى كأنه غفر».

نسأله سبحانه وتعالى أن يصلح جميع الولاة، ويوفقهم لما تصلح به الحياة، ويعود عليهم نفعه بعد الممات، إنه ولي ذلك، والمولى لما هنالك، بمنه وكرمه آمين.

المبحث الثامن

الاشتغال باللهو والطرب ومفاسد الحياة المادية

ومنها، وهو المبحث الثامن: اشتغالنا باللهو والطرب والهزء والباطل، وإنفاقنا للأموال العظيمة في انتخاب المناكح والمراكب والمشارب والمآكل، وتشييدنا للأبنية والدور، وإعلاؤنا للغرف والمساكن والقصور، حتى:كأننا متركون، وفي الدنيا مخلدون، أو أننا لا نتيقن الموت، والمعاجلة بالفوت، أو أننا لا نحاسب، ولا نثاب ولا نعاقب، أو أننا لهذا خلقنا، أو لمثله أخرجنا من العدم ورزقنا.

كلا؛ بل ما خلق الإنسان إلا للعلم والعمل، والاشتغال بما يقرب إلى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذريات: ٥٦]، **ولم يتركنا الحق سبحانه سدى وهملا، نتصرف باختيارنا كيف شئنا، ونتناول من شهوات البطون والفروج ما أحببنا، بل بعث إلينا الرسل، وأمرنا على لسانهم ونهانا، ووعدنا وأوعدنا وحمانا**، وفي التنزيل: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

وما كان سبب ابتلاء من ابتلوا بغلبة الكفار عليهم والاستيلاء على بلادهم -كأهل الأندلس وغيرهم- إلا اشتغالهم بمثل هذا، فلم يشعروا إلا وهم في أسر عدوهم، مستوليا عليهم وعلى معاقلهم، فندموا حيث لا ينفعهم الندم، وباؤا بغضب من الله ومأواهم- إن لم يتجاوز عنهم- جهنم. وهذا الدين المحمدي لا يليق به -خصوصا لأهل الولاية، ليحصل لهم من الله كمال الحفظ ودوام الرعاية- إلا الاقتصار على الكفاف، والميل إلى الزهد والقناعة والعفاف، كما كان عليه الصحابة فمن بعدهم من أفاضل الولاة، دون غيرهم من الجبابرة والطغاة.

مؤسس الدولة الإدريسة كان مثلا من التقشف والزهد:

وانظر إلى حالة المولى الشريف، قطب هذا المغرب الأقصى وحاميه سيدنا ومولانا إدريس[1]، رضي الله عنه، فإنه كان متقللا من الدنيا غاية، مقتصرا فيها على ما تدعوه الضرورة إليه مأكلا وملبسا ومسكنا،وكان يحتزم بحزام من ليف النخل، ويتوكأ في الخطبة على عصا معوجة خلقة من غير نجر ولا تمليس، وكانت همته -رضي الله عنه- كلها في الجهاد في سبيل الله، وقتال أعدائه، حتى فتح الله عليه ما فتح، اقتداء في ذلك كله بجده المصطفى عليه الصلاة والسلام، وبالخلفاء الراشدين بعده، أعاد الله علينا من بركاته وبركاتهم آمين.

وفي الحديث: «إياكم والتنعم »، أي: التعمق والمبالغة والإفراط فيه، «فإن عباد اللهليسوا بمتنعمين»، أخرجه أحمد، والبيهقي في «الشعب» بسند رواته ثقات، عن معاذ ابن جبل مرفوعا، وفيه: «إن مما أخشى عليكم: شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، و«ضلات الهوى»، أخرجه أحمد والبزار والطبراني في معاجمه الثلاثة عن أبي بَرْزَةَ الأسلمي.

وفيه: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه -أي: ناسبه أو قاربه- وعالما أو متعلما »، أخرجه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة، والطبراني في «الأوسط» عن ابن مسعود. وفي لفظ: «إلا ما كان منها لله عز وجل »، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» والضياء عن جابر، وفي آخر: «إلا ما ابتغي به وجه الله»، أخرجه الطبراني في «الكبير» عن أبي الدرداء، وفي آخر: «إلا أمرا بمعروف، أو نهيا عن منكر، أو ذكرا لله»، أخرجه البزار عن ابن مسعود، وفيه: «كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة: رميه عن قوسه، وتأديبه غرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق »، أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني.

---

(١) هو الإمام فاتح المغرب وناشر الإسلام فيه، أمير المؤمنين أبو العلاء إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة بنت رسول الله محمد ﷺ وعلىٰ آله وصحبه.

وفيه: «كل شيء ليس من ذكر الله فهو لهو وسهو؛ إلا أربع خصال: مشي الرجل بين الغرضين، وتأديبه غرسه، وملاعبته أهله، وتعليم السباحة »، أخرجه الطبراني في «الكبير» عن جابر بن عبد الله، أو جابر بن عمير الأنصاري، وفيه: «أما إن كل بناء وبال على صاحبه؛ إلا ما لا، وإلا ما لا»، أي: ما لا بد للإنسان منه، مما يستره وأهله من الحر والقر والسباع، ويمنع من تقحم اللصوص ونحوهم، أخرجه أبو داود وغيره عن أنس.

وفيه: «إذا أراد الله بعبد هوانا أنفق ماله في البنيان »، أخرجه الطبراني في «الأوسط» عن أبي بشير الأنصاري، وفيه: «إن شر ما ذهب فيه مال المسلم: البنيان»، أخرجه أبو داود في المراسيل عن عطية بن قيس مرسلا، وفيه: «من بنى فوق ما يكفيه؛ كلف أن يحمله يوم القيامة»، أخرجه الطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود.

ومر الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني -رضي الله عنه- على شخص يبني دارا ويُحْكِمُها فأنشده:

أتبنـــي بناء الخالدين وإنما ... مقامك فيها لو عقلت قليل؟

لقد كان في ظل الأراك كفاية ... لمـن كان يوما يعتريه رحيل!

ويروى أن ملكا من الملوك بنى قصرا وقال: انظروا من عاب منه شيئا فأصلحوه واعطوه درهمين، فأتاه رجل فقال: إن في هذا القصر عيبين. قال: وما هما ؟، قال: يموت الملك، ويخرب القصر، قال: صدقت، ثم أقبل على نفسه وترك الدنيا.

ونظر رجل من العُبَّاد إلى باب ملك من الملوك، وقد شيده وأتقنه وزوَّقه، فقال: باب حديد، وموت عتيد، ونزع شديد، وسفر بعيد. هذا إذا كان المال المنفق في ذلك كله حلالا، فكيف به إذا كان من شبهة أو حراما؟!!.

سؤال العبد يوم القيامة عن الترف والنعيم:

وليتأمل الموفق قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] وقوله عليه السلام: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى

يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه»، أخرجه البيهقي عن معاذ، والترمذي بنحوه من حديث أبي برزة وصححه، ومن حديث ابن مسعود أيضا، ولينظر هل يجد هناك جوابا؟، أو يستطيع بين يدي مولاه خطابا ؟، سيما إن كان واليا، وفيما أمر به من القيام بالوظائف الشرعية متوانيا. . .

وانظر إلى ما روي من أن سيدنا العباس -رضي الله عنه- كان خليلا لعمر بن الخطاب، فلما أصيب جعل يدعو ربه أن يريه إياه، فرآه بعد حول وهو يمسح العرق عن وجهه، فقال: ما فعلت؟، قال: «هذا أوان فرغت من الحساب، إن كاد عرشي لينهد لولا أني لقيت رؤوفا رحيما»، وما روي أيضا عن عبد الله بن عمر قال: تضرعت إلى ربي أن يريني أبي في المنام، حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه، فسألته؛ فقال: «لولا رحمة الله هلك أبوك، إنه سألني عن عقال بعير الصدقة، وعن حياض الإبل، فكيف عن الناس!!»، ولما سمع بهذه الرؤيا عمر بن عبد العزيز، صاح وضرب بيده على رأسه وقال: فُعِلَ هذا بالطاهر النقي، فكيف بالمترف عمر بن عبد العزيز!.

وانظر أيضا لما أفضت الخلافة إلى ابن عبد العزيز هذا؛ بكى؛ ثم خَيَّرَ نساءَهُ وجواريه وقال: «قد أتاني أمر شغلني عنكن، فلا أتفرغ لَكُنَّ حتى يفرغ الناس من الحساب يوم القيامة». فبكى عند ذلك أهل بيته حتى ظن جيرانهم أنه مات عندهم أحد، وروي أيضا أنه لما بويع بالخلافة أكثر من البكاء حتى خنقته العَبْرة، فقيل له في ذلك؛ فقال: «كيف لا أبكي وليس على وجه الأرض اليوم أحد إلا وله علي حق؟!!».

وتأمل ما أعطيه سيدنا سليمان عليه السلام من الملك الذي لم يعطه أحد بعده، فإنه أوتي ملك جميع الدنيا والإنس والجن والطير والوحش، والريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك كله أجمع، فقيل له: ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩]، فما عده رفعة، ولا حسبه منزلة؛ بل قال: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، فخاف أن يكون ذلك مكرا واستدراجا، فكيف

غيره ممن قيل له: إنك مسؤول ومحاسب، ولا يدري ما الله صانع به، قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر؛ ٩٢-٩٣].

وقد كان سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول: «لو هلكت شاة بشط الفرات لظننت أن الله سائل عنها عمر»، وأخذ رضي الله عنه يوما تبنة من الأرض وقال: «يا ليتني هذه التبنة، يا ليتني كنت نسيا منسيا»، وقال يوم احتضر: «لو أن لي قلاع الأرض ذهبا لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه»، وأنشأ يقول:

وأوعدني كعب ثلاثا أعـــدها ... ولاشك أن القول ما قاله كَعْبُ

وما بي حَذارُ الموت؛ إني لَمَيِّتٌ ... ولـكــــنْ حَذَارُ الذنب يتبعه ذَنْبُ

فعلى من كان -أيتها الأمة- متيقظا حازما، وبمحاسبة مولاه وسؤاله له عن النقير والقطمير والقليل والكثير عالما؛ أن يقبل على مراقبة نفسه ومحاسبتها، والتضييق عليها في جميع أحوالها وحركاتها وسكناتها، حتى لا يضيع عليه شيء من أوقات عمره، وتكون كلها في طاعة الله وشكره، فإن أنفاس الإنسان هي أجزاء حياته، وكل نَفَسٍ منها جوهرة نفيسة لا عوض لها في بقية أوقاته، يمكن أن يشتري بها كنزا من الكنوز لا يفنى أبدا، ولا يتناهى نعيمه سرمدا، فكيف يليق بالعاقل أن يضيعه في البطالات، ويجعله في اللهو والهزء والجهالات، وهل ذلك إلا غاية الخسران، ونهاية الخذلان والحرمان؟!!!.

قال علي رضي الله عنه: «بقية عُمْرِ المؤمن ما لها ثمن، يدرك فيها ما أفات، ويحيي ما أمات»، وفي الحِكَم: «ما فات من عمرك لا عوض له، وما حصل لك منه لا قيمة له» وعن الجنيد قال: «الوقت إذا فات لا يستدرك، وليس شيء أعز من الوقت»، ومن كلام بعضهم: «الوقت سيف؛ إن لم تقطعه قطعك»، يعني: إن لم تقطعه بالطاعة والمجاهدة؛ قطعك بالمعصية والمعاندة.

وقد أجمع العلماء والحكماء على أن لا طريق للسعادة الأبدية، والسيادة السرمدية؛ إلا بنهي النفس عن هواها، وسَوْقِها إلى ما يرضي عنها مولاها، وعلى أن المعاصي سموم قاتلة مبعدة عن رضوان الله، موجبة لسخطه ومقته وعذابه الذي لا طاقة لأحد به، فإن من لا يحتمل حر الشمس، ولطمة شرطي، وقرصة نملة، كيف يحتمل حر نار جهنم، وضرب مقامع الزبانية، ولسع حيات كأعناق البخت، وعقارب كالبغال، خلقت من النار في دار الغضب والبوار؟!!، كما قيل:

فيا عاملاً للنار؛ جسمُكَ ليّنٌ فَجَرِّبْهُ تمرينا بحر الظهيرة

ودربه في لسع الزنابير تجتري على نهش حيات هناك عظيمة

فإن كنت لا تقوى؛ فويلك: ما الذي دعاك إلى إسخاط رب البرية؟!!

وفي البخاري من حديث النعمان بن بشير مرفوعا: «إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة: لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه»، وانظر قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقوله: ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ. كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ. نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ. تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ. وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ [المعارج: ١١-١٨].

على أن المنهمك في المعاصي مشغول بتخريب إيمانه وإفساده، فإن المعاصي بريد الكفر، فهو مرتكب لمخاطرة سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى، لأنه إذا اشتغل بتضعيف الإيمان؛ جاءه الموت وهو على آخر رمق في غاية الضعف، فقد يسلم له ذلك القدر، وقد لا يسلم؛ وهو المناسب لحاله، وقد قيل: أكثر ما يُسْلَبُ العبد الإيمان؛ عند الموت. نسأل الله العافية.

وفقنا الله تعالى لطاعته، وحمانا من كيد الشيطان ووسوسته، وعرفنا بغوائل النفوس، وجنبنا طرق الغواية والضلالة والبوس... آمين.

وانظر أيضا؛ فإن الدنيا للعبد سرور؛ لولا أنه غرور، ونعيم؛ لولا أنه عديم، وملك؛ لولا أنه هَلْك، وغناء؛ لولا أنه فناء، وارتفاع؛ لولا أنه اتضاع، وعلاء؛ لولا أنه بلاء، وحُسْن؛ لولا أنه حزن.

قال أحمد بن حرب: «من نظر إلى بستان أو بنيان بشهوة من غير عبرة، سلبه الله حلاوة العبادة أربعين يوما»، وفي «المنن الكبرى» للشعراني ما نصه: «وسمعت سيدي عليا الخواص -رضي الله تبارك وتعالى عنه- مرات يقول: من ضحك أو جامع زوجته أو لبس ثوبا مبخترا، أو ذهب إلى مواضع التنزهات أيام نزول البلاء على المسلمين؛ فهو والبهائم سواء»هـ.

ويرحم الله بعض ملوك الإسلام، ممن كان معتنيا بنصرة دين النبي عليه الصلاة والسلام، فإنه لما حاصرت النصارى بعض بلاده؛ امتنع من الضحك والتبسم حتى في وجوه أهل محبته ووداده، وقال: أستحيي من الله أن أبدي ضحكا أو تبسما، والمسلمون تحاصرهم الروم تلوماً!!.

وفي «حسن المحاضرة» للأسيوطي رحمه الله ما نصه: «وفي سنة خمس وستين وخمسمائة حاصرت الفرنج دمياط خمسين يوما؛ بحيث ضيقوا على أهلها وقتلوا منهم؛ فأرسل نور الدين محمود الشهيد إليهم جيشا عليه صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ فأجلوهم عنها، وكان الملك نور الدين شديد الاهتمام بذلك، حتى إنه قرأ عليه بعض طلبة الحديث جزءا فيه حديث مسلسل بالتبسم؛ فطلب منه أن يبتسم ليتصل التسلسل، فامتنع من ذلك وقال: «إني أستحيي من الله أن يراني مبتسما والمسلمون تحاصرهم الفرنج بثغر دمياط»، قال السيوطي: فَرحَم الله هذا الملك وأمثاله:

هكذا هكذا؛ وإلا فلا؛ لا ذي المعالي فَلْيَعْلُوَنَّ من تعالىٰ

نسأله سبحانه أن يجعلنا لنصرة هذا الدين المحمدي أهلا، وأن يوفقنا للذب عن جنابه ظاهرا وباطنا قولا وفعلا، وأن لا يجعل للكافرين علينا من سبيل، وأن يأخذهم الأخذ الوبيل، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة له حقيق وجدير... آمين.

المبحث التاسع

الإعراض عن العمل بالكتاب والسنة

ومنها، وهو المبحث التاسع: إعراضنا عن طريق العمل بالكتاب والسنة، وإهمالنا لما شرعه لنا رسول الله ﷺ وسَنَّه، واتباعنا لعوائدنا الردية، وأهوائنا الذميمة المُرْدِية، جهلاً منا بشؤم ذلك، وما ينشأ عنه من البلايا والمحن والمهالك، وما علمنا أن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ أصل جميع الخيرات، وسبب في نيل كل المبرات، ومخالفة أمرهما أصل كل فتنة ووبال، ومصيبة ومحنة وبلية ونكال.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، وقال: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ -قال مجاهد: يعني البدع والشبهات- فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، أي: عن طريقه ودينه، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أي: في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما معا.

وأخرج أحمد في مسنده، والطبراني في «الكبير» وأبو يعلى بسند حسن عن ابن عمر مرفوعاً: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل و الصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

قال في «التيسير»: «وكما أن الذلة مضروبة على من خالف، فالعز مجعول لأهل طاعته ومتابعته»، وأخرج أبو داود عنه أيضاً مرفوعاً: «لا زلتم منصورين على أعدائكم ما دمتم متمسكين بسنتي، فإن خالفتم؛ سلط الله عليكم أعداءكم، ولن ينزع خوفهم من قلوبكم حتى تعودوا إلى سنتي».

ستظهر فيكم السكرتان: سكرة العيش وسكرة الجهل:

وأخرج الحكيم الترمذي في «النوادر» عن الصَّلْتِ بن طريف، عن شيخ من أهل المدائن أن رسول الله ﷺ قال: «أنتم اليوم على بينة من ربكم، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتجاهدون في سبيل الله؛ ثم تظهر فيكم السكرتان: سكرة العيش -أي: حبه- وسكرة الجهل، وستحولون إلى غير ذلك، يفشوا فيكم حب الدنيا، فإذا كنتم كذلك؛ لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر، ولم تجاهدوا في سبيل الله، والقائمون يومئذ بالكتاب والسنة في السر والعلانية: السابقون الأولون»، وقد تقدم بنحوه من عند أبي نعيم في «الحلية» عن أنس وعن معاذ.

وفي «القوت» لأبي طالب المكي: روينا عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله عز وجل ثلاثة أملاك: مَلَكٌ على ظهر بيت الله الحرام، وملك على ظهر مسجد رسول الله ﷺ، وملك على ظهر بيت المقدس؛ ينادون كل يوم، يقول الملك الذي على ظهر بيت الله الحرام: من ضيع فرائض الله؛ خرج من أمان الله، ويقول الملك الذي على ظهر مسجد رسول الله ﷺ: من خالف سنة رسول الله؛ لم تنله شفاعته، ويقول الملك الذي على ظهر بيت المقدس: من أحل حراماً؛ لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً».

وأخرج الطبراني في «الكبير» عن الحكم بن عمير مرفوعاً: «الأمر المفظع، والحمل المضلع، والشر الذي لا ينقطع: إظهار البدع»، وأخرج أبو نعيم في «الحلية» عن أنس مرفوعاً: «أهل البدع شر الخلق والخليقة».

وقال بعض الأيمة في قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١]: إنه على ظاهره من أن الله تعالى لا يجعل للكافرين السبيل الموصلة إلى الظهور على المؤمنين، ولكن ما دام المسلمون عاملين بالحق، تابعين للسنة، غير راضين بالباطل، ولا تاركين للنهي عن المنكر.

قال بعضهم: وهو نفيس جدا.

وقال آخر: «لم يذهب ما ذهب من دولة الإسلام، في أي قطر وأفق كان؛ إلا بتهاونهم بالعمل بالشريعة المطهرة، وإيثارهم حب المال والنفس على الآخرة، وترك الغزو والجهاد، ورفض السنن المحمدية».

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]: «الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم ما عاش، وما دامت سنته باقية، فهو باق، فإذا أميتت سنته فانتظر البلاء والفتن».

وقيل: السنن كسفينة نوح؛ اتباعها يدفع البلاء عن أهل الأرض، ومخالفتها بالضد. وعن ابن شهاب قال: «بلغنا عن رجال من أهل العلم قالوا: الاعتصام بالسنة نجاة»، وفي الرسالة: «واللجأ إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد ﷺ، واتباع سبيل المؤمنين، وخير القرون من خير أمة أخرجت للناس؛ نجاة».

قال بعض من تكلم عليها -أي: من غضب الله ومقته وسخطه-: «ففي المفزع إلى ذلك العصمة»، أي: السلامة من كل سوء، وفي «الشفا»: «ومخالفة أمره وتبديل سنته ضلال وبدعة، ومتوعد عليه من الله بالخذلان والعذاب».

وفي «المدخل» من كلام شقيق بن أدهم البلخي قال: «دخل الفساد في الخلق من ستة أشياء:

أولها: ضعف النية في عمل الآخرة...

والثاني: صارت أبدانهم رهينة بشهواتهم...

والثالث: غلبة طول الأمل على قرب آجالهم. . .

والرابع: اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة رسول الله ﷺ وراء ظهورهم. . .

والخامس: آثروا رضى المخلوقين فيما يشتهون على رضى خالقهم فيما يكرهون. . .

والسادس: جعلوا أَدِلات -أي: أحوال- السلف دينا ومناقب لأنفسهم هـ. . .

ومن كلام أبي العباس الإبياني -من علماء الأندلس- قال: «ثلاث لو كتبن في ظفر لوسعهن، وفيهن خير الدنيا والآخرة: اتبع ولا تبتدع، اتضع ولا ترتفع، من ورع لا يتسع»، وكان مالك رضي الله عنه كثيراً ما ينشد:

وخير أمور الدين: ما كان سُنَّة ... وشر الأمور: المحدثاتُ البدائع

قلت: وقد جرت عادة الله تعالى، خصوصا في مغربنا الأقصى، المؤسسة قواعده من يوم افتتحه الأدارسة على الكتاب والسنة، أن الناس لا يزالون بخير وأحوالهم مستقيمة وبلادهم آمنة؛ ما داموا متظاهرين بالكتاب والسنة، فإذا خرجوا عنهما؛ انعكست أحوالهم، واضطرمت نيران الفتن بينهم، وغلت أسعارهم، وكثرت أكدارهم، وتشوف العدو إليهم. ولا يرتفع ذلك عنهم إلا إذا رجعوا إلى الدين، والتظاهر بما كانوا عليه من سنن المهتدين.

فلينتبه الموفق لذلك، وليعمل عليه، فقد حكم بصحته أهل التجربة قديماً وحديثاً، والله الموفق سبحانه، وهو الهادي من يشاء إلى صراط مستقيم.

المبحث العاشر

التجاهر بالمنكرات

ومنها وهو المبحث العاشر: تجاهرنا بالمنكرات ورفعنا لأستار المعاصي والمحرمات، من قتل وجرح وغصب ونهب وفجور وغيبة ونميمة وبهتان وكذب وزور، وزنى وربا وغش ومكر وخداع، وبيع فاسد وتناول حرام وشبهة من غير ارتداع، وعقوق والِدَيْن وسحر وكهانة واسترقاق مُحَرَّر وتضييع للأمانة، ورياء وسمعة وكبر وحسد وعجب ومباهاة، وحب مدح وتكاثر بالأموال والبنين، والغراسات والبناءات، ولعب صبيان في المساجد وإساءة لصلوات، واختلاط نساء ورجال، وتضييع للزكوات... إلى غير ذلك مما لا يحصى ولا يحصر، وهو أعرف من أن يعرف أو يذكر.

بل ارتكبنا جميع المنهيات، وأتينا بما لم تأت به أمة من أنواع المعاصي والمخالفات، حتى انتكست الأمور الدينية انتكاسا وتحول الحال فيها تحولا وانعكس انعكاسا، وصار المعروف فينا منكراً والمنكر معروفاً، والطاعة معصية والمعصية أمراً مألوفاً، بل والإيمان كفراً، والكفر إيمان، بضرب من التهور والخذلان، وذلك أيضاً من أعظم أسباب البلايا، وأكبر موجبات العقوبات والرزايا.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا -يعني: أغضبونا بارتكاب ما حرمناه عليهم- ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقال: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا -وقرأ أبو العالية: أمَّرنا بتشديد الميم، وابن عباس: آمرنا بالمد- فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]، وقال: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يغير ما بقوم﴾، قال: «لا يغير ما بهم من النعمة حتى يعملوا بالمعاصي؛ فيرفع الله عنهم النعم»، وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب «العرش» وأبو الشيخ وابن مردوية، عن علي مرفوعاً: «يقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهته من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي؛ إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي، وما من أهل بيت ولا قرية ولا رجل ببادية، كانوا على ما أحببت من طاعتي، ثم تحولوا عنها إلى ما كرهت من معصيتي؛ إلا تحولت لهم عما يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي».

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد ابن أبي هلال قال: بلغني أن نبياً من الأنبياء عليهم السلام لما أسرع قومه في المعاصي قال لهم: «اجتمعوا إلي لأبلغكم رسالة ربي»، فاجتمعوا إليه وفي يده فخارة فقال: «إن الله تبارك وتعالى يقول لكم: إنكم قد عملتم ذنوباً قد بلغت السماء، وإنكم لن تتوبوا منها وتنزعوا عنها إلا إن كُسرتم كما تكسر هذه». فألقاها فانكسرت وتفرقت، ثم قال: «وأُفرقكم حتى لا يُنْتَفَع بكم، ثم أبعث عليكم من لا حظ له فينتقم لي منكم، ثم أكون أنا الذي أنتقم لنفسي بعد». . .

وأخرج أحمد والطبراني في «الكبير» عن أم سلمة مرفوعاً: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي؛ عمهم الله بعذاب»، وأخرج الطبراني في «الكبير» وأبو نعيم في «الحلية» عنها أيضا مرفوعاً: «إذا ظهر السوء في الأرض؛ أنزل الله بأسه بأهل الأرض. وإن كان فيهم قوم صالحون يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يرجعون إلى مغفرة الله ورحمته»، وأخرج الديلمي في «مسند الفردوس» عن المغيرة بن شعبة مرفوعاً: «لا يزال العذاب مكشوفا عن العباد ما استتروا بمعاصي الله، فإذا أعلنوها؛ استوجبوا عذاب الله»، وأخرج الطبراني في «الكبير» والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس مرفوعاً: «إذا ظهر الزنى والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»، وأخرج مالك في «الموطأ» عن إسماعيل بن أبي حكيم، أنه سمع عمر بن عبد العزيز يقول: «كان يقال: إن الله لا يعذب الخاصة بذنب العامة، ولكن إذا عُمِلَ المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم».

إيثار صفقة الدنيا على الدين خروج من الدين:

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن زيد بن أرقم مرفوعاً: «لا تزال لا إله إلا الله تحجب غضب الرب عن الناس، ما لم يبالوا ما ذهب من دينهم إذا صلحت لهم دنياهم، فإذا قالوها؛ قيل لهم كذبتم لستم من أهلها»، وأخرج الحكيم الترمذي في «النوادر» عن أنس رفعه: «لا تزال لا إله إلا الله تمنع العباد منْ سخط الله، ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم، ثم قالوا لا إله إلا الله؛ ردَّت عليهم، وقال الله: كذبتم».

وأخرج الشيخان عن زينب بنت جحش أنها قالت: يا رسول الله؛ أنهلك وفينا الصالحون؟، قال: «نعم؛ إذا كثر الخبث»، أي: الزنى وأولاد الزنى، أو: الفسوق والمعاصي. قال العلماء: وفيه دليل على أن البلاء قد يرفع عن غير الصالحين إذا كثر الصالحون، وقد يعم الصالحين إذا كثر المفسدون؛ لعدم أمرهم لهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، أي: بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن رضيها، هذا بفساده، وهذا برضاه.

وأخرج أحمد وأبو داود عن رجل من الصحابة رفعه: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم»، أي: تكثر ذنوبهم ويتركوا تلافيها، فيظهر عذره تعالى في عقوبتهم. وأخرج مسلم عن أبي هريرة والطبراني في «الأوسط» عن أبي قتادة رفعاه: «كل أمتي معافى - أي: قد يعافيه الله تعالى ويسلمه من عقاب الدنيا وعذاب الآخرة- إلا المجاهرين»، أي: المعلنين بالمعاصي، أي: فإن الله تعالى لا يعافيهم ولا يُسْلِمُهُم، بل يسلط عليهم العقوبات في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون.

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما أنه قيل له: هل تركت بنو إسرائيل دينهم؟-أي: حتى عذبوا بأنواع العذاب، كمسخهم قردة وخنازير، وأمرهم بقتل أنفسهم- فقال: «لا؛ ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه، وإذا نهوا عن شيء ركبوه؛ حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه».

والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة، وفي دواوين الأئمة معلومة شهيرة، وقد قال في «المعيار» في: فصل البدع، بعد ذكر حديث: «لتتبعن سَنَنَ من قبلكم...» الحديث، ما نصه: «وقد قص علينا القرآن والأخبار من أمرهم ما شهدنا أكثر منه فينا، سمعت العلامة أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الآبلي يقول: لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزل فيهم؛ لأنا أتينا أكثر مما أتوا»هـ.

من أسباب البلاء: التهاون بالصغائر:

وقد بلينا في هذا الزمان، زيادة على ارتكاب الكبائر، والجهر بها؛ بالتهاون بالصغائر، والاستصغار لها، فقل ما تجد مرتكب صغيرة منا، وتنهاه عنها إلا قال: أي شيء هذه ما تعمل، والأمر فيها سهل؟!، وما أشبه هذا من الكلام، والاستصغار لمعاصي الله، والاحتقار لها، هو السم القاتل، كما قاله في «المدخل»، قال: «وقد قالوا: ارتكاب الكبائر أهون من الاستصغار للصغائر؛ لأن مرتكب الكبيرة يرجى له أن يرجع إلى الله ويتوب، ومن تهاون بالصغائر قلَّ أن يرجع من ذلك، لأنها عنده ليست بشيء، وقد قالوا: لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، وهذا بيِّن؛ لأن الصغائر إذا اجتمعت صارت كبائر»، وقال غيره: «تصير الصغيرة كبيرة بالاحتقار لها، والإصرار عليها، والفرح بها، والتحدث بها على وجه الافتخار، والإتيان بها مجاهرة من غير حياء، وكون صاحبها عالما يُقْتَدى به».

وقد ورد: «إياكم والمحقرات من الذنوب»، أخرجه أحمد عن سهل بن سعد وعن ابن مسعود، وورد أيضا: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فمال به هكذا -وأشار بيده فوق أنفه- فطار» أخرجه البخاري عن ابن مسعود، وقال أبو سعيد الخدري: إنكم لتعملون أشياء هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات». وقيل: «أعظم الذنوب ما صغر عند صاحبها».

مما ابتلينا به: استحلال كثير من المحرمات:

بل بلينا فيه باستحلال كثير من المحرمات، بضرب من التهور والتأويلات، حتى صارت عندنا كأنها مباحات، بل من كثرة التعاطي لها كأنها مندوبات، أو من المحتمات الواجبات، وهذا -والعياذ بالله تعالى- داء عضال، وخروج من ربقة الدين وانحلال، وهو أيضاً من أعظم أسباب النكال، ووجوه الاختلال.

وقد ورد: «تشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل الله منهم القردة والخنازير»، أخرجه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه، عن أبي مالك الأشعري.

وورد أيضاً: «والذي نفسي بيده ليبيتن أناس من أمتي على شر وبطر ولعب ولهو؛ فيصبحوا قردة وخنازير باستحلالهم المحارم، واتخاذهم القينات، وشربهم الخمر، وأكلهم الربا، ولبسهم الحرير»[1]، أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد مسند أبيه عن عبادة بن الصامت، وورد أيضا: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الخز -وفي رواية والحرير- وذكر كلاماً قال:- يمسخ منهم آخرون قردة وخنازير إلى يوم القيامة» أخرجه أبو داود عن أبي عامر أو أبي مالك الأشعري. قال ابن العربي: «يحتمل أن المسخ حقيقة، كما وقع في الأمم الماضية، أو هو كناية عن تبدل أخلاقهم».

وورد أيضاً: «إذا استحلت أمتي خمساً فعليهم الدمار - أي: الهلاك- إذا ظهر التلاعن، وشربوا الخمر، ولبسوا الحرير، واتخذوا القيان[2]، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء»، أخرجه البيهقي عن أنس، والأمر لله تعالى ما شاء فعل.

---

(١) من ذلك الأعراس المختلطة المنتشرة في العالم الإسلامي الآن، ومن لم يحضرها أو يعملها يلمز بكافة أنواع التعصب والتزمت. . .إلخ.

(٢) أي: النساء المغنيات كما هو منتشر الآن، يغنون الأغاني الخليعة، ويرتدون الملابس السافرة.

انتهاك الحرمات سبب البلايا والعقوبات:

ولما أن انتهكنا ما قد انتهكناه من المحرمات؛ ابتلينا بأنواع عديدة من المخاوف والآيات، من زلزلة وقحط وجراد وغلاء وجور وظلم وفتن عظيمة ووباء، لعلنا نرجع عن هوانا، أو نقلع عن عصياننا وغينا وعمانا.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]، وقال: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨]، قال قتادة: أي: يتوبون أو يتذكرون.

وذكر ابن أبي الدنيا حديثا مرسلا: إن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله ﷺ فوضع يده عليها ثم قال: «اسكني؛ فإنه لم يأن لك بعد!». ثم التفت إلى أصحابه فقال: «إن ربكم يستعتبكم فاعتبوه»، ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال: «أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلا عن شيء أحدثتموه، والذي نفسي بيده إن عادت لا أساكنكم فيها أبدا».

فلما لم نرجع بها، ولم نقلع عما نحن فيه بسببها؛ ابتلينا بما هو أكبر، وأدهى وأشر وأمرّ، من تسلط الأعداء علينا، وتوجههم بالبكور والآصال إلينا، كما هي عادة الله فيمن لم يرجع عن هواه، وقد كان صالح المري يقول: «إذا لم تتساو سريرة الناس وعلانيتهم؛ فلا يستغربون ما يحل بهم من أنواع البلايا والآفات».

وفي «حسن المحاضرة» للإمام السيوطي أثناء كلام ما نصه: «قلت: أجرى الله تعالى عادته: أن العامة إذا زاد فسادها، وانتهكوا حرمات الله، ولم تقم عليهم الحدود؛ أرسل الله عليهم آية في إثر آية، فإن لم ينجح ذلك فيهم؛ أتاهم بعذاب من عنده، وسلط عليهم من لا يستطيعون له دفاعا»، يعني: من الظلمة والأشرار، وأعداء الله الكفار.

والناس اليوم -أيتها الأمة- يطلبون أن تستقيم بهم الأحوال، وتسير بهم على أقوم سيرة الولاة والعمال، من غير أن يستقيموا في الأقوال والأفعال، وأنَّى ذلك إلا أن

يتفضل به الكبير المتعال، وقد كان ابن السماك يقول: «كما ابتليتم بالأعمال التي لا ترضي ربكم، وقلتم: إن الله تعالى قدَّر ذلك، فأقيموا العذر لولاتكم، فإن الله تعالى هو المقدر عليهم ما ظلموكم به، فإن أحدهم يود أن لا يظلم أحداً منكم؛ ولكن أعمالكم هي السبب في ظلمكم».

وكان عبد الملك بن مروان يقول لرعيته: «تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة أبي بكر وعمر، ولا تسيرون أنتم بسيرة رعاياهما، فنسأل الله أن يعين كل واحد منا على صاحبه». وكان عمر بن عبد العزيز يقول: «كان الحجاج الثقفي بلاء من الله وافق خطيئة». وكتب أخ لمحمد بن يوسف يشكو إليه من جور الولاة في بلاده، فأجابه بقول: «قد بلغنا كتابك، ولا يخفى عن علمك يا أخي أنه ليس لمن عمل بالمعصية أن ينكر وقوع العقوبة، وما أرى ما أنتم فيه إلا من شؤم الذنب... والسلام».

وفي «سراج الملوك» للطرطوشي: «كان العلماء يقولون: إذا استقامت لكم أمور السلطان؛ فأكثروا حمد الله تعالى وشكره، وإن جاءكم منه ما تكرهون؛ فوجهوه إلى ما تستوجبونه بذنوبكم، وتستحقونه بآثامكم».

تسليط الظالمين بعضهم على بعض:

ومن الشائع على الألسنة قولهم: «أعمالكم عُمَّالكم» وينسبونه حديثاً مرفوعاً، وكلام الطرطوشي في «السراج» يفيد أنه لم يقف عليه، وأورده في «أسنى المطالب»، وقال: إنه لم يثبت. وكلام السخاوي في «المقاصد» في حديث: «كما تكونون يولى عليكم» يقتضي وروده بزيادة: «إن» في أوله، لكنه أورده بصيغة التمريض، قلت: ومعناه موجود في القرآن والأحاديث والآثار والشعر.

أما القرآن: فقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٩]، أي: نسلط بعضهم على بعض بسبب ما كسبوا من المعاصي، على بعض التأويلات في الآية، وفي «الدر المنثور»: «أخرج أبو الشيخ عن منصور بن أبي الأسود قال: سألت الأعمش عن قوله: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا﴾

ما سمعتهم يقولون فيه؟!، قال: سمعتهم يقولون: «إذا فسد الناس أُمِّرَ عليهم شرارهم».

وأما الأحاديث: فأخرج ابن جميع في معجمه، والقضاعي في مسنده، بسند فيه مجاهيل، عن الحسن عن أبي بكرة مرفوعاً: «كما تكونون يولى عليكم»، وأخرجه الحاكم في تاريخه ومن طريقه الديلمي، من طريق يحيى بن هاشم، قال: حدثنا يونس بن أبي إسحاق السبيعي عن أبيه أظنه عن أبي بكرة مرفوعاً: «كما تكونون يولى عليكم -أو: يؤمر عليكم-» ومن هذا الوجه أخرجه البيهقي في «الشعب» بلفظ: «يؤمر عليكم»، بدون شك، وبحذف أبي بكرة، وقال: إنه منقطع. أي: مرسل، وراويه يحيى في عداد من يضع. وعند الطبراني معناه، انظر «المقاصد».

وأخرج الطبراني في «الأوسط» عن جابر مرفوعاً: «إن الله يقول: إني أنتقم ممن أبغض بمن أبغض، ثم أُصِيرُ كُلاًّ إلى النار»، وساقه الديلمي في «الفردوس» بلا إسناد عن جابر مرفوعاً بلفظ: «يقول الله عز وجل: أنتقم ممن أبغض بمن أبغض، ثم أصيرهما إلى النار»، وأخرجه الدِّينَوَرِي في «المجالسة» من طريق الحجاج بن أرطأة عن محمد بن المنكدر أنه قال: «يقول الله عز وجل: أنتصر ممن أبغض بمن أبغض ثم أصير كلا إلى النار».

وأخرج أبو نعيم في «الحلية»، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وغيرهم عن مالك بن دينار قال: قرأت في الزبور: «إني لأنتقم من المنافق بالمنافق، ثم أنتقم من المنافقين جميعا»، قال: ونظير ذلك في كتاب الله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩]...

وأخرج أبو نعيم في «الحلية» عن أبي الدرداء مرفوعاً: «إن الله تعالى يقول: أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملوك وملك الملوك، قلوب الملوك في يدي، وإن العباد إذا أطاعوني؛ حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرحمة والرأفة، وإن العباد إذا عصوني؛ حولت قلوبهم بالسخطة والنقمة؛ فساموهم سوء العذاب، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك،

ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع؛ كي أكفيكم ملوككم»، ونحوه ما أخرجه أبو الشيخ عن مالك بن دينار قال: قرأت في بعض الكتب: «إني أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فلا تشغلوا قلوبكم بسب الملوك، وادعوني أعطفهم عليكم»، هكذا ذكره في «الدر المنثور»، وذكره الطرطوشي في «السراج» عنه بلفظ: «وجدت في بعض الكتب»، وعند الشعراني في كتاب «المغترين»: «مكتوب في التوراة»، ثم اتفقا عنه قال: «يقول الله عز وجل: إني أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم».

ويذكر مرفوعاً: «الظالم عدل الله في الأرض ينتقم به من الناس، ثم ينتقم منه»، وهذا قال الحافظ ابن حجر في بعض فتاويه: «لا أستحضره. ومعناه دائر على الألسنة»، وقال الزركشي: «لم أجده، لكن معناه مركب من حديثين صحيحين: أحدهما: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»، وفي رواية النسائي: «بقوم لا خلاق لهم»، وثانيهما: «إن الله يمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». وأقرهما السخاوي، والثاني: السيوطي، وأورده الشعراني في «البدر المنير» وقال: «رواه الطبراني وغيره»، ومراده -والله أعلم- أنهم رووه بمعناه لا بلفظه، كما يشير إلى ذلك كلام السخاوي في «المقاصد»؛ وأورده أيضا في «درر الغواص» وعزاه للحاكم بلفظ: «الجائر عدل الله في أرضه، ينتقم به من خلقه، ثم يصير إلى الله؛ فإن شاء عفا عنه وإن شاء انتقم منه»، وفي المأثور من الدعوات: «اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا».

وأما الآثار: فأخرج أبو الشيخ عن مالك بن دينار قال: «كلما أحدثتم ذنبا؛ أحدث الله لكم من سلطانكم عقوبة»، وأخرج ابن عساكر في ترجمة علي بن هشام من «تاريخ دمشق» قال: «كان يقال: ما انتقم الله من قوم إلا بِشَرٍّ منهم»، وأخرج البيهقي عن كعب الأحبار قال: «إن لكل زمان ملكا يبعثه الله على نحو قلوب أهله، فإذا أراد صلاحهم؛ بعث عليهم مصلحا، وإذا أراد هلكتهم؛ بعث عليهم مترفهم».

وكان يقال: ما أنكرته من زمانك؛ فإنما أفسده عليك عملك. وفي «حادي الأرواح» لابن القيم ما نصه: «وفي الأثر: إن لله عز وجل خلق خلقاً من غضبه وأسكنهم بالمشرق؛ ينتقم بهم ممن عصاه».

وأما الشعر: فلابن الخراز السرقسطي، كما عزاه له ابن الأزرق في سياسته:

نسبتمُ الجور لعمالكمْ ونُمْتُمُ عن سوء أفعالكم
لا تنسبوا الجور إليهمُ ولـ كن إنما أعمالكم عمالكم
والله لو ملكتم ساعة لم يخطر العدل على بالكم

وأنشد بعضهم كما في «المقاصد»:

بذنوبنا دامت بليتنا والله يكشفها إذا تبنا

وأنشد آخر:

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقُها ولا ظالم إلا سيُبْلَى بظالم

من علامات سخط الله على خلقه:

وهذا -أعني: تولي الظالم على الخلق- من علامات سخط الله تعالى عليهم، كما أخرجه البيهقي عن الحسن قال: «إن بني إسرائيل سألوا موسى فقالوا: سل لنا ربك يبين لنا علم رضاه عنا وعلم سخطه، فسأله فقال: يا موسى؛ أنبئهم أن رضاي عنهم: أن أستعمل عليهم خيارهم، وأن سخطي عليهم: أن أستعمل عليهم شرارهم»، وأخرج أيضا من طريق عبد الملك بن قريب الأصمعي: حدثنا مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال: «حدثت أن موسى أو عيسى قال: يارب ما علامة رضاك عن خلقك؟، قال: أن أنزل عليهم الغيث إبان زرعهم، وأحبسه إبان حصادهم، وأجعل أمورهم إلى حلمائهم، وفَيْئَهُم في أيدي سمحائهم، قال: يارب فما علامة السخط؟، قال: أن أنزل عليهم الغيث إبان حصادهم، وأحبسه إبان زرعهم، وأجعل أمورهم إلى سفهائهم، وفيئهم في أيدي بخلائهم».

ومن علامات سخطه أيضا؛ **إذلالهم حتى لا يقدروا على أمر بمعروف، ونهي عن منكر**، أخرج أبو الشيخ عن أبي عمرو بن حماس أن ابن الزبير قال لكعب: «هل لله من علامة في العباد إذا سخط عليهم؟»، قال: نعم؛ يذلهم فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر» وفي القرآن: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

ومن علاماته أيضاً: **أن يسلط عليهم الصبيان في المساجد يعبثون فيها ويلعبون، فينهونهم فلا ينتهون، لسقوط هيبتهم من قلوبهم بانتهاكهم لمحارم الله**؛ أخرج الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً: «إن من علامات سخط الله على عباده؛ أن يسلط عليهم صبيانهم في مساجدهم، فينهونهم؛ فلا ينتهون» أورده السيوطي في «الجمع».

نسألك اللهم يا مولانا أن ترضى عنا وعن كل مؤمن رِضىً أَبَدِيًّا، وأن تمنحنا من جودك وفضلك فضلاً وافراً متأبداً سرمدياً، إنك أهل ذلك، والمنقذ لمن شئت بما شئت من المهالك.

يحمي الله البلاد بصلحائها وعبادها:

وقد ذكر في «المدخل»: «إن الموضع إذا كثر فيه الفساد، وأهله المقيمون فيه على حالهم لم يصبهم شيء من البلاء؛ دل ذلك على قوة حال الولي المقيم بينهم، لأنه لولا قوة حاله مع الله تعالى ومكانته عنده، وقربه منه؛ ما اندفعت العقوبة عنهم، فبنفسه وهمته العالية وحلوله بينهم أخر المولى الكريم العذاب عنهم، ليتوب من يتوب ويرجع، أو يصيب العذاب بعضهم خصوصاً، ولا يقع عاما».

«قال الشيخ الإمام الجليل عبد الرحمن المعروف بالصَّقَلِّي رحمه الله: «إن الله عز وجل لم يخل الأرض من الأولياء، إما قائم له بحجة، وإما مدفوع به البلاء»، فالقائم بالحجة: معروف بين الناس، والمدفوع به البلاء: قد يعرف وقد لا يعرف، وقد يعرفه بعض الناس دون آخرين».

«يبين ذلك ويوضحه: ما جرى للشيخ الإمام الجليل المعروف بالقرشي رحمه الله تعالى، لما أن رأى في وقته أنه سينزل بأهل مصر بلاء، قال: «أيقع هذا وأنا فيهم!»، قيل له: أخرج من بينهم، فهذا أمر لا بد من وقوعه، فخرج رحمه الله تعالى إلى الشام فأقام به، ثم بعد خروجه نزل بهم ما نزل، نسأل الله العافية بمنه. فهذا دليل واضح على أنهم لا يعذبون عذاباً عاماً وفيهم أحد ممن تقدم ذكره» انتهىٰ كلام «المدخل».

نسأله تعالى بجاه نبيه وحبيبه سيدنا محمد ﷺ وحرمة أوليائه الأبرار، أن يلطف بنا فيما جرت به مقاديره، وأن يكفينا هَمَّ الأشرار والفجار، بمنه وكرمه. . . آمين.

المبحث الحادي عشر

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومنها؛ وهو المبحث الحادي عشر؛ وهو آخر المباحث: ترك الأمر بالمعروف، وعدم النهي عن المنكر المألوف، بالنسبة لمن له مقدرة، ووجدت فيه الشروط المعتبرة، وهو أيضاً من أعظم الكبائر والمحظورات، وأكبر موجبات الفسق والهلاك وحلول العقوبات، لما فيه من نبذ الدين، وترك القيام بما هو من أعظم قواعده بيقين، وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الواجبان كفاية، كتاباً وسنة وإجماعاً عند وجود الشرط المقرر.

وقد كثر التساهل فيهما منذ أزمان، تعللاً بعدم توفر الشروط والأركان، مع أنها كثيراً ما تتوفر، وتوجد في بعض الأماكن بالنسبة لبعض الناس الوجود المعتبر، سيما من بسطت يده في الأرض، وملكه الله التصرف في طولها والعرض، ولكن داهن بعضنا بعضاً، حتى انحلت من الدين عراه وضاع نفلاً وفرضاً، فلا حول ولا قوة إلا بالله، والأمور كلها راجعة إلى الله.

وفي الإحياء: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله؛ تعطلت النبوة، واضمحلت الدنيا، وعمت الفترة، وشاعت الضلالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، وإن لم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

وقال النووي في «شرح مسلم»: «اعلم أن هذا الباب -أعني باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث؛ عم العقاب

الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم؛ أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب، ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]، فينبغي لطالب الآخرة، والساعي في تحصيل رضى الله عز وجل، أن يعتني بهذا الباب، فإن نفعه عظيم، لا سيما وقد ذهب معظمه...»، إلى آخر ما قال؛ فلينظر.

وفي «المدخل» لابن الحاج قال: «أكثر المناكر والبدع في زماننا هذا ليس على العالم مشقة ولا خوف في الكلام فيها، ولا في الحض على تركها، وإنما يتركها مع رؤيتها ولا يحض عليها في مجلسه في الغالب، لاستيناس النفوس بالعوائد الردية، وذلك هو الذي أهلك من مضى من الأمم، حكى الله سبحانه عنهم ذلك في كتابه فقال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ . وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣]، وقد ورد أن موسى عليه السلام مر على قرية وقد أهلكها الله فقال: «يارب، كيف أهلكتهم وكنت أعرف فيها رجلا صالحا؟!»، فأوحى الله تعالى إليه: «ياموسى؛ إنه لم يغير لي منكرا». فأفاد هذا الخبر أنه لو غير عليهم، أي: منعهم من فعل المنكر، ما هلك ولا هلكوا».

وفي «الرسالة»: «ومن الفرائض: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل من بسطت يده في الأرض -أي: كالأمراء ونوابهم- وعلى كل من تصل يده إلى ذلك -أي: كالرجل في بيته- فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه».

وقال العقباني: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعين في حق غالب الناس، ولو في نفسه وأهله وعياله، لحديث: «كلكم راع»».

وفي «شرح الجوهرة»: «يجب على الفور إجماعا، فمن أمكنه أن يأمر بمعروفين وجب عليه الجمع، كمن يرى جماعة تركوا الصلاة فيأمرهم بكلمة واحدة: قوموا للصلاة».

الوعيد الشديد لتاركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وقد ورد في تركهما عند وجود شرطهما، في الكتاب والسنة وعيد شديد، وتقريع وتهديد، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ . كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: إنك ظالم؛ فقد تُوُدِّعَ منهم »، وأخرج الحاكم في تاريخه والأصبهاني عن أنس مرفوعاً: «لا تزال لا إله إلا الله تنفع من قالها، وترد عنهم العذاب والنقمة ما لم يستخفوا بحقها»، قالوا: يا رسول الله؛ وما الاستخفاف بحقها؟، قال: «أن يظهر العمل بمعاصي الله فلا ينكروه ولا يغيروه».

وأخرج أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والأصبهاني وغيرهم، عن جرير ابن عبد الله مرفوعاً: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه فلا يغيروا؛ إلا أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا»، وأخرج الأربعة وابن حبان في صحيحه عن أبي بكر الصديق مرفوعاً: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه؛ أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده».

وفي رواية لأبي داود: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيرون؛ إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب».

وأخرج البزار والطبراني في «الأوسط» بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم»، وأخرج أحمد والترمذي وحَسَّنَهُ والبيهقي عن حذيفة مرفوعاً: «والذي نفسي بيده؛ لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن أن يبعث الله عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعونه فلا يستجيب لكم».

وأخرج نعيم بن حماد في «الفتن» عن الحسن مرسلاً: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر؛ أو ليبعثن الله عليكم العجم فليضربن رقابكم، وليكونُنَّ أسداً لا يفرون»، وأخرج ابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن عائشة قالت: دخل علي النبي ﷺ فعرفت في وجهه أن قد حضره شيء، فتوضأ وما كلم أحداً، فلصقت بالحجرة أسمع ما يقول، فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «يا أيها الناس، إن الله يقول لكم: مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا أستجيب لكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم»، فما زاد عليهم حتى نزل.

وأخرج أحمد وابن ماجه والبيهقي في «الشعب» عن أنس قال: قيل: يا رسول الله؛ متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟، قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل قبلكم»، قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟، قال: «إذا ظهر الإدهان في خياركم، والفاحشة في كباركم، وتحول الملك في صغاركم، والفقه -وفي لفظ: العلم- في رذالكم».

وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه واللفظ له، عن ابن مسعود مرفوعاً: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي؛ نهاهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم؛ فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»، فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً فقال: «لا والذي نفسي بيده، حتى تَأْطُروهم على الحق أَطْراً»، أي: تلزموهم باتباعه إلزاما.

العقاب الإلهي يصيب الظالم وغير الظالم:

وأخرج أحمد والبغوي عن عدي بن عميرة الكندي قال: حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه؛ فلا ينكرونه، فإذا فعلوا ذلك؛ عذب الله العامة والخاصة»، وأخرج البزار والطبراني عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله؛ أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟، قال: «نعم» قيل: بم يا رسول الله؟، قال:

«بتهاونهم وسكوتهم على معاصي الله»، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، قال: «أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم؛ فيعمهم الله بعذاب؛ فيصيب الظالم وغير الظالم».

وعند ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمر الصنعاني قال: «أوحى الله إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم، قال: يا رب، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار ؟، قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم»، وقال مالك بن دينار: «أوحى الله إلى مَلَك أن: اقلب مدينة كذا على أهلها. قال: يا رب؛ إن فيهم عبدك فلانا ولم يعصك طرفة عين. فقال: اقلبها عليه وعليهم، فإن وجهه لم يتمعر فيَّ ساعة قط». ورواه الطبراني وغيره من حديث جابر مرفوعا. والمحفوظ -كما قال البيهقي- ما ذكر.

وقد بين الله في كتابه الكريم، أن خيرية هذه الأمة بأمرها بالمعروف وبنهيها عن المنكر الذميم، فقال تعالى جل علاه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وعلل تعالى استحقاق بني إسرائيل للعنته، بعدم التناهي عن المنكر ووصمته، كما سبق في آية: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [المائدة: ٧٨].

وفي العهود المحمدية: «أخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ؛ أن لا نفر من جماعة اجتمعنا معهم على أمر فيه إقامة للدين، كالجهاد في سبيل الله، أو أمر بمعروف نعين عليه، أو نهي عن منكر، أو مجلس ذكر لله؛ إلا لضرورة شرعية، لا سيما إن كان الناس ينفرون عن ذلك الخير تبعاً لنا، وهذا العهد يتأكد العمل به على علماء هذا الزمان وصوفيته، لكونهم رؤوس الناس، فإن قاموا في أمر قامت العامة معهم، وإن غفلوا في أمر غفلت العامة معهم عنه، والله تعالى يحب كل من نصر شريعة نبيه ﷺ، وأعان من يريد إقامة شعائرها، كما مرت الإشارة إليه في ضمن العهود أوائل الكتاب، **وبالجملة؛ فلا يتخلف عن نصرة الشريعة مع القدرة إلا من في قلبه نفاق**... والسلام، وقد ورد الترهيب في الفرار من الزحف، فقسنا عليه الفرار من كل خير فيه حياة الدين. والله غفور رحيم».

هل سد باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟:

وقد سد هذا الباب عندنا منذ أزمان، وحال دونه الشيطان، فلا من يقوم به أتم قيام، ولا من يعتني بوظائفه على الدوام، وقد كان مالك بن دينار -رحمه الله- يقول: ذهب المعروف يبكي، وجاء المنكر يضحك، ثم ينشد:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل فعل مُنْكَرِ
وبقيت في خَلَفٍ يُزَيِّنُ بعضُهم بعضا؛ ليسكت مِعْوَرٌ عن مِعْوَرِ

قال ابن الفاكهاني: «وأعجب ما في زماننا هذا؛ أن الذين يظن بهم العلم والدين، ممن يتعين عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متلبسون بمناكر شتى يجب إنكارها عليهم شرعا»، ولقد أحسن من قال:

بالملح يَصْلُحُ ما يُخْشَى تغيره فكيف بالملح إن حلت به الغِيَرُ؟!

وقال آخر:

هذا الزمان الذي كنا نحاذره في قول كَعْبٍ، وفي قول ابن مسعودِ
دهر به الحق مردود بأجمعه والجور فيه أذاه غير مردودِ
إن دام هذا ولم يحدث له غِيَرٌ لم يُبْكَ مَيْتٌ ولم يُفْرَحْ بمولودِ

وأنشد الشيخ أبو عبد الله السَرَّاج كما ذكره الشيخ زروق في «إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين»:

فسد الزمان؛ فأين أين المهرب وفشا الحرام؛ فأي كسب أطلب؟!
وتعامت العلماء عن شبهاتها فلمثل ذا فليعجب المتعجب!!
من ذا نشاور في مرامة ديننا أو من لنا في ذا الزمان يؤدب؟!

هذا في زمانهم؛ فكيف لو شاهدوا هذا الزمن، الذي كثرت فيه البلايا والمحن، وعظمت فيه المنكرات، واشتدت الخطوب والكربات؟!، فإلى الله المشتكى في دفع ما عرى، وهو المستغاث في رفع ما نزل وجرى، لا إله غيره ولا رب لنا سواه، ولا مُعَوَّلَ لنا إلا على كرمه وعلاه.

ومن العجب العجيب؛ أنه كما قل من يأمر وينهى؛ قل من يسمع ويجيب؛ حتى لا تكاد تجد من يقبل النصح ويرجع عن هواه، أو يلتفت إلى من يدله على ما فيه رشده وهداه، بل اتبع الناس آراءهم وأهواءهم، وجعلوا كلام النصحاء وراءهم، متصاممين عن سماع الموعظة والتذكر، متماوتين عند تذكيرهم بما يعود عليهم نفعه في الدار الآخرة، فكأن لسان حال الدهر ينشد من يذكرهم، وعمَّا هُم فيه من القبائح يزجرهم:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

فأقلع ليس يجدي ذاك شيئاً ... سوى إن بُعْثِرَتْ رمم العِبادِ

وفي «المدخل»: قال الفربري: اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض، فاطلع عليهم من كُوة وهو يبكي، ولحيته ترجف، فقال: عليكم بالقرآن، عليكم بالصلاة، ويحكم؛ ليس هذا زمان حديث، إنما هو زمان بكاء وتضرع واستكانة، ودعاء كدعاء الغريق، إنما هذا زمان: احفظ فيه لسانك، واخف مكانك، وعالج قلبك، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر».

متى يرتفع وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن النكر:

وقد ذكر العلماء أن الناس إذا اتبعوا الهوى، وغلب عليهم الشح، وأعجب كل واحد برأيه، وضعف شخص عن الإنكار عليهم، بأن علم أو ظن أن إنكاره لا يفيد، وأن المنكر لا يزول به، أو خاف بسببه مفسدة أعظم، أو على نفسه الهلاك أو شديد الأذى؛ فإنه يسقط عنه وجوب الإنكار، ويبقى الجواز والندب فيما إذا أيس من الإفادة أو

توهمها، لإظهار الشعائر، والتذكير بأمر الدين، وكذا إذا شك فيها، على ظاهر كلام أيمة المذهب. وقيل: يجب فيما عدى اليأس، وقيل: يجب في الجميع، وعدم الجواز فيما إذا خاف مفسدة أعظم، كما قاله ابن رشد وغيره، أو الهلاك، أو شديد الأذى، كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

ويفيده كلام القاضي عبد الوهاب أيضا، وظاهر كلامه أنه: يبقى الجواز حيث خشي ما دون الهلاك أو الأذى الشديد، ونقل الزرقاني في «شرح خليل» عن القرافي: «إنه إذا كان يتأذى في بدنه أو عرضه؛ فإنه ينتفي الجواز». وأطلق في ذلك، وانظره.

وذهب جماعة من العلماء، كالشيخ أبي حامد في «الإحياء»، إلى الجواز والندب ولو خاف القتل، لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]، ولحديث: «أفضل الجهاد: كلمة حق عند سلطان جائر»، أخرجه أبو داود والترمذي وحَسَّنَهُ، وابن ماجه عن أبي سعيد، وابن ماجه أيضا عن أبي أمامة، والنسائي عن طارق بن شهاب البجلي، وقال المنذري بعد عزوه للنسائي: إسناده صحيح والله أعلم.

وقد أخرج الترمذي وصححه، وابن ماجه والحاكم والبيهقي والطبراني وغيرهم، عن أبي ثعلبة الخشني مرفوعا: «ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه؛ فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العوام، فإن مِنْ ورائكم أيام الصبر؛ الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، العامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم».

وأخرج ابن مردوية عن معاذ بن جبل أنه قال: يا رسول الله؛ أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، قال: «يا معاذ؛ مروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيتم شحا مطاعا وهوى متبعا، وإعجاب كل امريء برأيه؛ فعليكم أنفسكم، لا يضركم ضلالة

غيركم، فهو من ورائكم أيام صبر، المتمسك فيها بدينه مثل القابض على الجمر، فللعامل منهم يومئذ مثل عمل أحدكم اليوم، كأجر خمسين منكم»، قلت: يا رسول الله، خمسين منهم؟!، قال: «بل خمسين منكم أنتم».

وأخرج الحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي مرفوعا: «إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا -وشبك بين أنامله، أي: مختلطين يموج بعضهم في بعض- فالزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصة أمر نفسك، ودع عنك أمر العامة» أي: اتركه.

قال في «التيسير»: «فإذا غلب على ظنك أن المنكر لا يزول بإنكارك، أو خفت محذورا؛ فأنت في سعة من تركه، وأنكر بالقلب مع الإنجماع»، أي: لأن الإنكار به فرض عين على كل أحد بلا شرط، لا يسقط في حال من الأحوال، بل ذهب جماعة منهم أحمد إلى أن تركه كفر، لقوله في الحديث: «وهو أضعف الإيمان»، وقوله: مع الإنجماع، أي: الإنكفاف عن حضور مواضع المنكر، والاعتزال في بيته حتى لا يشاهده.

قال في الإحياء: «ولا يخرج إلا لحاجة مهمة أو واجب، ولا يلزمه مفارقة تلك البلدة والهجرة إلا إذا كان يدفع إلى الفساد، أو يحمل على مساعدة السلاطين في الظلم والمنكرات؛ فتلزمه الهجرة إن قدر عليها، فإن الإكراه لا يكون عذرا في حق من يقدر على الهرب من الإكراه».

وقال غيره من فقهائنا: «تحرم الإقامة والسكنى بين قوم لا يتناهون عن المناكر، ولا زاجر يزجرهم عنها، وإن لم يباشر هو معهم ما هم عليه، وتجب عليه هجرتهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧]، قالوا: «وهو ساقط عن الإمامة والشهادة بعدم الهجران، وهذا إذا وجد محلا يتناهى فيه عن ذلك، أو يوجد فيه زاجر عنه، أو أقل منكراً أو فسادا من المحل الذي هو به». أنظر كتب أصحابنا تستفد.

وأخرج البيهقي في «الشعب» وابن عدي في كامله عن أبي أمامة مرفوعا: «إذا رأيتم الأمر لا تستطيعون تغييره؛ فاصبروا حتى يكون الله هو الذي يغيره»، أي: يزيله، يعني: فلا إثم عليكم حالتئذ، إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

وهذا في غير من بسطت أيديهم في الأرض، والرجل في أهله وخدمه ونحوهم وإمامهم؛ فهم قادرون على الأمر والنهي ولا عجز معهم، بل هم مستطيعون، فإن لم يفعلوا لحقهم الوعيد الوارد في تركه قطعا، ودل ذلك على نفاقهم، وضعف إيمانهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد...

خاتمة

خطاب جامع للأمة الإسلامية:

فهذه هي أسباب هلاكنا -أيتها الأمة الإسلامية- على سبيل الإجمال، في الحال والماضي والاستقبال، فلنشمر عن ساعد الجد في تركها، ولنقم على ساق الاجتهاد في قطعها، ولنتبع سبيل المؤمنين، والسلف الصالح أجمعين، بترك موالاة أعداء الدين، والتأهب لجهاد الكفرة المعتدين، بعد جهادنا لنفوسنا، ورد المظالم إلى إخواننا، وأمرنا بما أمر به مالكنا، ونهينا عما عنه نهى سيدنا وخالقنا، إن أردنا السلامة والنجاة، والعصمة في الحياة وبعد الممات، وإلا فقد عرضنا نفوسنا لسخط الله، وحلت بنا -إن لم يتجاوز عنا- عقوبة الله.

كان سفيان الثوري رحمه الله يقول: «قَحَطَ بنو إسرائيل سبع سنين حتى أكلوا الميتة والأطفال، فكانوا يخرجون إلى الجبال، فيتضرعون ولا يجابون؛ فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن: قل لهم: لو عبدتموني حتى صرتم كالسوط البالي؛ ما قبلت لكم دعاء حتى تردوا المظالم إلى أهلها. وأصابهم قحط مرة أخرى فاستسقوا فلم يسقوا؛ فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: كيف أستجيب لهم وقد خرجوا بأبدان نجسة، ورفعوا إلي أكفا قد أكلوا بها الحرام حتى ملؤوا بطونهم، فلا يزدادون مني إلا بعدا وقحطا، فليتوبوا إلي وأنا أرفع عنهم القحط».

وكان إسحاق بن خلف يقول: «ليس الخائف الذي يبكي ويمسح دموعه؛ إنما الخائف من ترك فعل الأمور التي يخاف أن يعذبه الله عليها».

وقيل لسفيان الثوري: لو دعوت الله؟!، فقال: «ترك الذنوب هو الدعاء».

وأخرج ابن أبي حاتم عن إسماعيل بن رافع قال: «ليس من الأمن لمكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة».

فالبدار البدار عباد الله لتدارك ما فات، بالتوبة و الإقلاع عن المعاصي والمنهيات، قبل أن يقال: هيهات هيهات، أو يحول بيننا وبين ما نريده الممات، وجُدُّوا في الأهبة والاستعداد، و ارفعوا عن أنفسكم الذلة بالرجوع إلى الجهاد.

فإن رغبتم عن ذلك، وأبيتم من سلوك هاتيك المسالك؛ فأين ما تقلدتموه من الدين، وبايعتم الله عليه من سلوك سبيل المهتدين؟!!، وأين أصحاب الهمم العالية، وأرباب الغيرة الإسلامية؟!! وأين أهل التقوى، ومن يطلق في ناديه لسان الدعوى؟!! وأين النفوس العزيزة المستقيمة، والطباع الأبية الكريمة؟!! وأين العقول المنورة السليمة، والطائفة المشكورة العظيمة؟!! وأين أيمة الإسلام، وما أمرنا به من إعلاء كلمة الله تعالى وإذلال الكفرة اللئام ؟!!.

أجعلنا بأجمعنا الكتاب والسنة ورا، ورجعنا من ديننا القهقرىٰ؟!! أم استولى على قلوبنا حب العاجلة، ونسينا ما نلقاه غدا في الآجلة؟!! كلا؛ بل ران على قلوبنا، وأُخِذْنا بالدنية في ديننا، ورضينا فيه بالذل والهوان، من القردة والخنازير وعبدة الصلبان، وبما لا يرضاه لدينهم أهل الباطل، ولا يوافق على العمل به عاقل، حتى صار أحدنا يصاب في دينه، بل في إيمانه فلا يشعر ولا يبالي، فإذا أصيب بدنياه، أو قلَّ بيعه وشراه؛ صدع الأيام والليالي، ويرحم الله القائل:

أبُـنَـيَّ إن مــن الـرجـال بهيمة ... فـي صـورة الـرجـل السميع المبصـر

فَطِـنٌ بكـل مصيبـة فـي مـالـه ... فـإذا أصيـب بـدينـه لـم يشعـر!!

والقائل أيضا:

عجبت لمبـتاع الضلالة بالهدى ... ولـلـمشتري دنياه بالدين أعجبُ

وأعجب من هذين: مـن باع دينه ... بدنيا سواه؛ فهْو من ذَيْنَ أعجب!!

وبالله عليكم معاشر الإسلام، وخصوصا الأمراء والولاة، ومن له بالدين اعتناء واكترات ، كيف الحياة مع العقارب والحيات، ومن يجهر بالشرك والتثليث وأنواع الكفر

والضلالات؟!، أم كيف تشرق علينا شموس الإسلام، إذا علتها من كل جانب سحائب الجهل والغواية والظلام؟؟! فلنفق من سكراتنا، ولنستيقظ من منام غفلاتنا، ولنستعن بالله في تحصين بلادنا وساحتنا، وحياطة ديننا وملتنا، ولنبادر عليل الإسلام قبل أن يموت، ولنتدارك من الدين ما عسى أن يفوت.

الحض على الجهاد

فهذا كتاب الله بين أيدينا، وألسنة آياته تنادينا، وسنة رسوله ﷺ قائمة بنادينا، وعلى إحياء الدين وإنقاذه من غربته تدلنا وتهدينا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ. وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

ذكر المفسرون أن المؤمنين قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله عز وجل لعملناه فنزلت هذه الآية، قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدقوا بالله وبرسوله، ووعده ووعيده ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾: استفهام في اللفظ، إيجاب في المعنى؛ ﴿تُنجِيكُم﴾: تخلصكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم موجع، وهو عذاب جهنم. فمكثوا ما شاء الله يقولون: ليتنا نعلم ما هي.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنهم قالوا: لو علمنا ما هي لأعطينا فيها الأموال والأهلين، فدلهم الله عليها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: تدومون على إيمانكم بهما، لأن الخطاب وقع لمن آمن، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في دينه وطريقه الذي شرع لكم، بيانا لصحة إيمانكم، ودلالة على صدقه وثباته واستمراره، ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: بأن تستعدوا بها لقتال الكفار، وتشتروا بها ما تحتاجون إليه في سفركم وقتالكم، ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: بأن تخرجوا لقتالهم وتباشروه بالفعل، وسمى ما ذكر تجارة لأنهم

يربحون فيه رضى الله عز وجل، ونيل جنته، والنجاة من عقابه، والنصر على أعدائهم وأعدائه، والفتح لبلادهم وأمصارهم.

وعن قتادة قال: «لولا أن الله بينها ودل عليها، لتلهف عليها رجال لم يكونوا يعلمونها حتى يطلبوها، وقد دلكم الله عليها وأعلمكم إياها»، وروي عنه أيضا أنه تلا هذه الآية ثم قال: «الحمد لله الذي بينها».

ثم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي: ما ذكر من الإيمان والجهاد، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من أموالكم وأنفسكم، ومن تضييع ذلك والتفريط فيه، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: مضار الأشياء ومنافعها، يعني: وإن كنتم لا تعلمون ذلك فأنتم والعدم على حد سواء، بل عدمكم خير من وجودكم، وقال الخطيب: «إن كنتم تعلمون، أي: إن كان يمكن أن يتجدد لكم علم في وقت؛ فأنتم تعلمون أن ذلك خير لكم، فإذا علمتم أنه خير أقبلتم عليه، فكان لكم به أمر عظيم، وإن كانت قلوبكم قد طمست طمسا لا رجاء لصلاحه؛ فصلوا على أنفسكم صلاة الموت».

وكأنه قيل: إذا فعلنا ذلك، فما يكون لنا ؟، فأجاب: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: إذا فعلتم ذلك؛ يغفر لكم ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: يمح أعيانها وآثارها كلها. ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾ أي: بعد التزكية بالمغفرة رحمة لكم، ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت أشجارها وغرفها وكل متنزه فيها ﴿الْأَنْهَارُ﴾؛ فهي لا تزال غضة خضراء زهراء، ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾أي: بساتين إقامة وخلود، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من المغفرة وإدخال الجنة﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: السعادة الدائمةدائمة الكبيرة، ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي: ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة و الثواب في الآجلة؛ نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم، ثم فسرها بقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: لكم على أعدائه وأعدائكم، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل لأمصارهم وبلادهم، ﴿وَبَشِّرِ﴾ أي: يا محمد، ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بهذا الثواب العظيم، ليكونوا منه على يقين، ويدوموا على إيمانهم، ويقوموا بما أمروا به من جهاد عدوهم، من غير تراخ ولاتوان، في زمن من الأزمان.

وكَفَتْ هذِه الآية الشريفة -لمن وفقه الله- ترغيبا في الجهاد وحثا عليه، وزجرا عن تركه، كيف وفيه من الآيات والأحاديث ما أفرده الناس بالدواوين، وقد واظب النبي ﷺ عليه بعد الهجرة إلى أن توفاه الله، بل كانت ساعاته كلها موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده، وتلاه على ذلك الخلفاء الراشدون، والأمراء العادلون.

وسئل النبي ﷺ عن عمل يعدله فقال: «لا أجده»، أخرجه البخاري وغيره عن أبي هريرة، وسئل أيضا عن أفضل الأعمال فقال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟، قال: «الجهاد في سبيل الله». أخرجه الشيخان عنه، وقال أبو ذر: قلت: يا رسول الله؛ أي الأعمال أفضل؟، قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله». أخرجاه أيضا، وسئل: أي الناس أفضل؟، فقال: «مؤمن يجاهد بنفسه وبماله في سبيل الله تعالى». أخرجاه أيضا عن أبي سعيد.

وقال عليه الصلاة والسلام: «أقرب العمل إلى الله: الجهاد في سبيل الله؛ ولا يقاربه شيء». أخرجه البخاري في «التاريخ» عن فضالة بن عبيد، وقال: «إن أفضل عمل المؤمنين: الجهاد في سبيل الله». أخرجه الطبراني في «الكبير» عن بلال.

موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود:

وقال: «موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود»، أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة، وقال: «غدوة في سبيل الله أو رَوْحَة، خير من الدنيا وما فيها »، أخرجه الشيخان عن أنس، وعن سهل بن سعد الساعدي، ومسلم عن أبي هريرة، والترمذي عن ابن عباس، قال السيوطي: وهو متواتر؛ وقال: «غدوة في سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت»، أخرجه مسلم عن أبي أيوب.

وقال: «ذروة سنام الإسلام: الجهاد في سبيل الله، لا يناله إلا أفضلهم» أخرجه الطبراني في« الكبير» عن أبي أمامة، وقال: «رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة، وذروة سنامه: الجهاد»، أخرجه الترمذي عن معاذ، وقال: «من اغبرت قدماه في سبيل الله؛ حرّمه الله على النار»، أخرجه أحمد والبخاري عن أبي عبس، قال المناوي: «وإذا كان ذا في غبار قدميه، فكيف بمن بذل وجهه ونفسه حتى قتل ؟!».

وقال: «من قاتل في سبيل الله فواق ناقة فقد وجبت له الجنة»، أخرجه الأربعة، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما. عن معاذ، وفي رواية لأحمد عن عمرو بن عبسة: « حرم الله على وجهه النار»، وقال: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم نهاره، القائم ليله، حتى يرجع متى يرجع»، أخرجه أحمد والبزار والطبراني عن النعمان بن بشير.

وقال خطابا لامرأة أتته فقالت: يا رسول الله، انطلق زوجي غازيا، وكنت أقتدي بصلاته إذا صلى، وبفعله كله، فأخبرني بعمل يبلغني عمله حتى يرجع: «أتستطيعين أن تقومي ولا تقعدي، وتصومي ولا تفطري، وتذكري الله تعالى ولا تفتري حتى يرجع ؟» قالت: ما أطيق هذا يا رسول الله!!!، فقال: «والذي نفسي بيده: لو طقتيه ما بلغت العشر من عمله»، رواه أحمد عن معاذ بن أنس، وقال: «أقرب الناس من درجة النبوءة: أهل العلم والجهاد»، أخرجه أبو نعيم في: فضل العالم العفيف، عن ابن عباس مرفوعا.

وقال لرجل: «و الذي نفسي بيده لو أنفقتَ ما في الأرض ما أدركتَ فضل غدوتهم»، يعني: المجاهدين في سبيل الله، أخرجه ابن المبارك في «كتاب الجهاد» من مرسل الحسن.

ولما نقل ابن يونس في ديوانه قول رسول الله ﷺ لبعض أصحابه: «لو قمت الليل وصمت النهار ما بلغت نوم المجاهد» وفي الحديث الآخر: «لم يبلغ غبار شراك نعاله»؛ نقل عن ابن قدامة قال: «لأن أقف موقفا في سبيل الله مواجها للعدو لا أضرب بسيف،

ولا أطعن برمح، ولا أرمي بسهم؛ أفضل من أن أعبد الله ستين سنة لا أعصيه». وقال أبو هريرة: «لحرس ليلة أحب إلي من صيام ألف يوم أصومها، وأقوم ليلها في المسجد الحرام، وعند قبر النبي ﷺ».

وما ورد في الجهاد من هذا ونحوه أكثر من أن يحصر، وقد تكفل ببيان بعضه الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب»، ومن هذه الأحاديث ونحوها؛ أخذ جماعة من العلماء، منهم القرطبي، ما ذكره من أن الجهاد أفضل الأعمال، وأنه لا يقاومه شيء منها، قال المناوي في «التيسير»: «أعلىٰ أنواع التقربات: الجهاد، فالغدوة والروحة فيه خير من الدنيا وما فيها».

وهو صحيح من حيث أن به تعلو راية الإسلام، وتكون العزة لأهله على الدوام، وكلمة الذين كفروا سفلى، وكلمة الله عليا، سيما في وقت وجوبه على الأعيان، كما هو في هذا الزمان.

وعبارة الفشنى في شرحه للأربعين النووية: «والجهاد أعلىٰ أنواع الطاعات، من حيث أن به يظهر الإسلام ويعلو على سائر الأديان، وليس ذلك لغيره من العبادات، فهو أعلى بهذا الاعتبار وإن كان فيها ما هو أفضل[1] منه -أي: باعتبار آخر- قال: وعلى هذا يحمل قول بعضهم: الجهاد لا يقاومه شيء».

وفي «زاد المعاد» لابن القيم قال: «الجهاد ذروة سنام الإسلام وقُبَّتُه، ومنازل أهله أعلىٰ المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة».

وفي «التوضيح» في باب: الحج. ما نصه: «المراد بالجهاد: أن تكون كلمة الله هي العليا. والقيام بها أشرف من القيام بالصلاة؛ لأن عدم القيام بالتوحيد كفر، وعدم القيام بالصلاة، ليس بكفر على المعروف».

---

(١) مثل الصلاة والصيام لأنهما من أركان الإسلام.

قلت: خصوصا في هذا الزمان الذي علا فيه الشرك وأهله، و استذلوا المؤمنين، وأخذوا كثيرا من بلادهم، وحصونهم، فلا يمكن أن يطيب لهم عيش، أو تهنأ لهم حياة أو يستقيم لهم شيء من الدين إلا به، وكذلك لا يرتفع عنهم ما هم فيه من الكروب والهموم والغموم والبلاء، إلا بفعله والنهوض له، والأخذ بالثار من أعداء الله تعالى وأعداء المسلمين.

وفي حديث البيهقي عن ابن عمر مرفوعا: «إذا الناس تبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ أنزل الله بهم بلاء -أي: ذلا وهما وغما- فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم»، وفي حديث الحاكم والطبراني عن أبي أمامة مرفوعا: «عليكم بالجهاد في سبيل الله، فإنه باب من أبواب الجنة، يدفع الله به الهم والغم».

وفي «زاد المعاد» لابن القيم ما نصه: «وأما تأثير الجهاد في دفع الهم والغم فأمر معلوم بالوجدان، فإن النفس متى تركت صائل الباطل وصولته واستيلاءه؛ اشتد همها وغمها، وكربها وخوفها، فإذا جاهدته لله؛ أبدل الله ذلك الهم والحزن فرحا ونشاطا وقوة، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤-١٥]، فلا شيء أذهب لجوى القلب وغمه وهمه وحزنه من الجهاد»، وفق الله المسلمين له، وأعانهم عليه بمنه وكرمه... آمين.

فدونك أيها السامع والناظر لهذه النصائح في كل قطر، وكل بلد، وكل إقليم، فاقبلها قبول إذعان، واعمل بها فإن ذلك من علامات الإيمان، ولا ترفضها فتخسر خسرانا مبينا، أو تعرض عنها فتضل ضلالا بعيدا وتكون مهينا، وتب إلى الله تعالى من عصيانك، وصمم على ترك ما كنت فيه من غيك وبهتانك، فقد قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦]، وقال: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ

﴿يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال عليه الصلاة والسلام: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، أخرجه ابن ماجه عن ابن مسعود، والحكيم الترمذي عن أبي سعيد، وابن النجار والديلمي عن أنس، زاد البيهقي وابن عساكر من حديث ابن عباس: «والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزيء بربه».

وقال العلماء: إن توبة التائب من ذنوبه مقبولة قطعا على أظهر القولين، إلا في وقت الغرغرة، وعند طلوع الشمس من مغربها. وفقنا الله تعالى وإياك، وأنالك من جهاد عدوه مقصدك ومتمناك، بفضله... آمين.

أولى الناس للعمل بهذه النصائح: الأمراء والعلماء وآل البيت الشرفاء:

وليعلم أن أولى الناس وأحقهم بما ذكرناه، وسطرناه في هذه المقالة وأصّلناه: الأمراء والعلماء، وآل بيته عليه الصلاة والسلام الشرفاء.

أما الأمراء: فلأن الله تعالى جعلهم خلفاء عنه، وبسط يدهم في الأرض، وحكمهم في طولها والعرض، وأقدرهم على جبر الناس على الفعل والترك، فكانوا أحق الناس بالاتباع، وأولاهم بالانزجار والارتداع، وبالرد إلى الطريق الشرعي، والمنهج القويم المرعي.

ولأنه تعالى: أمر بطاعتهم كما أمر بطاعته وطاعة رسوله، وقرنها بطاعتهما في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وحض نبيه صلى الله عليه وسلم عليها في غير ما حديث، كقوله: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصىٰ الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصىٰ الأمير فقد عصاني»، أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، فإذا لم يكونوا تابعين للمنهج الشرعي، عاملين بالحق، قائمين بالسنة؛ أوقعوا الناس بطاعتهم في العطب، وضل الجميع والعياذ بالله تعالى.

ولأنه: قد تقرر في الشرع، وعند الحكماء، أن صلاح الأمة بصلاحهم، وأن فسادها بفسادهم، ففي حديث البيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة مرفوعا: «إذا صلح الملك صلح جنوده، وإذا فسد الملك فسدت جنوده»، وفي رواية لأبي الشيخ في «العظمة» وأبي نعيم في «الطب»، عن أبي سعيد، والحكيم الترمذي عن عائشة: «إذا صلح الملك صلحت رعيته» وقال سفيان الثوري لأبي جعفر المنصور: «إني لأعلم رجلا إن صلح صلحت الأمة» قال: ومن هو ؟؛ قال: «أنت»، وقال الوليد بن هشام: «إن الرعية لتفسد بفساد الوالي وتصلح بصلاحه».

وقال البرزلي في كتاب: الجامع. من نوازله: «أحفظ في تاريخ بغداد عن ابن عباس قال: من كانت له دعوة فليجعلها في الملك؛ فإن صلاحه صلاح العامة. وقالت الحكماء: منزلة الملوك من الرعية كمنزلة الروح من الجسد، فإذا صفت الروح من الكدر؛ سرت إلى الجوارح سليمة، فاستقامت الجوارح والحواس، وانتظم أمر الجسد، وإذا تكدرت الروح، أو فسد مزاجها؛ فيا ويح الجسد تسري إليه وهي متكدرة منحرفة عن الاعتدال، فيأخذ كل عضو قسطه من الفساد، فتمرض الجوارح، ويتعطل نظام الجسد، ويجر ذلك إلى فساده وهلاكه».

ولأنه: قد علم من نصوص السنة، وأقاويل علماء الأمة: أنه يجب عليهم الذب عن المسلمين وحياطتهم، وحفظ ثغورهم وبلادهم، وجهاد عدوهم، وكف يد الظالم عنهم، وتدبير أمورهم بالشرع المطهر المبارك المحمدي في الأبدان والأموال، والنفوس والأخلاق، والأعمال والعقائد، وتفريق أموال بيت المال في مصارفها الشرعية، وعدم الاستئثار بما فوق الكفاية والمعروف منها، والمبالغة في إصلاح السيرة والسريرة.

وهذه هي الأمور التي شرع الله نصب الأيمة لها، فمن قام بها من الأيمة والسلاطين فهو من أهل الاجتهاد للرعية، والناصحين لها، والذابين عن ساحتها، وله على ذلك من الله تعالى الجزاء الأوفى، والمرقى الأرقى، وكان قطبا من أقطاب الدين، وركنا من أركان أهل اليقين، وملجأً للإسلام والمسلمين، وصلاحا لجميع العالمين، وتقارب درجته درجة الأنبياء والمرسلين، ويعد في جملة الخلفاء العادلين.

وقد ورد في الإمام العادل أنه: من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وأنه: من الثلاثة الذين لا ترد دعوتهم، ويكون عند الله يوم القيامة على منبر من نور عن يمين الرحمان، وأنه أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأفضلهم عنده منزلة، وأدناهم منه مجلسا، وأن يوما من أيامه وساعة من ساعاته أفضل من عبادة ستين سنة، قيام ليلها وصيام نهارها. . . إلى غير لك.

ومن أخل بشيء منها: فهو غير مجتهد للرعية، ولا ناصح لها، بل هو غاش خائن، لأحاديث وردت بذلك، كقوله عليه الصلاة والسلام: «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح؛ إلا لم يدخل معهم الجنة»، رواه مسلم والطبراني عن معقل بن يسار، زاد الطبراني: «كنصحه وجهده لنفسه».

وقوله: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته؛ إلا حرم الله تعالى عليه الجنة»، وفي رواية: «فلم يحطها بنصحه؛ لم يرح رائحة الجنة»، رواه الشيخان عنه أيضا.

وقوله: «من ولي من أمر المسلمين شيئا فغشهم؛ فهو في النار»؛ رواه الطبراني في «الأوسط» و«الصغير» عن أنس، وقوله: «ما من أمتي أحد ولي من أمر الناس شيئا لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه؛ إلا لم يجد رائحة الجنة»، رواه الطبراني فيهما أيضا عن ابن عباس، وقوله: «ما من إمام ولا وال بات ليلة سوداء غاشا لرعيته؛ إلا حرم الله عليه الجنة». رواه الطبراني عن عبد الله بن معقل المزني.

قال العلماء رضي الله عنهم: وعلى من كان واليا أو سلطانا أن يقتدي برسول الله ﷺ، وبالخلفاء الراشدين في جميع ما يأتي ويذر، من قليل أو كثير، جليل أو حقير، لأنه خليفة عن الرسول ﷺ وعنهم، وقائم مقامهم.

وعليه أيضا: تقريب أهل العلم والفضل، وتعظيمهم واحترامهم، والمشاورة معهم في الدين والدنيا، وقد كان الرسول ﷺ يجالس أكابر الصحابة ويشاورهم في أموره، ويأذن لهم في أوقات لا يأذن فيها لغيرهم كما هو معروف، بل كان ﷺ يخلط نفسه بكثير من الصحابة، ويجلس إلى أهل الصُفَّة، وهم فقراء المسلمين الذين لا أهل لهم ولا مسكن.

وفي تقريب أهل الفضل فوائد جليلة: منها: أنه يجري الأمور على ما عندهم من النظر فيما فيه صلاح المسلمين، فإن فضلهم يقتضي ذلك، وأما تعظيمهم واحترامهم؛ فهو من حق المسلم على المسلم، ومن تنزيل الناس منازلهم، كما ورد بذلك الدليل الصحيح.

وفي «مفيد النعم» للتاج السبكي: **«ما رأيت أميرا ينتقص من جانب الفقهاء إلا وكانت عاقبته عاقبة سوء»**.

وأما المشاورة معهم: فلأنها أمر واجب على الأمراء والولاة، ومن لا يستشير أهل العلم والدين؛ لا يصلح لولاية المسلمين في شيء، وفي المختصر في باب القضاء: «وأحضر -أي: القاضي- العلماء أو شاورهم»، ثم قال: «ونبذ حكم جائر وجاهل لم يشاور».

وعليه أيضا: مجانبة الأشرار ومن لا يخاف الله، ولا غَرَض له إلا في جمع الحطام، وتحصيل الشهوات، فإن من هذه حالته لا يصلح لمجالسته أدنى رجل من المسلمين، فكيف بمجالسة أمير المؤمنين؟!!، وفي الحديث: «إذا أراد الله بالأمير خيرا؛ جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك؛ جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه»، رواه أبو داود وغيره عن عائشة، وفيه أيضا: «ما بعث الله من نبي، ولا كان بعده من خليفة، إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالا، فمن وُقِيَ شرها فقد وَقي». رواه البخاري عن أبي أيوب، وروى نحوه أيضا عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة.

وعليه أيضا: تسهيل الحُجَّاب، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «من ولي أمر الناس ثم أغلق بابه دون المسكين والمظلوم وذي الحاجة؛ أغلق الله تبارك وتعالى أبواب رحمته دون حاجته وفقره أَفْقَرَ ما يكون إليها»، رواه أحمد وأبو يعلى عن أبي السماح الأزدي عن ابن عم له من أصحاب النبي ﷺ، أنه أتى معاوية فدخل عليه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: فَذَكَرَه.

وعليه أيضا: تفقد الضعفاء، والبحث عن أحوالهم، بنفسه أو بثقات يرفعون حوائجهم إليه، ويوصلون أغراضهم إلى مقامه، وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يطوف بنفسه في الليل على الأرامل والضعفاء والأيتام، ويسأل عن أحوالهم، وينظر في حوائجهم، ويقضيها لهم حتى بنفسه.

وبالجملة: فمعظم المقصود من نصب الأيمة: إقامة الدين، وجهاد أعداء الله، وتنفيذ أحكامه، وكف أيدي المعتدين والظالمين، وتأمين السبل والبلاد، والقيام بسنن خير العباد، فمن كان منهم ناهضا بهذه الأمور ونحوها؛ حصل به مقصود الإمامة، وانتفع الناس بولايته غاية النفع دينا ودنيا، وحصل له على ذلك الأجر التام، والرضى الكبير من الله تعالى، ومن رسوله ﷺ، وحشر يوم القيامة مع النبيئين والمرسلين، وكان معهم في الجنة في أعلىٰ عليين.

ومن لم يكن ناهضا بها؛ لم يحصل به المقصود، وإن كان عالما عابدا، ولا ينفعهم كونه مريدا للصلاح، وإجراء الأمور مجاريها الشرعية، مع عجزه عن ذلك، وعدم قدرته على إنفاذه، وإن كانت محبة الصلاح أفضل بمراتب لا حصر لها من محبة الفساد والخوض فيه والسعي إليه.

وقد ذكر العلماء في باب الإمامة من كتبهم كثيرا من الأحكام السلطانية، وأفردها جماعة منهم بالتصنيف، ونبه التاج السبكي في «معيد النعم ومبيد النقم» على مهمات منها أهملها الملوك أو قصروا فيها.

ومن جملة ما ذكر فيه من وظائف السلطان: «تجنيد الجنود، وإقامة فرض الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، فإن الله تعالى لم يوله على المسلمين ليكون رئيسا آكلا شاربا مستريحا، بل لينصر الدين، ويعلي الكلمة، فمن حقه ألا يدع الكفار يكفرون بأنعم الله ولا يؤمنون بالله تعالى ولا برسوله ﷺ، فإذا رأينا ملكا تقاعد عن هذا الأمر، وأخذ يظلم المسلمين ويأخذ أموالهم بغير حق، ثم سلبه الله نعمته، وجاء يستعتب الزمان، ويشكو الدهر، أفليس هو الظالم؟!، وقد كان يمكنه بدل أخذ أموال الناس وظلمهم، أن يقيم

جماعة في البحر يتلصصون على أهل الحرب، وإن كان هذا الملك شجاعا ناهضا فليرنا همته في أعداء الله تعالى الكفار، ويجاهدهم ويتلصصهم، ويعمل الحيلة في أخذ أموالهم حلا وبلا، ويدع عنه أذية المسلمين»، انتهىٰ المراد منه، وراجعه.

وفق الله جميع الأيمة، وأعانهم على ما فيه صلاح أنفسهم وصلاح الأمة، بمنه وكرمه.. آمين.

وأما العلماء: فلأنهم أمناء الله في الأرض، وورثة الأنبياء والخلفاء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ونواب نبينا ﷺ، وحراس الدين، وسرج الأزمنة، وقدوة الخلق.

قال عليه الصلاة والسلام: «العالم أمين الله في الأرض»، أخرجه ابن عبد البر في «كتاب العلم» والديلمي عن أنس. وقال: «العلماء أمناء الرسل على عباد الله»، أخرجه الديلمي وغيره عنه، وقال: «العلماء أمناء الله على خلقه»، أخرجه القضاعي وابن عساكر عنه أيضا.

وقال: «العلماء أمناء أمتي»، أخرجه الديلمي عن عثمان، وقال: «العلماء ورثة الأنبياء»، أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وآخرون عن أبي الدرداء، وله طرق أخر، وقال: «العلماء مصابيح الأرض، وخلفاء الأنبياء، وورثتي، وورثة الأنبياء»، أخرجه ابن عدي في كامله عن علي.

وقال: «العالم سلطان الله في الأرض» أخرجه الديلمي عن أبي ذر، وقال: «العلماء قادة، والمتقون سادة، ومجالسهم زيادة»، أخرجه الطبراني عن ابن عباس.

وإذا كانوا بهذه المثابة؛ فهم أحق الناس -بعد الأنبياء- بالأمر والنهي، والدعاء إلى الله تعالى والدلالة عليه، والتبيين لشرائعه، والحث عليها، ولأن الله تعالى أمر بطاعتهم أيضا في قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، فإنهم فُسِّرُوا بأهل العلم أيضا.

وقد خصوا بمزية وفضيلة لا يشاركهم فيها غيرهم، وهي: أن الله تعالى يُعْبَدُ بفتواهم، ويعرف حلاله وحرامه بهم؛ فصار كل من أطاع الله تعالى وعبده، أو ترك

معصية أو بدعة في صحائفهم، فإذا لم يكونوا على الصراط المستقيم، ولم يأمروا وينهوا؛ انعكس الحال، وانقلبت الطاعة معصية، وضاع الدين.

ولما تقرر من أن بصلاحهم تصلح الأمراء، كما أن بصلاح الأمراء تصلح الرعية، فصار صلاح العلماء صلاحا للأمة كلها، قال أبو الأسود الدؤلي: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك وأنشد بعضهم:

إن الأكابر يَحْكُمُونَ على الورى ... وعلى الأكابر تَحْكُمُ العلماءُ

وفي «الإحياء» قال: «فساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا؛ لم يقدر على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر؟!!».

وفي الحديث: «صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء» أخرجه ابن عبد البر، وأبو نعيم في «الحلية»، والديلمي، عن ابن عباس، وأخرج أبو نعيم في «الحلية» عن يحيى بن أبي كثير قال: «العلماء مثل الملح؛ هو صلاح كل شيء؛ فإذا فسد الملح لم يصلحه شيء». وفي معناه أنشدوا:

يا معشر العلماء يا مِلْحَ البَلَدْ ... ما يُصْلِحُ المِلْحَ إذا الملحُ فَسَد؟!

والعالم إذا لم يراع حق الله تعالى، وحق رسوله ﷺ، وجانبَ الشريعة المطهرة، واتبع الأهواء والأغراض؛ كان علمه في الحقيقة وبالا عليه، ووصمة تجر النكال في الدنيا والآخرة إليه، وقد ورد: «أشد الناس عذابا يوم القيامة: عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه» أخرجه الطبراني في «الصغير»، والبيهقي في «الشعب»، وغيرهما عن أبي هريرة، وهذا هو العلم الذي كان السلف الصالح يستعيذون بالله منه، واستعاذ منه قبلهم رسول الله ﷺ، حيث يقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها». أخرجه مسلم وغيره عن زيد بن أرقم، وكان الشيخ أبو إسحاق الشيرازي يقول: نعوذ بالله من علم يكون حجة علينا، وينشد:

عَلِمْتَ ما حَلَّلَ المولى وحَرَّمَهُ ... فَاعْمَلْ بِعِلْمِكَ إن العلم للعملِ

ومن كتاب «سِيَر السلف» للحافظ إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني: «قال إبراهيم الخواص: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم لمن اتبع العلم واستعمله واقتدى بالسنن، وإن كان قليل العلم».

وفي «المدخل» لابن الحاج: «قال الفضيل بن عياض: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم، وشحوا على دينهم، وأعزوا العلم وصانوه، وأنزلوه حيث أنزله الله تعالى؛ لخضعت لهم رقاب الجبابرة، وانقادت لهم الناس، وكانوا لهم تبعا، وعز الإسلام وأهله، ولكنهم أذلوا أنفسهم، ولم يبالوا بما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم، وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا، ليصيبوا بذلك ما في أيديهم، فذلوا وهانوا على الناس».

وفي معناه أنشد القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني لنفسه من قصيدة ذكرها بتمامها في «معيد النعم»:

ولو أن أهل العلم صانوه؛ صانهم ... ولو عَظَّمُوهُ في النفوس لَعُظِّمَا

ولكن؛ أذلوه؛ فهان، ودنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطماع حتى تَجَهَّما

قال التاج السبكي: «فلقد صدق هذا القائل، لو عظموا العلم لعظمهم. قال: وأنا أقرأ قوله لعَظما بفتح العين، فإن العلم إذا عُظِّمَ عَظُم، وهو في نفسه عظيم، ولهذا أقول: ولكن أهانوه فهانوا، ولكن الرواية: فهان، ولعُظِّمَ، بضم العين، والأحسن ما أشرت إليه».

وفي «مراقي الزلفى» للقاضي أبي بكر بن العربي: «قال بعض السلف: من طلب العلم لوجه الله؛ لم يزل معانا، ومن طلبه لغير الله؛ لم يزل مهانا»، وفي بعض الأخبار: احذروا فتنة العابد الجاهل والعالم الفاسق، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون. وفي «القوت»: «كان ابن عباس يقول: ويل للعالم من الأتباع، يزل الزلة فتحمل عنه في الآفاق»، وقال آخر: «زلة العالم مثل انكسار السفينة، تغرق وتُغْرِقُ الخلق».

وفقنا الله تعالى لطاعته، وأقر أعيننا باقتفاء أثر المصطفى واتباع سنته، وجعلنا من العلماء العاملين، وأهل الله الكاملين، بفضله... آمين.

وأما آل بيته الشرفاء: فلأنهم قومه عليه الصلاة والسلام وحزبه، ولا فخر لهم في الدنيا والآخرة إلا بعلو دينه، وانتصار شريعته، وقد اجتمع فيهم حمية دينية، وأخرى نسبية، فكانوا أولى الناس بالقيام بالشرائع، والتمسك بها، والحض عليها.

وقد أخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «أُدخلوا علي ولا يدخل علي إلا قرشي»، فقال: «يا معشر قريش؛ أنتم الولاة بعدي لهذا الدين، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القَيِّمَة».

ولأن الناس تَبَعٌ لهم في كل شيء؛ قال عليه الصلاة والسلام: «الناس تبع لقريش في الخير والشر»، أخرجه أحمد ومسلم عن جابر، وقد كانوا متبوعين في الجاهلية في كفرهم بكون أمر الكعبة بيدهم، فكذلك هم متبوعون في الإسلام، بكون النبي ﷺ منهم، فإذا تمسكوا بالشريعة المطهرة ونصروها؛ تبعهم الناس على ذلك، والعكس بالعكس.

ولأن جدهم ﷺ أمرنا في غير ما حديث باتباعهم والتمسك بهم والاقتداء بجنابهم، كقوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن زيد بن أرقم: «أيها الناس؛ إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن اتبعتموهما: كتاب الله وأهل بيتي عترتي»، وهو بمعناه في مسلم وغيره بألفاظ عديدة.

فإذا خالفوا أمره، واتبعوا غيره؛ تحملوا بذلك إثمهم وإثم من اتبعهم، وإن كان الإقتداء إنما هو بأهل العلم منهم، والعاملين بعلمهم، وهم باقون إلى يوم القيامة، حشرنا الله تعالى في زمرتهم، وأماتنا على محبتهم... آمين.

وقد كتبت هذه النصيحة قاصدا بها جميع أهل الآفاق، من كل المسلمين على الإطلاق، وخصوصا أهل مغربي؛ لكونهم جوار مكسبي، وأنا أعلم أن الوقت ولا بد غير مساعد ولا راض، وأن الزمان زمن الأمارات المؤذنة بالانقراض، ولكن رجوت النفع بها ولو لبعض الناس، ممن أراد الله تطهيرهم من الأرجاس، ولم آيس من حصوله للجم الغفير ، أو القُطْرِ الكبير، وربنا على كل شيء قدير.

وقصدت أيضا: إظهار العلم، والخروج من الكتمان، وإبداء عدم الرضى بما حل في الزمان، والأداء لبعض ما يجب من الإنكار، والتغيير والإنذار، على حسب الطاقة والإمكان، وهل يلام إذا أدى بعض ما عليه الإنسان؟!!.

وأسأل الله بإحسانه إلينا، وعظيم أياديه لدينا؛ أن يمن علينا باللطف العميم، ويرأف بنا، إنه جواد كريم، وأن يكرمنا في الدارين بكرامة الدخول في حماية نبيه وحبيبه المصطفى، سيدنا محمد ﷺ وكفى، ويجعلنا من أهل حزبه وجماعته، ويحشرنا في الرعيل الأول من أهل شفاعته. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٦٠]، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ. وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢] ، انتهى.

ووافق الفراغ من نسخ هذه النسخة من خط مؤلفها صبيحة يوم السبت عاشر ربيع الأول عام ١٣٢٦ بالمدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ثم قوبل بها فصح، إلا ما زاغ عنه البصر. قابله مؤلفه وجامعه محمد بن جعفر الكتاني، كان الله له بمنه آمين، وفرغ من مقابلته يوم الثلاثاء خامس وعشرى ربيع الثاني عام١٣٢٦ وتم طبعه بفاس في ٢٠ شعبان ١٣٢٦ .

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة